التقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية
تأسست عام 1953

رئيس التحرير: د.صالح ياسر
محرر "أدب وفن": ابراهيم الخياط

المواد المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها

العدد: 395
كانون الثاني: 2018

يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الاتي:
alkhiatibrahim@gmail.com

اشتراك السنة 2000 :ريال يمني
(100) مائة دولار امريكي (50) خمسون دولار امريكي
.للاشتراك والاعلان

:للاشتراك والاعلان

:للتواصل

Althakafa Aljadida Magazine
Mansour Bank for Investment- Baghdad
Account No:30721
SWIFT CODE: MBIVIQBA

:البريد الالكتروني
thakafajadida@hotmail.com
:البريد الالكتروني
thakafajadida4u@gmail.com

:الموقع الالكتروني
http://www.althakafaaljadeda.com
.مجلة الثقافة الجديدة - مؤسسة المزدهر للطباعة والنشر والإعلان
.تصدر عن مؤسسة المزدهر للطباعة والنشر والإعلان
:رقم الايداع
:الترقيم الدولي

* تنشر المجلة الدراسات والبحوث والمقالات والقصص والشعر والترجمات والتقارير والحوارات والمراجعات الكتب والمتابعات الثقافية ... الخ
* تخضع المواد المنشورة للتحكيم من قبل هيئة التحرير
* يحق للمجلة نشر المواد المرسلة في أعدادها الورقية والالكترونية
* المواد المنشورة تعبر عن آراء أصحابها
* المواد المرسلة لا ترد سواء نشرت أو لم تنشر
* المجلة غير ملزمة بنشر المواد في الأعداد التي تلي تاريخ استلامها
* المجلة غير ملزمة بإعادة المواد المرسلة إليها

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5- كلمة العدد

مقالات

8- الدستور العراقي.. مشكلة أم حل؟ ..... حميد مجيد موسى
19- صناعة الدستور وسياسات الهوية في العراق ..... د. سلام كامل كرم
33- الدستور ومقترح تعديل قانون الأحوال الشخصية..... القاضي سالم روضان الموسوي
39- الوضع الدستوري الحالي للمرأة في النظام العراقي ..... جاسم هداد
48- أسلحة الحرب والرقابة الدولية القانونية ..... د. كاظم المقدادي

طاولة حوارية

60- ندوة (الثقافة الجديدة) الحوارية بمناسبة مرور 100 عام على اندلاع ثورة اكتوبر العظمى في روسيا القيصرية.

نصوص قديمة

110- كفاحنا ضد الصهيونية ..... عبد الرزاق الصافي

نصوص مترجمة

120- حوار مع دليما روسيف رئيسة جمهورية البرازيل المعزولة – اجرى الحوار:أنا كارولينا شيلر وبيتر شتاينيغر . ترجمة: رشيد غويلب .

أدب وفـــــن

كلمة «أدب وفن»

128- نحتاج سجلا وطنيا ..... باسم عبد الحميد حمودي

في الحدث الادبي والفني

129- ترشيح الكبير مظفر النواب رسميا لجائزة نوبل للآداب 2018

دراسات نقدية

132- الشاعر كاظم الحجاج : شعرية السخرية والمفارقة..... فاضل ثامر

148- إعتراف بضمير أنا المتكلم.....صباح الأنباري

شعر

155- جسر على نهر "كواي" ..... كاظم اللايذ

قصص

157- كاكا . . . عبد الحليم حافظ ..... علي السباعي

166- متابعات في الصحافة الثقافية العالمية ..... ترجمة: جودت جالي

لوحتا غلافي العدد : للفنان فؤاد حمدي

كلمة العدد

متسلحون بالأمل بعراق جديد رغم كل الصعوبات والتحديات

ودّع العالم عام 2017 وفيه العديد من المنجزات رغم ما شهده من مصائب وحروب هنا وهناك. أما نحن في العراق فقد رحل عنا هذا العام وهو يجر وراءه الكثير من الخيبات وحالات الاستعصاء المتكررة وقعقعة السيوف الكلامية في حروب الطوائف والإثنيات.

فقد شهد عام 2017 استمرار **تفاقم وتعمق** الأزمة البنيوية التي تعيشها البلاد منذ سنوات عدة. فلم تعد مجرد ازمة حكومة او ازمة علاقات بين المتحاصصين فقط، بل هي ازمة متعددة الصُعد: اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية ... الخ، إنها أزمة نظام المحاصصات الطائفية ـ الاثنية الذي قاد البلاد الى ما هي عليه اليوم.

كما كنا خلال الاشهر الاخيرة من عام 2017 شهود تصعيد غير مسبوق وتوتر في العلاقة بين الحكومة الاتحادية وإقليم كردستان، ومن تجلياتها ازمة استفتاء اقليم كردستان وما تركه من آثار وتحديات، فقد عاد الاستقطاب السياسي المجنون الى السطح مجددا (وهو الذي لم يتوقف ابدا)، واكتسب مسار الصراع في بلادنا محتوى جديدا، ولاحت مجددا "بيارق" الغزوات وقعقعة السلاح والحروب "القومية" بين العرب والكورد التي تريد ايقاع البلاد في اتون حرب ضروس ليس فيها رابح ولا خاسر. وعادت مجددا "ثقافة" الصولات بما تحمله من تهديدات من جهة، ورهانات على تحقيق "انتصارات" انتخابية من جهة اخرى.

رغم قتامة اللوحة... ثمة ظواهر مبهجة

غير ان هذه اللوحة رغم قتامتها إلا أنها مليئة بألوان قزح مبهجة أيضا. فقد حقق العراقيون وفي مقدمتهم قواتنا المسلحة بكافة صنوفها وتشكيلاتها انتصارا كبيرا على "داعش" وتم دحره عسكريا من الناحية الاستراتيجية وانتزاع لأراضينا من سيطرته وبذا تحقق انتصار وطني كبير على قوى الارهاب.

ونود التنويه هنا الى أنه وإذ تتحمل القوى الارهابية والتكفيرية مسؤولية ما حصل بعد دخول "داعش" الى الموصل في 10 حزيران 2014 وتمددها في مناطق أخرى واسعة، إلا انه لا يجوز اهمال مسؤولية القوى المتحاصصة في تلك الكارثة الكبيرة، فقد تسببت الصراعات بين هذه القوى، على الثروة والنفوذ والسلطة، في تفاقم الازمة البنيوية ودفع البلاد الى حافة الهاوية. بهذا المعنى فان الخلل كامن في بنية النظام السائد، نظام المحاصصات الطائفية ـ الاثنية وفي طبيعة المشاريع والاستراتيجيات التي طبقت بعد 2003 بما فيها استراتيجيات الاحتلال الأمريكي، والتي لا يمكن أن تنتج غير هذه البنية، التي بيّنت التجربة انها تعاني من تناقض عصي لا يمكن حله إلا بتفكيك نظام المحاصصات وخلق الارضية لنظام جديد، هو النظام الوطني والديمقراطي في الوقت نفسه.

وتقتضي الاشارة هنا ايضا الى ان هذا النصر على قوى الارهاب لم يتحقق من دون تضحيات جسام وخسائر بشرية غالية وشجاعة وإقدام من المقاتلين على اختلاف تشكيلاتهم، فضلا عما لحق بالمدنيين وبالبنى التحتية ودور السكن والمنشآت العامة في المدن المحررة، من اضرار ودمار وخسائر بشرية ونزوح للملايين. كما ان هذا الانجاز الوطني الكبير ما كان ليتحقق لولا الدعم والإسناد متعدد الأشكال الذي قدمته جماهير شعبنا، وخصوصا الكادحون والفقراء، وقواه السياسية ومرجعياته المختلفة، علما ان معركة شعبنا ضد الارهاب حظيت بتفهم ودعم دوليين واسعين.

وبالمقابل، فإن من يتابع ما جرى في بلادنا عام 2017 سيجد تواصل ديناميات اجتماعية متعددة شهدتها البلاد منذ عام 2011 وتواصلت بوتيرة جديدة في 2015 ثم استمرت خلال السنتين الاخيرتين. فقد تواصلت الحركة الاحتجاجية واتخذت **اشكالاً متنوعة** وشملت فئات وشرائح اجتماعية وقطاعات اقتصادية ومناطق جغرافية مختلفة.

كما **تصاعد الحراك على الصعيد الثقافي** ايضا على طريق بناء ثقافة وطنية ديمقراطية وتأسيس مشهد ثقافي صحي، وضد محاولات بعض اوساط السلطة ممن تنظر الى الثقافة ومنتجيها نظرة ريبة وشك وتكفير في بعض الاحيان، بل وحتى محاولاتها الحثيثة للتدخل في العمل الثقافي والسعي للهيمنة عليه وتوجيهه. وكل هذه الحركات جعلت من الثقافة الوطنية العراقية بتنوعها الثري مرادفا للتقدم والديمقراطية والإبداع.

ان هذه التحركات بما احتوته من اشكال ثرية ومتنوعة تؤشر حقيقة أنه في ظروف النضال المجتمعي/ الديمقراطي الذي يخوضه شعبنا بمختلف قطاعاته وطبقاته وفئاته وشرائحه الاجتماعية، تبرز الأهمية المحورية للعمل الجماهيري والنشاط الاحتجاجي والمطلبي، باعتباره أحد روافع النضال الأساسية للقوى الحاملة للمشروع العابر للطوائف، والتي لن يكون بمقدورها أن تؤدي رسالتها التنويرية والحداثية، إلا إذا اعتمدت بجدارة على الجماهير واجتذبها الى النضال من منطلق الأهداف والمهمات والشعارات التي تنسجم مع المصالح والحاجات الحيوية لهذه الجماهير في اللحظة التاريخية الملموسة. فقد بينت التجربة أنه وبدون العمل الجماهيري لن تحل الازمة البنيوية المتفاقمة فهو الوسيلة لتغيير الواقع.

حانت اللحظة الى عقد اجتماعي جديد

في عام 2018 وبعد ان الحق العراقيون الهزيمة العسكرية بـ"داعش"، وأيضا تواصل الحركة الاحتجاجية والحراك المجتمعي عموما، حانت لحظة فريدة ينبغي عدم اضاعتها. ان العراقيين والعراقيات اليوم امام اختبار تأريخي يتمثل بالاهتداء الى حلول وتوافقات ترسي عقدا اجتماعيا جديدا، يؤسس لعراق متحرر، عراق اتحادي ديمقراطي على اساس وفاق طوعي. إنه بديل المواطنة الحقة؛ حيث يشعر الجميع انهم متساوون في الحقوق والواجبات، ويعيشون في دولة مدنية ديمقراطية عصرية.

وإزاء التحديات الوطنية الكبرى في المجالات المختلفة التي تواجه البلاد، وما جرّه عليها المشروع الطائفي/ الاثني/ المحاصصي من أزمات، فانه لا فكاك من أزمة نظام المحاصصة الطائفية إلاّ بتغيير ميزان القوى السياسي في المجتمع، لصالح بناء نظام عابر للطوائف وخنادقها المتقابلة والذي هو ليس سوى **المشروع الوطني/ المدني/ الديمقراطي**، الذي سيخلق الشروط لإقامة الدولة المدنية الديمقراطية العصرية، نقيض دولة الطوائف وحروبها العبثية، على اساس المواطنة والحريات والعدالة الاجتماعية.

وفي مثل هذه اللحظات المضطربة والتشظي المتعدد الابعاد يتعاظم دور النخب الثقافية باعتبارها منتجة للمعرفة وحاملة لرايات التغيير والديمقراطية والحداثة والوحدة الوطنية. فالصراع المجتمعي الدائر ليس حول الراهن، على أهميته، بل حول البديل المطلوب.

لقد اعتاد العراقيون، دون غيرهم، ان يخلطوا العيد بمجلس العزاء، ورغيف الخبز بدمعة طفل.. ولكثرة المصائب اصبح للعراقيين الحق في ان يترددوا كثيرا أو قليلا، ويتساءلوا، قبل ان يبدوا أي مظهر من مظاهر اعلان فرح، او تبادل ابتسامه، وكتابة بطاقة تهنئة بمناسبة حلول عيد ما.. لهم الحق في ذلك لان احزانهم وفيرة.

هل يصح الحزن أو الاحباط ان يكون مدخلا مناسبا للحديث عن عام جديد (2018)؟ الجواب: لا. على العكس، نحن نتمناه عاما للعمل والحوار والأمل.

لهذا كله، وفي بداية عام 2018، نقول لشعبنا العراقي: **كل عام وانت بخير مهما احاقت بك الشرور واشتدت الصعوبات**. نعم، في العام الجديد، سيتجدد الامل بعراق خال من الازمات والفساد وخيبات الأمل والتهميش والإقصاء والاستعصاءات الدائمة وتناسل الازمات ومكائد حيتان السلطة والفساد وحروب المتحاصصين من القوى المتنفذة.

ونجدد هنا ما قلناه في مناسبات عدة: النكوص وقبول الامر الواقع ليس خيارنا. نعم، نحلم بوطن آخر سيولد ذات يوم بالتأكيد.. وسنبقى متسلحين بالأمل وبمضاء العزيمة من أجل بناء وطن يتسع لنا جميعا!

مقـــــالات

الدستور العراقي .. مشكلة أم حل؟

حميد مجيد موسى

الرفيق حميد مجيد موسى (ابو داود)، السكرتير السابق للجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي. في الشهر السابع من العام 2003 وبعد سقوط النظام الدكتاتوري اصبح عضوا في (مجلس الحكم الانتقالي)؛ وفي شهر حزيران 2004 صار عضوا في (المجلس الوطني). أما في كانون الثاني من العام 2005 فقد انتخب (ابو داود) عضوا في الجمعية الوطنية عن قائمة (اتحاد الشعب). وفي الشهر الاول من العام 2006 انتخب عضوا في مجلس النواب. كان أحد المشاركين في عملية صياغة دستور 2005 منذ بدايتها. كما انتخب رئيسا للجنة المصغرة (من خمسة نواب) والتي كلفها البرلمان في حينه باعداد التعديلات المطلوب انجازها، لتخليص الدستور من نواقصه وتأويلاته المختلفة. هذا مع العلم ان الرفيق موسى خريج المعهد العالي للاقتصاد (كارل ماركس) في صوفيا، بلغاريا، وخلال الفترة 1970 – 1978 عمل باحثا اقتصاديا في شركة النفط الوطنية.

بداية، لا بد من الاشارة الى انه وعندما سقط النظام الدكتاتوري وألغي الدستور، ظهرت الحاجة لتنظيم الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية، ونشأت فكرة اعداد دستور، فشكل (مجلس الحكم) لجنة من 25 خبيرا من ذوي الخلفيات القانونية والسياسية. ولكن وبسبب تباين واختلاف الآراء والتصورات لم تتوصل اللجنة الى نتيجة، فكانت الوجهة الغالبة هي ان الوقت لا يسمح باعداد دستور. علما ان واستنادا الى تجربة العراق فان أي دستور مقبول يجب ان لا يكون دستورا مؤقتا بل دائما، والدستور الدائم يجب ان يجري اعداده واقراره من قبل لجنة منتخبة.

وارتباطا بالتطورات اللاحقة تم وضع العراق تحت سلطة الاحتلال بموجب قرار مجلس الأمن رقم 1483، وضع الحاكم المدني لسلطة العراق (بول بريمر) "مسودة قانون ادارة الدولة العراقية للمرحلة الانتقالية" وجيء بها الى (مجلس الحكم)، الذي انكب عليها لاسابيع لم يترك فيها شاردة أو واردة إلا مرّ عليها تعديلا أو تدقيقا او إلغاء أو إضافة، وهذه كانت تقتضي أيام عمل مضنية.

ومن جهة اخرى فان (الجمعية الوطنية)، وبعد أكثر من ثلاثة أشهر على إعلان نتائج الانتخابات البرلمانية الأولى في العراق في 30 كانون الأول 2005، باشرت مهمتها الكبرى، المتمثلة في صياغة مسودة الدستور الدائم. ومن أجل ذلك شكّلت "لجنة إعداد الدستور" ضمت 40 عضوا، دشّنت عملها بالفعل، ووفقاً لما ينص عليه (قانون إدارة

الدولة العراقية للمرحلة الانتقالية)[1]. وجرى النص على انه في حال لم تكمل (الجمعية الوطنية) مهمتها هذه في الوقت المحدد، فانه يمكن تمديد العملية ستة أشهر غير قابلة للتجديد؛ فالتأجيل كان جائزا لمرة واحدة فقط.
وهنا تقتضي الإشارة الى أن الجهود انصبت في حينه على إنجاز الوثيقة الدستورية في الموعد المقرر، والحيلولة دون تلكؤ عمل لجنة الدستور، ودون اللجوء بالتالي الى التمديد والتأجيل.
إن العملية الدستورية التي انطلقت اثناء تلك الأيام كانت في الواقع عملية صياغة مستقبل البلاد، وتحديد لمصيرها. وقد كانت رؤيتنا أن تجري كتابة مسودة الدستور في أجواء العلنية والشفافية، وبمشاركة الخبراء المتخصصين ذوي المعرفة في هذا الميدان، وأن تساهم في العملية الدستورية أوساط الرأي العام المختلفة، في الندوات واللقاءات التي تعقد لهذا الغرض، ومن خلال الصحافة ووسائل الإعلام عموما، وبالوسائل المناسبة الأخرى.
وطالبت القوى العلمانية والليبرالية الاسترشاد، عند إعداد مسودة الدستور، بـ(قانون إدارة الدولة العراقية للمرحلة الانتقالية) وصياغاته الموفقة والاكثر قربا للنزعة المدنية في العديد من القضايا العقدية بشكل خاص.
وكان طموحنا ان نشق الطريق نحو بناء دولة القانون والحريات العامة ونتمكن من كتابة دستور ديمقراطي توافقي، يكون محصلة جهود كل العراقيين والعراقيات الراغبين والراغبات في بناء عراق حر، ديمقراطي/ اتحادي في الوقت نفسه، دستور يكون نفياً لكل الدستاتير التي شرعنت الاستبداد والقمع بمختلف الصيغ خلال الحقبات السابقة.
واستنادا الى الملاحظات المكثفة فقد كانت الحاجة ملحة اكثر من أي وقت مضى الى دستور ديمقراطي حقاً وليس شكلياً. ولهذا انصب نشاطنا في تلك الفترة، ونحن نخوض معركة الدستور، حول المضامين الأساسية له، أي صياغة دستور يراهن على بناء عراق ديمقراطي رافض لكل اشكال العسف والاستبداد والدكتاتورية.
وأكدنا في حواراتنا داخل لجنة اعداد الدستور أو في مختلف المنابر والمجالات الاخرى على الآتي:
1. ان يثبت في الدستور المنشود قيم حقوق الإنسان الأساسية (الكرامة الإنسانية، الحرية، المساواة، التضامن، قدسية الحياة، السلم، التسامح،...) والمعايير الأساسية لحقوق الإنسان: الحق في الحياة والسلامة البدنية، حرية الرأي والتعبير والعقيدة والمساواة التامة بين الرجل والمرأة، حق التظاهر السلمي، الحق في التعليم وفي الضمان الاجتماعي والصحة والسكن اللائق والبيئة السليمة والحياة الكريمة، الحقوق اللغوية والثقافية للقوميات المختلفة.
2. ان هذه الحقوق يجب ان ترتكز جميعا على حق المواطنة، الامر الذي تطلب من الدستور ان ينص بوضوح على أن العراقيين متساوون أمام القانون ويتمتعون بحقوق دستورية متساوية ولا ينبغي التفرقة بينهم على أساس اللون، أو العرق والأصل الاثني أو الدين أو الجنس أو الانتماء الثقافي أو السياسي.
3. ولكي يتمتع العراقيون بحقوقهم المتساوية فلا بد من سيادة حكم القانون في البلاد، بمعنى أن الدولة والجماعات والأفراد والأشخاص الحقيقيين والمعنويين يخضعون دائما وجميعهم لحكم القانون، الذي ينظم الحقوق والواجبات والعلاقات بينهم جميعا، ويقوم القضاء المستقل بالإشراف على سيادة حكم القانون.

4. ضمان حريات إنشاء التنظيمات السياسية والنقابية والحقوقية والثقافية وكل أشكال وأنواع أدوات المجتمع المدني.
5. السيادة للشعب الذي يعتبر مصدر كل السلطات، وفقا لمبدأ حق الشعب في تقرير مصيره السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي. والشعب يمارس سيادته عن طريق ممثليه الذين يختارهم في انتخابات دورية لمؤسسات دستورية يحدد الدستور واجباتها وصلاحياتها ودوراتها، كما يحدد بشكل عام كيفية انتخابها بينما يترك للقانون تفاصيل ذلك.
6. مجلس نواب قوي منبثق عن انتخابات حرة ونزيهة، مجسدا بذلك الإرادة الشعبية ويحظى بكافة السلطات التشريعية وله صلاحية توجيه ومراقبة الحكومة.
7. حكومة منبثقة عن الإرادة الشعبية ومسؤولة أمام البرلمان وتمارس كافة صلاحيات السلطة التنفيذية.
8. القضاء كسلطة مستقلة، وضمان الفصل التام والحقيقي للسلطة القضائية عن السلطتين التنفيذية والتشريعية.
9. ضمان فصل حقيقي للجهاز التنفيذي للدولة عن الهيئات السياسية المنبثق عنها.
10. الاعتراف بالخصوصيات القومية وضمان أقصى حد ممكن من التسيير الذاتي والأشكال الفيدرالية على مختلف المستويات، والنص على حق المجموعات العرقية والقومية المتعددة في البلاد في تطوير ثقافاتها القومية ولغاتها، وحق أصحاب الديانات والمعتقدات في ممارسة شعائر دياناتهم ومعتقداتهم على وجه لا يشكل اعتداء أو انتهاكا لحقوق الآخرين.
11. أن يتضمن الدستور نصا صريحا يؤكد ضرورة تحريم التعذيب، اضافة الى النص بوضوح بعدم سقوط تهم التعذيب وانتهاكات حقوق الإنسان وعدم إمكانية العفو عنها بقانون أو قرار من أي سلطة وعدم قبول تبرير صدور فعل التعذيب لصدور أوامر عليا في دفاع أي متهم بقضية التعذيب.

هذه هي أهم المبادئ التي كان يتعين مراعاتها في بناء دستور جديد يتجاوز فخ التعديلات الدستورية الجزئية والشكلية التي يمكن ان تشرعن وتعيد انتاج الدولة بطابعها الاستبدادي في حين أن المطلوب في الحقبة الجديدة التي بدأت التشكل بعد 9 /4 /2003 دولة عصرية وهذه الاخيرة لن تتأسس إلا على اساس دستور ديمقراطي. وكنا نرى ان ذلك كله بإمكانه ان يشكل مدخلا حقيقيا لبناء دولة الحق والقانون.

جوهر الدستور.. بعيدا عن الأجوبة الجاهزة بعض الملاحظات الضرورية

ان المقدمات في اعلاه تبين ان الدستور هو موضوع اساسي ومهم. فكلنا يعرف ما له من اهمية في تنظيم المجتمع والعلاقات بين الناس. فهو يرسم توجهات البلد الاساسية، الاقتصادية/ الاجتماعية/ السياسية/ الثقافية.. الخ. وانطلاقا من ذلك نعتقد ان الجواب على سؤال مثل السؤال الذي طرح: الدستور: مشكلة ام حل؟ لا يمكن ان يكون مبسطا او بنعم ام لا او اسود او ابيض. فلكي نعطي جوابا مناسبا شافيا، ونحن نتحدث عن توجهات اساسية تخص حاضر ومستقبل العراق، لا بد من فهم طبيعة الدستور الذي نتحدث عنه، والظروف التي نشأ فيها والمآلات التي سار عليها.

ومن أجل فهم افضل وأعمق للإشكاليات المرتبطة بدستور 2005 لا بد من ابداء بعض الملاحظات التي نراها ضرورية:

1. الدستور العراقي المقر في 2005 سجل

نهاية حقبة النظام الدكتاتوري، فكرا، ونظاما سياسيا ومنهجا، ومؤسسات، كما اشر ملامح المرحلة الجديدة لعراق ديمقراطي، لذا فهو يعد من هذه الناحية عقدا اجتماعيا متقدما على نظام الاستبداد[2] ويفتح الطريق لمسيرة سياسية - اجتماعية أفضل، كونه قد صيغ كرد فعل على النظام السابق وانطوى على نواقص موضوعية. بهذا المعنى كان الهاجس الاساسي هو عدم تكرار الماضي (الحقبة الدكتاتورية) وما احتواه من مآسي وعسف. لذا يمكن القول انه - أي الدستور - جاء تعبيرا عن الحاجة لتنظيم العلاقات بعد التغيير في 9/4/2003، فقد عالج امراضا وعللا عانيناها - كمجتمع وكقوى معارضة - من النظام الدكتاتوري ولكنه بالمقابل لم يتبحر ويتعمق في المسيرة المستقبلية، وهذه علته الاولى.

2. عندما نناقش الدستور لا بد ان نتذكر انه لا يمثل فقط مصالح وتوجهات او افكار طبقة او فئة معينة بحد ذاتها. وانطلاقا من الملاحظات في اعلاه، فبالإمكان القول ان الدستور هو ابن المرحلة التي يسن فيها وهو انعكاس لها بما لها وما عليها، مجسِدا توازن القوى الاجتماعية السياسية في اللحظة الملموسة، وبالتالي فإنه ليس صالحا لكل الازمان، بل هو ابن زمانه، يعكس الظروف والتوازنات، والتركة المطلوب ازالتها. كما يعكس المؤثرات الداخلية والخارجية السائدة في تلك المرحلة المعنية، ويجسد الثقافة السائدة وهل هي ديمقراطية اصيلة ام عفوية سطحية، حيث تترك أثرها على الصياغات الدستورية. لهذا يمكن القول انه – أي الدستور - تعبير عن مرحلة محددة وحاجات ملموسة. وإضافة الى ذلك انه لصحيح ان الطبقات والفئات والشرائح الاجتماعية التي يتكون منها المجتمع يوجد في لحظة معينة توازن في ما بينها ولكن صاحب القوة الاكبر والنفوذ الاهم له بصمات اكبر على صياغة الدستور. ولذلك فحين نحاكم دستورا ما يجب الانطلاق من معرفة توازن القوى السائد في اللحظة التاريخية، لان هذا الدستور هو محصلة هذا التوازن القائم، وقوة احزاب المعارضة. فهو لا يمثل مصالح طبقة او فئة او شريحة بعينها، بل هو محصلة توازن القوى في اللحظة التاريخية الملموسة.

3. فالدستور هكذا كان دائما وأبداً وفي كل مكان، فهو ليس كتابا مقدسا مطلقا بل هو وثيقة اجتماعية – سياسية قابلة للتغير والتطوير والإغناء ارتباطا بالمتغيرات في الواقع السياسي/ الاجتماعي/ الاقتصادي/ الثقافي وبالظروف والحاجات الملموسة، وموازين القوى وكلها متغيرات لا يوجد شيء ثابت فيها بل هناك ثبات نسبي ثم يتبدل فيستدعي التغيير، وارتباطا بالممارسة العملية وما تظهره من نواقص وثغرات وعيوب في النص والممارسة الدستورية التطبيقية. فهناك في اللحظة المعينة صياغات، وهذه قد تكون غير واضحة، أو قابلة للقراءات والتأويلات المختلفة، أو لاستهلاكها لفترة زمنية، أو عدم دقتها.. الخ. وهناك ايضا العبارات المبهمة التي يلجأ اليها المتصارعون على السلطة هادفين لان تكون ''عمومية'' بلا معنى محدد. وهنا يجب الانتباه الى عدم تأويل موقفهم هذا بأنهم غير قادرين على صياغة نصوص ''واضحة'' بل لأن عجزهم عن التوصل الى صيغ مقبولة من الاطراف المتصارعة، يدفعهم الى هذه الصياغات ''المبهمة'' بانتظار لحظات اخرى يتغير فيها توازن القوى، فيفرض الطرف الاقوى تلك الصيغ والعبارات التي تخدم مصالحه. هذا مع العلم ان الدستور يحمل قراءات مختلفة وتأويلات متنوعة (تجدر الاشارة هنا الى انه حتى الكتب المقدسة لها

تأويلات مختلفة باختلاف مرجعيات القراءة)، وبعضها تستهلك زمنيا او انها تمتاز اصلا بعدم دقتها في الاساس.

4. ومن جهة اخرى فان مشكلة دستورنا وتفاقم الحديث عن عيوبه لا تقتصر فقط على نواقصه (الذاتية)، وإنما على ممارسة تفسيره او تطبيقه الانتقائي، المغالط والبعيد عن روحه. بل انه ورغم ما في مواده وفقراته من وضوح يلاحظ ان هناك مشكلة في تطبيقه السيئ، والذي ادى الى تجميد بعض جوانبه كيفياً. وكان هناك انحراف عن المقصود، وتلكؤ في التطبيق. ومثال ذلك تجميد المادة (140) التي لم تُفعّل بسبب الخلافات والصراعات السياسية بين الحكومة الاتحادية وحكومة الإقليم، وبدلا من مساءلة الحكومتين عن اسباب ذلك، جرى توجيه العتاب الى الشعب! هذا اضافة الى تعطيل بعض احكام الدستور، التي ارتبط تطبيقها بصدور قوانين، ومن ثم تعليمات وإجراءات مكملة لنصوصه او مفسرة لأحكامه او مغنية لتصوراته، وتنطلق من عملياته، وتجسد روحه. وهذا ما نشهده في عدم اتمام صدور اكثر من 50 قانونا كان الدستور قد نص على انجازها لاستكمال اجراءاته، مثل قانون النفط والغاز وقانون الموارد المالية وقانون المجلس الاتحادي الذي نص الدستور على تشكيله ليمثل المحافظات وله صلاحيات رقابية متعددة ولكنه لم يسن حتى الآن. وهناك العديد من القوانين الاخرى جرى التغاضي عن اصدارها برغم مرور اكثر من عقد على المصادقة على الدستور. خذ مثلا المحكمة الدستورية والتي مهمتها تفسير ومراقبة الالتزام بالدستور ذاته، وليس وضع دستور جديد او ابتكار مفاهيم جديدة، لا تنسجم مع نصه وروحه ومع ذلك تعطل اقرار القانون الخاص بها.

الدستور.. صناعة من؟

اضافة الى الملاحظات السابقة أود الاشارة هنا الى ان بعض المراقبين والمحللين والمهتمين بقضايا الدستور، نظريا وعمليا، يرون ان المشاكل التي رافقت اعداد الدستور حتى صياغته كانت ناجمة عن العجالة في صياغته وعدم كفاءة من قاموا بتحريره أو أنه منتج آخرين أجانب. غير أنني ومن موقعي كأحد المشاركين في هذه العملية، منذ بدايتها استطيع القول ان القضية لا تكمن في "سرعة إصداره" أو "عدم كفاءة محرريه" او "انه منتج اجانب"... الخ؛ ففي الواقع صدر الدستور بعد مشاورات ومناقشات وتفاهمات استمرت لفترة طويلة. وأشير الى الملاحظات اعلاه بشأن مسألة الوقت (أي كتابة الدستور على عجالة!). وأود التذكير ان ما جرى بعد ثورة 14 تموز 1958 بهدف المقارنة، فقد كتب الدستور العراقي المؤقت في 3 ايام، وذلك بعد ان اطلع مجلس الوزراء آنذاك على مسودة اعدها المحامي المعروف حسين جميل، وناقشها وأقرها وبهذا المعنى فان قضية قصر او طول وقت الاعداد هو مسألة نسبية. وبمقابل ذلك لا يكمن الامر في "عدم كفاءة المحررين"، فهذا الحديث غير دقيق، فقد كان كثيرون منهم من ذوي الكفاءات العالية مهنيا وأكاديميا وممارساتيا. المشكل إذن يكمن ليس في قصر او طول وقت الاعداد ولا في كفاءة او عدم كفاءة من اعد الدستور، بل ان الامر يكمن في اعتقادي في تناقض المصالح وتباعد الغايات والخلفيات الفكرية، التي يستعصي التوفيق في ما بينها، للوصول الى الوضوح الكافي (فقد كانت بعض الصياغات معقدة وحمّالة اوجه... الخ). اما في ما يخص القول بأن

الدستور "صنع من طرف أجانب"، فأقول ان هذه العبارة متهافتة؛ فالحضور العراقي كان فاعلا ورئيسيا. فاللمسات الأولى للدستور وضعت بأيادي عراقية، ولا صحة لما قيل انه كتب في امريكا. وهذه القضية تحتاج الى بعض التفصيل. وبداية اقول ان هناك تقصداً ولا نرمي الناس بالغيب بل اتحدث بالملموس؛ فحينما تمت المباشرة بتحضير الصيغة الاولية للدستور وبعد اعدادها من طرف لجنة الاعداد، عرضت هذه الصيغة على رؤساء الكتل، وهؤلاء كما هو معروف لا يتحدثون في العادة بلغة القانون ولا يفهمون الامور إلا بلغة المصالح؛ فالمسألة ليست فنية بل سياسية، لان محتوى الدستور هو محتوى سياسي كونه يعكس مصالح طبقات وفئات وشرائح اجتماعية. ويمكن القول هنا ان الكثير من النواقص التي اعتورت تطبيق الدستور، كان سببها ضغط وتسلط ووصاية القوى المتنفذة، صاحبة القوة متمثلة بالسلطة والنفوذ والمال وليس بالضرورة في نصوص وروح الدستور. وبالملموس، عندما انجزت التعديلات الدستورية ومقترحاتها طرحت الصيغة بأكملها على اجتماع مصغر لقادة الكتل وهؤلاء جاؤوا بالصياغات التي يريدونها ووضعت "لمسات" جديدة على الدستور، كانت ولا تزال تمثل عقبات. فما كان يحكم موقف المتنفذين من الصياغات المطروحة في مسودة الدستور، هو مدى اقترابها او ابتعادها من مصالح الكتل التي يمثلونها[3]. لهذا وارتباطا بتوازنات القوى السائدة آنذاك فرض المتنفذون رؤيتهم وجاءوا بصياغات جديدة وأصروا على ان تجري اعادة صياغة مواد الدستور لتتضمن هذه الصياغات الجديدة التي تعبر عن مصالحهم ومصالح كتلهم وتدافع عنها، وتؤطر حمايتها بفقرات دستورية. وهذه الصياغات كانت سببا اساسيا في بروز المشكلات العملية التي واجهت الدستور عند وضعه موضع التطبيق العملي والتأويلات المختلفة لمواده وفقراته، ما ادى الى حدوث خلافات عميقة بعد ذلك. ولا شك ان هذه الصياغات الاضافية "الجديدة" التي فرضها المتنفذون كان لها التأثير الكبير في اندلاع خلافات وسجالات حول تأويل فقرات الدستور وما زالت مستمرة. ويبدو انها ستبقى كذلك ما زال النظام المحاصصي سائدا. ولهذا يمكن القول ان الدستور كان عبارة عن تسويات وتوافقات ليست بالضرورة تتوافق مع رؤية أي طرف من الاطراف، ولكن يجب ان يُفهم أن ذوي عدد الاصوات الأكثر هم من كانوا يملكون تأثيرا أكبر. فالقوانين والدساتير من وجهة نظر ماركسية يعتمد تنفيذها وتفسيرها على من يتولى الهيمنة السياسية، فهو بيده التفسير والتأويل وبيده ان يبرز مادة دستورية أو يطمرها. وهذا ما نلاحظه الان في النقاشات السياسية، حي الكل يدعي الالتزام بالدستور!!! عندما يدعم الدستور قضيته المثارة، ولكنه من جهة اخرى لا يلتزم بالدستور حين يتعارض مع ما يسعى اليه.

لا يمكن فهم مضامين الصياغات الدستورية إلا بتحديد طبيعة المرحلة

ثمة اتفاق عام على أن المرحلة التي كانت تمر بها بلادنا بعد 9 /4 /2003 (ولا تزال) هي مرحلة انتقالية ذات طابع استثنائي يعيشها مجتمعنا واقتصادنا، وتنطوي على أزمات موروثة من النظام البائد وسياساته، وأخرى مستحدثة افرزها الاحتلال وانهيار مؤسسات الدولة والتناقضات والصراعات الجارية بين

القوى المتنفذة، حول عملية إعادة بناء الدولة واتجاهات تطورها ومضامينها. انها اضافة لذلك:

- مرحلة بالغة التعقيد والصعوبة؛
- تتداخل فيها العديد من العوامل الداخلية والخارجية؛
- انفتاحها على احتمالات عدة، وذلك بسبب الصراع المحتدم المتواصل فيها حول المستقبل وشكل الدولة والنظام السياسي - الاقتصادي - الاجتماعي.
- ان افق هذه المرحلة ليس محسوما لصالح طرف او اطراف عدة بل يبقى... مرهونا بمدى قدرة جماهير الشعب والمجتمع المدني بكل مكوناته على التحرك والضغط للإصلاح والتغيير لإخراج البلاد من أزمتها، وفتح فضاءات التطور الديمقراطي الحقيقي للبلد، السياسي والاجتماعي، والسير على طريق الاعمار والبناء وإقامة دولة القانون والمؤسسات والعدالة الاجتماعية، الدولة المدنية الديمقراطية الاتحادية، كاملة السيادة.

وتتأتى "استثنائية" هذه المرحلة من طبيعة العملية السياسية التي نشأت بعد 9/4/2003 وطبيعة قواها وتناسبات القوى السائدة في حينه. لقد شقت العملية السياسية طريقها عبر مسارات متعرجة، وفي خضم صراعات حادة بين القوى المشاركة فيها، ودموية في مواجهة القوى المناهضة لها - من إرهابيين وبقايا النظام السابق ومن خلفهم من أطراف متنفذة، داخلية وإقليمية ودولية. وينبغي رد هذه الصراعات الى جذورها الطبقية العميقة وليس الى مظاهرها فقط. فرغم تنوع اشكال وأطراف هذه الصراعات، فإن محورها الأساس يكمن في نهاية الأمر، في "التنافس على السلطة والثروة والقرار، وعلى تحديد شكل الدولة الجديدة ومضمونها".

بعض الاشكاليات

لا شك ان الترجمة السياسية الخاطئة للدستور هي التي اوصلت البلاد الى منطق المكونات وترجمة ذلك الى صيغ تقول بـ "التوازن" و"التوافق"، علما انه لو تعمقنا في روح الدستور فإننا لن نعثر، لا من بعيد ولا من قريب، على ما يشير الى المحاصصة الطائفية - الاثنية بأي شكل كان. وأود التوقف هنا ولو بسرعة عند ثلاث قضايا:

- التوافق/ الديمقراطية التوافقية والمحاصصة الطائفية – الاثنية وليدة الطائفية السياسية.

وهنا لا بد من التمييز بين المفهومين؛ فالتوافقية في الاساس تقوم على ايجاد آليات للتوازن بين شتى الجماعات المكونة للمجتمع العراقي بإعطاء عناصرها الرئيسية حق النقض/ الفيتو، أي قوة التعطيل، من اجل حمل الأكثريات الاثنية على اخذ مصالح الاطراف الاخرى بعين الاعتبار.

ويمكن الاتفاق مع بعض الباحثين الذين اشاروا الى ان مفهوم "الديموقراطية التوافقية"، يطرح مشكلة مزدوجة، مفهومية وسياسية. فهذا المفهوم يتألف من شقين: "الديموقراطية" و"التوافقية". والسؤال كيف يمكن التوفيق بين الديموقراطية بمفهومها الرائج القائم على حكم الاكثرية والتوافق القائم على التسوية التي تتراجع فيها فئة عن موقفها لمصلحة اخرى؟

لقد استخدمت القوى المتنفذة الديمقراطية التوافقية بطريقة ادت الى تعزيز نظام المحاصصة الطائفية – الاثنية، وليس وسيلة لتجاوزه نحو بناء دولة ديمقراطية عصرية تقوم على فكرة المواطنة بديل الهويات الفرعية.

- الأغلبية والأقلية متى وكيف؟ في بلد متعدد القوميات/ متعدد الاديان/ متعدد المذاهب

... الخ. لا بد من التذكير بان ثمة خلطا بين الاغلبية كمفهوم اثني او كمفهوم ديني، والأغلبية كمفهوم سياسي. فالأول حقيقة سكانية احصائية ثابتة، والثاني حقيقة انتخابية متغيرة. والسؤال إذن هو: كيف نفهم الأغلبية والأقلية؟ فهل نحن امام مفهوم سياسي ام عددي؟ وهل ان هذه المفاهيم تستخدم في مجتمع يعتمد الآليات الديمقراطية لتداول السلطة أم في مجتمع تسير فيه الامور على وفق منطق المحاصصة الطائفية - الاثنية. ففي الحالة الاخيرة يؤدي اعتماد مفهوم الاغلبية/ الاقلية الى هيمنة الطائفة الاكبر على حساب الطائفة الثانية (او الطوائف والاثنيات الأخرى)، وبالتالي الى تعزيز المحاصصة الطائفية والهويات الفرعية على حساب الهوية الوطنية وفكرة المواطنة.

- هناك من يروج فكرة ان الدستور ثبت فكرة التوازن باعتبارها "حقيقة" من "حقائق" النظام الذي نشأ بعد 2003. وهنا لا بد من الاشارة الى ان كلمة "التوازن" ذكرت لمرة واحدة في الدستور (الحديث عن اعادة بناء المؤسسة العسكرية) وكان الهدف منها بناء مؤسسة أمنية وعسكرية تضم كل مكونات المجتمع، ولا تكون حصرا على فئة او طائفة دينية او اثنية. ولكن بعض القوى المهيمنة استغلت هذا المفهوم وفسرته لصالح هيمنتها الطائفية على المكونات الاخرى.

لقد تم استغلال هذه المفردة من قبل المتنفذين وقالوا بضرورة "التوازن في الحكم". وفي زمن المالكي شكلت لجنة اطلق عليها "لجنة التوازن" وذلك على وفق "اتفاقية أربيل"، ولاحقا على وفق الاتفاق السياسي الذي تشكلت على أساسه حكومة د. حيدر العبادي. ومهمة "لجنة التوازن" هي "اعادة توزيع المغانم والمكاسب ومراكز السلطة". علما ان الدستور لم يقل ان رئيس الجمهورية يجب ان يكون كرديا وله نائبان: شيعي وسني. ان هذه كلها ممارسات سياسية، ولكن تكرارها أوهم المواطن الذي لم يطلع على الدستور انه دستورية! فقد استغلت المشاعر الطائفية والهويات الفرعية الاخرى لتغطية المصالح السياسية واحيانا الشخصية.

تعديل الدستور وموجباته

بداية وبغض النظر عن ملاحظاتنا النقدية حول دستور 2005 إلا انه يمكن القول انه كان جيدا عموما لأنه ابن ظروفه الملموسة التي اشرنا اليها بالتفصيل سابقا. ولكنه رغم ذلك احتوى على بعض الصياغات المتناقضة والملتبسة والقابلة لتأويلات متعددة تحتوي على اكثر من معنى. لذلك صوتنا بنعم على الدستور من جهة، ولكننا سجلنا تحفظاتنا على العديد من الفقرات المنافية للطابع المدني والديمقراطي. إنه مرحلي وقابل للتطور. وارتباطا بالملاحظات اعلاه ثمة سؤال يطرح نفسه: هل المشكلة تكمن في الدستور بكامله؟ ام في تطبيقاته؟ ام في طابعه الانتقائي، ام في عدم استكماله (بالقوانين)؟ ام في سوء تفسيره... الخ؟

يجب الاعتراف أولاً بان الدستور كُتب في ظل ظروف معقدة وصعبة للغاية تداخلت فيها جملة من العوامل والظروف الداخلية والخارجية، الاقتصادية/ الاجتماعية والثقافية.. الخ، المحلية والإقليمية والدولية مما ترك العديد من الثغرات.

ولا بد من الاشارة هنا الى انه وبعد اجراء الانتخابات الاولى، وكما اشرنا سابقا تم تشكيل اللجنة الموسعة لتعديل الدستور، وهذه اللجنة انتخبت لجنة مصغرة من خمسة اشخاص

تم اختياري لأكون رئيسها، وكانت مهمتها ان تقوم باعداد مقترحاتها وعرضها على اللجنة الموسعة. وقد اعدت اللجنة المصغرة مقترحاتها وعرضتها على اللجنة الموسعة، وهذه الاخيرة اقرتها وتم عرض التعديلات على مجلس النواب ولمرتين، إلا ان الاخير لم يقرها بسبب دخول الكتل السياسية في نزاع سياسي، وحرب من اجل المصالح الفئوية ودخلت الطائفية وتم توظيفها سياسيا من اجل خداع المواطن البسيط.

ان كل هذا يتطلب القيام بالتعديلات المطلوبة التي تحتاجها المرحلة. ومن هنا يمكن طرح السؤال الآتي: هل الوقت مناسب لتعديل الدستور في ظل الكتل المتنفذة؟

ثمة العديد من الموجبات التي تستحث القيام بجملة من التعديلات، فقد ظهرت الكثير من الثغرات اثناء الممارسة والتطبيق. ولا بد من الاشارة ايضا الى ان السنوات التي تلت اعلان الدستور في 2005 شهدت العديد من التطورات الموضوعية على الواقع الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، فأنتجت واقعا جديدا وتوازنات جديدة تتطلب ان تجد تعبيراتها في صيغ دستورية اكثر وضوحا وأكثر دقة لتعكس الواقع الجديد في تناقضاته الفعلية وقواه المقررة وصراعاتها المتشعبة.

ورغم ان المادة 142/ أولا اشارت الى اجراء التعديلات المطلوبة عندما نصت على الآتي: "يشكّل مجلس النواب في بداية عمله لجنة من أعضائه تكون ممثلة للمكونات الرئيسية في المجتمع العراقي. مهمتها تقديم تقرير إلى مجلس النواب، خلال مدة لا تتجاوز أربعة أشهر، يتضمن توصية بالتعديلات الضرورية التي يمكن إجراؤها على الدستور. وتُحلّ اللجنة بعد البت في مقترحاتها". الا انه ورغم مرور 12 عاما فان هذه العملية لم تتم لحد الآن. ويبدو انها لن تتم في الأمد القريب، لان القوى المهيمنة والمنضوية تحت خيمة النظام المحاصصي لا ترغب في ذلك لأنها تشعر ان التعديلات المطلوبة قد تهدد نظام امتيازاتها وهيمنتها، ولهذا تعثر صدور تلك التعديلات، نتيجة جملة عوامل من بينها بل وفي مقدمتها عدم الاتفاق بين القوى وخاصة المتنفذة منها على مضمون وأشكال التعديلات المطلوبة. فالقوى المتنفذة لا ترغب ولن تسمح بإجراء أية تعديلات او تغييرات يمكنها ان تشكل تهديدا، ولو مفترضا، على نظام هيمنتها وامتيازاتها.

طبعا، نحن من انصار اجراء التعديلات الضرورية المطلوبة على الدستور. وقد سعينا الى ذلك. ولكن السؤال هو متى يمكن ان يتم هذا التعديل؟ فلا يكفي فقط الاقرار بضرورة التعديل، على اهمية ذلك، بل الاهم هو اختيار اللحظة الملموسة لإجرائه وبما يكفل تحقيق المرامي المطلوبة من هذه التعديلات.

ولا شك في ان التعديلات المطلوبة يجب ان تمس الدستور في جانبيه: الشكل والمضمون. ففي ما يخص الشكل لا بدّ من:

- تعديل الدستور وفق آليات سليمة وشفافة، تأخذ بالاعتبار تجربة السنوات الماضية ودروسها، وتؤسس عليها وتتجاوز المعرقلات التي واجهت عملية كتابة الدستور.
- استلهام التجربة المحلية والعالمية؛ ففيها العديد من الصياغات والدروس الثرّة والصياغات الصالحة التي تتيح اعادة بناء الدستور، ليكون قادرا على الاجابة على تحديات الواقع المتحرك باستمرار.
- الاستفادة من الخبراء والفقهاء الدستوريين والحقوقيين المعنيين بقضايا الدستور لإعادة بنائه، ليعكس التحولات الفعلية التي شهدها المجتمع وتوازنات القوى التي حصلت فيه خلال الاربعة عشرة سنة الاخيرة.

أما في ما يتعلق بالمحتوى فلا بدّ من تثبيت الآتي:

- ازالة كل ما يتناقض مع المدنية والديمقراطية والصياغات الملتبسة والعبارات المبهمة التي وردت في الدستور وفسحت المجال لتأويلات مختلفة.
- تعديل الديباجة الحالية وتقليصها الى ادنى حد، بالتركيز على القضايا الكبرى والابتعاد عن كثير من التفاصيل والصياغات التي لا ضرورة لها. وأود الاشارة هنا الى انني واثناء المناقشات حول مسودة الدستور، كنت قد اعترضت على كل الديباجة واعتبرتها زائدة وانشائية وقابلة للتأويل. وكثير من الكلمات والصياغات المتشابهة يمكن تأويلها وتفسيرها بشكل آخر خلال الممارسة.
- رفض كل ما يوحي بالمحاصصة الطائفية والاثنية.
- لا بدّ من بلورة صياغات أدق وأكثر وضوحا في الدستور، تعلّي من شأن المواطنة

وكما قلنا في بداية حديثنا فإن الدستور، باعتباره عقداً اجتماعياً بين مكونات المجتمع المختلفة، وقانوناً أساسياً للدولة، لا يرسم فقط الخطوط الأساسية لهذه الدولة وطبيعتها، بل يحدد كذلك اتجاهات التطور اللاحق للبلاد في الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. ومن هنا فإنه من الضروري أن يأتي معبراً عن مصالح ومطامح عموم المواطنين وسائر مكونات شعبنا القومية والدينية والمذهبية والفكرية ـ السياسية ـ الثقافية.

وكانت رؤيتنا، ولا تزال وستبقى، تتمثل في أن يعتمد الدستور مبدأ المواطنة العراقية ويكرس روحها، ومبدأ المساواة بين المواطنين والمواطنات في الحقوق والواجبات بصرف النظر عن العرق أو الدين أو الفكر أو الانتماء السياسي او الانتماء الاقتصادي ـ الاجتماعي.

ومقارنة بحقبة الدكتاتورية التي هيمنت لعدة عقود، كانت عامة المواطنين تريده دستوراً جديداً حقاً، حضارياً متقدماً، معبراً عن روح العصر، ومحفزاً وداعماً لتطور البلاد الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، دستوراً منفتحاً، ديمقراطياً، ينطلق من التعددية القومية والدينية والثقافية والسياسية للمجتمع العراقي، ويستبعد الانغلاق والتشدد. دستوراً يُطلق طاقات الشعب نحو الإعمار والبناء، ولإقامة دولة المؤسسات، وحكم القانون، واستقلال القضاء، وفصل السلطات، ويحمي حقوق الإنسان الفرد وحقوق الجماعات والشعوب، ويضمن الحريات الأساسية، ويؤمّن تصفية آثار السياسات الشوفينية، ويطلق حل القضية القومية الكردية حلاً سلمياً وديمقراطياً؛ باعتماد الفيدرالية شكلا لنظام الحكم وضمان حقوق القوميات المختلفة. دستوراً يصون للمرأة حقوقها، ويضمن لها المساواة ويزيل عنها الحيف. ويثبّت حق المواطنين عموماً في الخدمات الجيدة، وفي الضمان الاجتماعي. دستوراً يكرّس الحماية للثروة الوطنية، وملكية الدولة للطبيعية منها، وبالذات النفط، ويمهد السبيل لإعادة بناء هياكل الدولة العراقية ونُظُمها الإدارية على أسس ديمقراطية، وبما يستبعد المركزية المفرطة ويعتمد اللامركزية. دستوراً يعرّف قبل ذلك وبعده بهوية الشعب العراقي، ويحدد نظام الحكم باعتباره جمهورياً ديمقراطياً تعددياً برلمانياً اتحادياً (فيدرالياً)، ويتضمن من الآليات ما يؤمن احترامه، وتفعيل أحكامه وتنفيذها، ومتابعة ذلك من خلال الرقابة الشعبية ومنظمات المجتمع المدني والمحاكم الدستورية. هذه هي الملامح الأساسية للدستور الجديد الذي كنا نريده، سوية مع عموم أبناء شعبنا،

لبلادنا بكل مكونات مجتمعها. ومن الواضح أن التعديلات الدستورية المطلوبة لن تتحقق بيسر وسلاسة ونجاح، إلا إذا تم إقرار القضايا الأساسية على وفق نمط من التفكير الجيد، وعلى قاعدة لا غالب ولا مغلوب.

ولأجل أن يكون الدستور العراقي والتعديلات الجديدة أساساً مكيناً لتشييد صرح الدولة المدنية الديمقراطية العصرية الضامنة لحقوق جميع أبناء ومكونات الشعب العراقي العرقية والدينية والطائفية والسياسية والاجتماعية والثقافية، لا بد أن يتحقق حوله اجماع وطني وأن يعبر بحق عن مصالح وأهداف وتطلعات جميع مكوناته وأن يجسد القيم والانتماء المشترك وأن يصبح حاملاً للمشروع العراقي الجمعي لبناء مستقبل أفضل، مواكباً ومشاركاً فاعلاً في سيرورة عالمنا المعاصر والمجتمع الإنساني.

وقد بينت التجربة ان كتابة الدستور او التعديلات المطلوب طرحها لا يجوز أن تكون حكراً لنخبة أو مجموعة من السياسيين والاختصاصيين، مهما بلغت من إخلاص ونزاهة ومقدرة ومعرفة. فاجتذاب أوسع قطاعات السكان بجميع أطيافهم ومعتقداتهم وتياراتهم الفكرية والسياسية للمشاركة الفاعلة في النقاش والحوار، هو الكفيل بخلق شروط التوصل إلى اجماعات وخيارات مشتركة.

ولا خشية من الإقرار، بعد اكثر من عقد على اقرار الدستور (2005)، بأن العديد من القضايا المفصلية لتحديد طبيعة وأركان وبنية الدولة العراقية، دار حولها الجدل وتباينت بشأنها الرؤى والمقاربات المختلفة. وليس في ذلك ما يثير القلق وما يخرج عن مألوف تجارب الأمم والشعوب، وإنما المحذور يكمن في سوء إدارة الجدل وإقصاء بعض من أطرافه.

الهوامش

1 - لا بد من التذكير انه في 1 آذار 2004، وبعد يومين على الموعد النهائي المحدد في اتفاق 15 تشرين الثاني 2003 بين "سلطة التحالف المؤقتة" ومجلس الحكم العراقي، اعلن المجلس انه انجز واقر "قانون ادارة الدولة العراقية للمرحلة الانتقالية"، وهو دستور مؤقت سعى لأن ينظم الوضع في العراق بعد استعادة السيادة في 30 حزيران 2004 الى حين تبني دستور دائم. للإطلاع على النص الكامل لهذا القانون. أنظر قانون ادارة الدولة العراقية للمرحلة الانتقالية. متاح على الانترنيت على الرابط الآتي:

http://www.mediya.net/siyaset/qanuni-intiqali-iraq030904.htm

ومن المفيد الإشارة هنا الى انه وخلال فترة النظام الدكتاتوري جرت عدة محاولات هي بمثابة "مشاريع دساتير"، قبل سقوط النظام الدكتاتوري بكثير وقبل دخول الامريكان بسنوات طويلة، من طرف قوى المعارضة العراقية لبلورة مسودة دستور عراقي جديد. ولم تنجح قوى المعارضة على الاتفاق على مسودة موحدة، لجملة عوامل، الا انه لا بد من الاشارة الى وجود محاولات.

2 - حتى لا تختلط الأمور تقتضي الضرورة المنهجية التذكير بأنه وعندما نناقش الدستور العراقي المقر في عام 2005 لا بد ان نقارنه بما سبقه من "دستور" شرعه النظام الدكتاتوري السابق.

3 - من المفيد التذكير ان المناقشات الاولية للصياغات العامة لبنود الدستور تحتمل التنوع ومقاربات السياسيين المختلفة، ولكن الصياغات النهائية ومدى دقتها من الناحية الحقوقية هي مهمة ومسؤولية الفقهاء القانونيين.

صناعة الدستور وسياسات الهوية في العراق

د. سلام كامل كرم

د. سلام كامل كرم، من مواليد بغداد في آذار من عام 1975، نال الشهادة الجامعية والماجستير في العلوم السياسية من جامعة أوبسالا السويدية. نال سلام شهادة الدكتوراه من جامعة لندن في العام 2016. كما عمل صحفيا وباحثا في الشؤون العراقية في وسائل الاعلام السويدية المختلفة.

تجب الاشارة الى ان من النادر أن تصنع الدساتير في "أفضل الأوقات"، فهي غالباً نتاج للأزمة والتغيرات وإستجابات لها. من ثم، فإن صناعة الدستور وفكرته لا يمكن فصلهما عن العمليات السياسية الملحة وحاجات الحوكمة، أو عن الدولة وعملية تكوينها.

لقد تم تناول العلاقة بين الدساتير والأسئلة التي لم تحل بخصوص هوية الأمة بواسطة العديد من الباحثين. هذه الأطروحة تركز بالأحرى على دور الدساتير في فهم الدولة وتكوينها[1]. فهي تحاول إستكشاف الدور الذي لعبه الدستور العراقي في كفاح العراق السياسي، من خلال التركيز على العلاقات بين الدساتير ومشروعات الدولة، وعلى توزيع وتفويض السلطة بين المركز والأقاليم في البلاد. ولكن، هذه الأطروحة تدرك أنه بسبب إرث الدولة العراقية والأحداث والقرارات المتخذة في عراق ما بعد 2003، أصبح مجال ونطاق السياسة العراقية ضيقاً وتهيمن عليه أحزاب سياسية إثنية – طائفية. وفي الواقع، فان الغالبية العظمى من الأدبيات المنشورة حول عراق مابعد 2003 تشمل موضوع الهويات السياسية ودورها في السياسة العراقية، حيث سيطرت الأحزاب السياسية الإثنية – الطائفية وخطاباتها خلال هذه الفترة واصبحت تشكل موضوعات رئيسية.

إن توضيح كيفية إستخدام هذه الأطروحة لمصطلحات "الشيعة" و"السنة" و"الكرد" وكيفية تناولها لموضوع العلاقات بين الدولة والدستور والهوية في العراق يصبح أمرا ضروريا هنا. بالإدعاء أن المهمة الأساسية للدولة هي دعم تنظيم الترتيبات المكانية/الزمانية، تدعي هذه الأطروحة أن الدساتير تساعد هذه العملية بواسطة التعبير عن فكرة المصلحة العامة أو الإرادة العامة للمجتمع. وأزعم ان ذلك يتم من جهة عبر عزل المبادئ الأساسية - بالنسبة للقوى المهيمنة التي تدعم مشروع الدولة والمشمولة في فكرة المصلحة العامة – ومن جهة أخرى، تأجيل الأزمة على حساب المشكلات المستقبلية، علما ان هاتين العمليتين متداخلتان. ويتأصل في هذا الفهم لدور الدساتير مبدأ أساسي تعبر

عنه الواقعية النقدية ومنهج الإستراتيجية العلائقية، والذي يدعي أنه بما أن الهياكل والقوى أو الوكلاء ليسوا منفصلين، فكذلك ان المادة والفكرة متداخلتان ومستقلتان عن بعضهما البعض[2].

تتداخل مشروعات الدولة مع التعبير عن وخلق مرشحات إدراكية، مثل النماذج السياسية والتي يترجم من خلالها الفاعلون البيئة الإستراتيجية، والنماذج الخطابية التي تميز بعض المصالح، والهويات الخطابية والإستراتيجيات والطرق. إن ذلك لا يعني أن الدولة هي الكيان المستقل الوحيد الذي يملي المرشحات الإدراكية. في الواقع، يؤكد منهج الإستراتيجية العلائقية على أن الدولة لا تحقق أبداً الانفصال الكامل عن المجتمع. أيضاً، يؤكد المنهج على أن حدود وهوية المجتمع الذي تدار مصالحه العامة بواسطة الدولة ليست محددة تجريبياً. فهي معادة الإنتاج ومحولة. إن سبب عدم وجود مصلحة عامة تتضمن جميع المصالح المحددة الممكنة في مجتمع ما، هو أن أي محاولة لتعريف المصلحة العامة أو الإرادة العامة لمجتمع ما تحدث على أرضية إستراتيجية إنتقائية. بالتالي، فإن العلاقة المتداخلة بين مشروعات الدولة والمرشحات الإدراكية يتم تناولها في ضوء الطبيعة الإستراتيجية الإنتقائية لسياق العمل – الملعب غير المستوي الذي تمثله الدولة – ومحاولات القوى لتوجيه أنفسهم إلى تعقيدات سياقات العمل أي التعلم من الخبرات وإلى حد ما صياغة أو إعادة صياغة مصالحهم وهوياتهم وتحالفاتهم وإستراتيجياتهم.

هذا فهم نسبي ومكاني – زماني للمصالح والهويات، يركز على تفاعل الفاعلين الموجهين إستراتيجياً داخل سياق إستراتيجي إنتقائي. يجب التأكيد هنا على أن هذه الأطروحة في معالجتها للتعبئة والإستقطاب المتعلق بالهويات والمجتمعات الإثنية الطائفية لا تركز على الجوانب اليومية للعلاقات الطائفية. ولكنها تركز على المتطلبات السياسية التي ترفعها المجتمعات الإثنية الطائفية التي تعتبر هذه الأطروحة أنها لازمت حكام العراق مبكراً: أولاً مطلب الشيعة بإعادة تمثيلهم طبقاً لوزنهم العددي، وثانياً مطالبة الأكراد بالإستقلال.

أيضاً، تدعم هذه الأطروحة ملاحظة فنار حداد القائلة بأنه بدون (أخذ العوامل السياقية وبروز الهوية الطائفية في الإعتبار في وقت محدد، فإن مصطلحات مثل ''الطائفية''، ''الهوية الطائفية'' و''الطائفي'' تفقد معناها[3]. وهي تعترف أيضاً بأن إستخدام مصطلح ''المرجع'' بشكل موسع مثل ''الشيعة''، ''السنة'' و''الأكراد''، يعني درجة من التعميم، وهي تؤكد على نظرية فالح عبد الجبار بأن تلك المجموعات لا يجب أن ينظر لها بأنها متناغمة أو موحدة، ولكنها تجزأ إلى تصنيفات إجتماعية، إقتصادية، وسياسية متنوعة والتي يمكن لها في حد ذاتها أن توحد ''الشيعيين'' و''السنيين'' على سبيل المثال[4].

ولكي نفهم تعبئة الهويات السياسية في العراق بشكل كامل، وعالم وسلطة هؤلاء القادرين على تقديم المرشحات الإدراكية يجب من ثم تحديد القيود والفرص التي تواجه تلك القوى في سياق مكاني/ زماني معين، للعمل والأعمال أو التصرفات التي يقومون بها، والتي عند تحقق فرص معينة وعدم تحقق فرص أخرى صنعت الفارق. يجب على المرء ان يتذكر أن تلك القيود الهيكلية ليست مطلقة وغير مشروطة.

ولكنها دائماً زمانية، مكانية، وواسطية – وخاصة بالإستراتيجية[5]. من ثم، فهذه الأطروحة تدعم أيضاً نظريات حداد بأنه "سيكون من غير الدقيق نقل النظرية القياسية للإثنية أو القومية إلى العلاقات الطائفية في العراق". حجة حداد هذه ترتكز على فهم الطائفية حيث يدعي أنه برغم أن التداخل بين النظرية القياسية والطائفية في العراق يمكن أخذه في الإعتبار، فإن "العلاقات الطائفية هي ديناميكية متفردة قد تستقر داخل القومية العراقية بينما تحتفظ بخصائصها المجتمعية".

الموقف اعلاه تدعمه الواقعية النقدية ومنهج الإستراتيجية العلائقية. تركز الواقعية النقدية على أنه في كل عملية بحثية يجب أن تكون الظواهر القوية نقطة البداية لعملية التجريد. هذا بسبب تأكيد الواقعية النقدية ومنهج الإستراتيجية العلائقية على العلاقات الإجتماعية. تشير الواقعية النقدية إلى أن العلاقات الإجتماعية – الهيكل – التي نسعى لها تكوينية أو إنشائية بالنسبة للظاهرة الإجتماعية التي نهتم بها، أي ان العلاقات الإجتماعية هي التي توجد الظاهرة. بالتالي، يجب فهم التجريد على أنه استخراج من الواقع، استخراج يتكون من جوهر الظاهرة أي ما يفترضه الهدف أو الظواهر الإجتماعية (بهذا الشكل) وما ساهمت به القوى والآليات لبناء الظواهر الراسخة الموجودة. من ثم، عند دراسة الإثنية الطائفية في العراق تدعي هذه الأطروحة أن المهم هو توضيح ما افترضه وجود الإثنية الطائفية في العراق[6].

من خلال هذه الأطروحة يتم الإدعاء بأنه لفهم سبب تحقيق الهوية الطائفية لتلك القدرة على التأثير في تصورات الناس في عراق ما بعد 2003، لا يكفي النظر إلى الأحداث والقرارات التي تمت خلال هذه الفترة. طبعا لا يكفي أن نحصر أنفسنا هنا في الملاحظات التجريبية للطائفية فقط. بدون شك، شجعت القرارات المهمة التي قام بها الفاعلون المتنوعون في عراق ما بعد 2003 بتشجيع الطائفية. ومن بينها: حل الجيش العراقي، سياسة اجتثاث البعث، تفكيك الدولة، تشكيل أول حكومة للعراق فيما بعد صدام[7] حسب الحصص الإثنية الطائفية، تحول ميزان القوى من الآراء الأكثر تجانساً ومركزية للدولة العراقية التي نشرها النظام البعثي السابق إلى التصورات الإثنية الطائفية للعراق والتي دعمتها المعارضة الشيعية للنظام السابق والمعارضة الكردية، وخلق مساحة ومشهد سياسي في ما بعد 2003، تمت فيه محاولة إعادة تعريف الدولة العراقية والهوية. كل ذلك شجع على الطائفية والاثنية في عراق ما بعد 2003. ولكن، كما يدعي فنار حداد، قد يسأل المرء لماذا وجد هؤلاء الفاعلون الإثنيون الطائفيون من الأساس؟ ولماذا تم وضعهم جيداً لجني مزايا تغيير النظام[8]؟

لفهم السياسات العراقية في ما بعد 2003، يجب أن يدرك المرء أن تاريخ ما قبل 2003 إحتوى على بذور ما سيلي تغيير النظام. إنه لم يحدد النتيجة ولكنه ضيق مجال السياسة العراقية وخلق سياقا إستراتيجيا إنتقائيا جديدا، فضل بعض مشروعات الدولة ومن ثم تصورات سياسية وكيفية القيام بها، وأيضاً هويات ومصالح على أخرى. من ثم، فإن سيطرة الأحزاب السياسية الإثنية الطائفية والمعالجات الإثنية الطائفية في عراق ما بعد 2003 يمكن أن تعزى إلى مجموعة من العوامل، بعضها يسبق الغزو وبعضها ناتج عن الأحداث والقرارات المتخذة بعد تغيير النظام.

إن ميراث الدولة العراقية من حيث إستقطاب المجتمعات الإثنية الطائفية، إرتقاء معارضة المنفى – المقسمة بين الخطوط الإثنية الطائفية – كممثلين حقيقيين للعراقيين، وهيمنة أحزاب الأكراد والشيعة الإسلامية السياسية، مع الأحداث التي إنبثقت بعد تغيير النظام (كما أوضحنا سابقاً)، تعزى إلى تعريف وإعادة تعريف الهوية السياسية للقوى الإجتماعية في العراق عبر الخطوط الإثنية الطائفية. وشجع ذلك على سيطرة مرشح إدراكي لم يتخط فيه جميع الفاعلين والأحداث المسمى الطائفي إلا نادراً.

بالتالي، بينما تؤكد هذه الأطروحة على أنه خلال تاريخ الدولة العراقية كان مجال السياسة العراقية ضيقاً وأنه نادراً ما تمت مشاركة الأفكار التي نظم الناس أنفسهم عليها، بواسطة مجتمع من المواطنين، فهي تقر بأن التجانس أو الإنقسام الطائفي والهوية السياسية الفردية والجماعية والمجتمعية كانت محل جدل، ويتم إملاؤها بواسطة تفاعل الفاعلين الموجهين إستراتيجياً، داخل سياق إستراتيجي إنتقائي. بعبارة أخرى، تعزو الأطروحة تطور وتدهور الهوية الطائفية إلى المجال غير المنتظم للدولة العراقية وعلاقات الدولة – المجتمع، والتي ميزت بعض الفاعلين والهويات والإستراتيجيات والتصرفات عن أخرى عند إختيار مسار العمل. في عراق ما بعد 2003 يمكن النظر لذلك بوضوح في تغيير سلوك السنّة السياسي، والمشاركة في العملية السياسية من المقاطعة في 2005، للعنف، ثم المشاركة في 2009 - 2010 ثم العودة للعنف في 2014 - 2015. داخل هذا السياق الذي أجل فيه الدستور العراقي التضاربات عن طريق التعبير عن ''المصالح المشتركة'' على حساب المشكلات المستقبلية و''القوى الإجتماعية غير المرغوبة''، مما يجعله إحدى المراحل التي ظهر فيها كفاح الهوية للدولة العراقية.

التأثيرات السببية للصراعات الكامنة

في هذه الفقرة يتم الإدعاء بأنه أثناء الغزو الأمريكي للعراق في 2003 واجه العراقيون تغيير النظام بينما كانوا يحملون على عاتقهم عبء ميراث دولة الظل، وعلاقات السلطة غير المتماثلة والعنف وإستقطاب المجتمعات الإثنية الطائفية. كانت المعارضة المنظمة ضد صدام حسين منقسمة في حد ذاتها عبر التقسيمات الإثنية الطائفية، مثلها مثل المجتمع العراقي. كانت أول معركة للإعداد للدستور الجديد في عراق ما بعد صدام، قد بدأت بالفعل قبل الغزو. خلال عدة إجتماعات في المنفى، قدمت المعارضة نفسها كممثل حقيقي للشعب العراقي وتوصلت لإتفاق عام حول الفيدرالية كأساس مستقبلي لهياكل الدولة في العراق، ولكن لم يكن هناك إجماع على خصائص الفيدرالية الأساسية. أيضاً، قامت المعارضة أيضاً وبدرجة ما بمأسسة ممارسات إتخاذ القرار الجماعي والحصص الإثنية الطائفية، التوافق والمحاصصة، والتي لعبت دورا رئيسيا في سياسات ما بعد الغزو العراقية. وبينما لم تشكل هذه العوامل نتيجة عراق ما بعد صدام بشكل محدد، إلا أنها ساهمت في خلق سياق إستراتيجي إنتقائي، فضل أو ميّز بعض مشروعات الدولة عن مشروعات أخرى، ومن ثم فإنها شكلت حدود ومجال سياسات ما بعد صدام.

ومن اجل بناء صورة اكثر وضوحا، نود الاشارة هنا الى اننا نتناول في هذا الجزء

الموروثات المعتمدة على المسار للدولة العراقية، وكيفية إنتاج أشكال الهيمنة وعلاقات السلطة اللامتماثلة وكيفية دعمها وإعادة إنتاجها لتفسح المجال للروايات المختلفة لسلطة الدولة وتسييس المجموعات الإثنية الطائفية. وقاد هذا الى ظهور نمط جديد في سياسات المعارضة العراقية بالمنفى والذي تشكل بعد غزو صدام حسين للكويت عام 1990، وتأثر بدرجة كبيرة بالدعم الدولي لقضية معارضة المنفى. وهو يبين لماذا وكيف توافقت ودعمت العلاقات بين مجموعات المعارضة العراقية وفهمها للسياسات المعنية، موروثات علاقات الدولة – المجتمع وعلاقات السلطة اللامتماثلة في العراق، ولماذا وكيف ظهرت عناصر جديدة في سياسات معارضة المنفى العراقية، عناصر ستحدد بدرجة كبيرة سياسات ما بعد صدام حسين في العراق.

موروثات الدولة العراقية

المتابع للتاريخ يمكنه القول ان الميراث التاريخي الأساسي للدولة العراقية، يؤشر تدمير فكرة مجتمع الامة العراقية. كما يلاحظ شارلز تريب، انه وخلال تاريخ الدولة العراقية، كان مجال ونطاق السياسة العراقية ضيقا. فلم تتم مشاركة الأفكار التي نظم الناس أنفسهم عليها بواسطة مجتمع من المواطنين إلا نادراً ولكن تم ذلك بواسطة الهويات الفرعية "العائلة وأفراد العشيرة وأفراد القبيلة أو المتآمرين". انعكست هذه الحقيقة أيضاً في المحاولات الفاشلة لحكام العراق لإجبار مجتمعات العراق المتنوعة التاريخية على التكيف مع أهدافهم الخاصة[9].

يجب ان نذكّر هنا أن هذه الأطروحة لا تدعي أن العضوية في المواطنة العراقية الشاملة لم توجد أبداً. فهي لا تنكر الطرق العديدة التي ضمت بها النظم العراقية السكان لخلق رواية تاريخية مسيطرة أو أسطورة حول أصول وإستمرارية الدولة العراقية[10]. وهي لا تنكر أن الإلتزام بوحدة العراق ما زال موجودا بين الكثير من العراقيين العاديين، كما أظهرت عدة إستطلاعات رأي تمت بين 2004 و2013[11]. أيضاً، هذه الأطروحة لا تدعي أن هيمنة الهوية الطائفية في سياسات عراق ما بعد 2003 أمر حتمي، ولا أنها ترى عام 2003 كخط فاصل بين العراق اللاطائفي والعراق الطائفي. ان ما نحاول كشفه هنا هو الآليات التي أدت إلى تضييق نطاق ومجال السياسات العراقية.

هذه الأطروحة تدعي أن ما يسمى "بناء الدولة الإثنية - الطائفية" في نظام ما بعد 2003، له جذوره في العمليات التراكمية التي تكشفت خلال القرن العشرين. خلال تاريخ العراق ومبكراً بواسطة قانون الجنسية العراقي لعام 1924 على سبيل المثال – دعمت أدوات الإستبعاد التي إعتمدت على معالجة الهويات المجتمعية هذه العملية. كما يلاحظ فنار حداد "لم تحتو الوحدة بشكل عادل الإختلاف في الهويات القومية بكاملها". ولكن كان النمط الأكثر ظهوراً هو "الرقابة أو قمع الإختلاف أي تصحيح الدولة لإحساس المجموعة المهيمنة بحقها في تأكيد هويتها وأطرها المرجعية وملكيتها – ثقافياً وسياسياً، والتوقع الراسخ بأن المجموعات الخارجية يجب أن تحترم الوضع الراهن ودورها الثانوي فيه كجزء لا يتجزأ من الترتيب الطبيعي للأمور"[12]. على سبيل المثال، الأكراد في العراق – برغم تقسيماتهم الإجتماعية والقبلية واللغوية – أدت المواجهات القوية والإلتزام غير المخلص من حكام العراق ببعض القادة الأكراد ومن بينهم

الشيخ محمود، في بداية تاريخ العراق إلى المطالبة بإنفصال كردستان عن العراق[13]. وحسب تعبير (ديفيد ماكدوال)، لا يمكن للمرء أن ينكر أن جوهر السياسة الكردية في العراق كان إستغلال نقاط ضعف الحكومة المركزية للتأكيد على الإستقلال السياسي الكردي[14]. من ثم، لازم حكام العراق منذ وقت مبكر متطلبين سياسيين طالبت بهما المجتمعات الإثنية – الطائفية: الأول هو مطالبة الشيعة بتمثيلهم حسب وزنهم العددي، والثاني مطالبة الأكراد بالإستقلال. بالتالي، فإن الخلاصة التي يمكن بلورتها مما ذكرناه هي أنه بينما كان التعايش السلمي والإحساس بالامة العراقية والحركة القومية العراقية الحيوية خصائص لا يمكن إنكارها في عراق القرن العشرين، كما يلاحظ (إيريك دافيز) – على الأقل وخصوصاً على المستوى المجتمعي – مع ذلك فإن الدولة العراقية منذ الأيام الأولى كانت ملعبا غير مستو، وتأثرت علاقة الدولة – المجتمع بالموضوعات الإثنية – الطائفية التي إرتبطت محدداتها بالحكم الذاتي الكردي وتمثيل الشيعة السياسي.

من المعروف انه وتحت سلطة بريطانيا العظمى المهيمنة في العشرينيات[15]، تم "خلق" العراق من المقاطعات الثلاث العثمانية: البصرة، بغداد، والموصل[16]. بالنسبة لسكان هذه المساحة ألزمهم وجود العراق بإعادة التفكير في هوياتهم وتحالفاتهم، كما أجبرهم ذلك على القيام بحسابات جديدة للتوافق مع النظام الجديد والسياق الإستراتيجي الإنتقائي. كان السكان الذين يكونون هذه المناطق في مطلع القرن العشرين في شكل مجتمعات لها إكتفاء ذاتي نوعاً ما تحكمها سلطتهم الخاصة وتربطهم علاقة مع الدولة العثمانية تتسم بالإهتمام المالي السيادي[17]. ويذكر أنه كان يوجد كيانان متداخلان نظرياً وفعلياً على الأقل في ضوء ما كانوا يتصورون أنهم جزء منهما: خليفة الإسلام وفكرة العالم العربي[18]. في سيرته، يدعي حسين جميل السكرتير العام للحزب الوطني الديمقراطي، أحد أول الأحزاب السياسية العراقية التي تأسست خلال الإنتداب البريطاني، أن فكرة الدولة العراقية المستقلة التي يحكمها قائد عربي ظهرت مبكراً. فيصف العشرينيات كسنوات تأسيس الحركات الوطنية في العراق، فقد "قاومت الحركة الوطنية الإنتداب البريطاني مبكراً وقاومته وطالبت بإستقلال العراق التام"[19]. أيضاً، يدعم زكي خيري، أحد مؤسسي الحزب الشيوعي العراقي (تأسس في 1934)، في سيرته السياسية التي تغطي أكثر من خمسة عقود من التاريخ العراقي ملاحظات حسين جميل[20].

في الواقع، إنعكست مقاومة الإنتداب في العشرينيات، والرغبة في خلق دولة عراقية مستقلة في العديد من المنشورات في الجرائد العراقية في ذلك الوقت. على سبيل المثال، كان ذلك موضوعا شائعا في جريدة الإستقلال، التي أيدت قيام "هيئة تشريعية عامة" تمثل العراقيين، فتكتب الصحيفة المذكورة في 27 أكتوبر 1920 أن "الهيئة التشريعية العامة" هي الجهة التي تمثل بحق كل الشعب العراقي. فهي ستقرر طبيعة الدولة المستقبلية. وستؤسس حكومتها وستختار الملك[21].

ومن جهة اخرى، تبيّن مراجعة أرشيف الجرائد البريطانية في ذلك الوقت (الموجود في المكتبة البريطانية) زيادة المقاومة ضد الإنتداب البريطاني ورفض "التصديق على المعاهدة الأنجلو عراقية"[22]. ومن بين آخرين، تستشهد "يوركشير بوست" بجعفر باشا، وزير العراق في لندن، في مقابلة

منشورة في 20 سبتمبر 1929، فتذكر أن: "جميع العراقيين بدون تمييز حزبي يريدون إستبدال الإنتداب بمعاهدة صداقة مع بريطانيا العظمى، تترك العراق حراً في تطوير موارده الخاصة وخصوصاً دفاعه الخاص"[23]. هذه المشاعر المتزايدة تجاه الإستقلال إنعكست أيضاً في الإستفتاء العام الذي تم في بعض المدن العراقية، مثل النجف وكربلاء تحت إشراف بريطانيا العظمى.

ولكن، برغم تلك المؤشرات، تبيّن البحوث الحديثة أن السكان الذين يعيشون داخل حدود الدولة الجديدة كانوا يتكونون من مجموعات إثنية طائفية متنوعة، بعضها واضحة التعريف وواعية ذاتياً بدرجة أكبر من البعض الآخر. ولاحقا تم إستخدام علامات التمايز هذه بواسطة القوى السياسية بشكل أو بآخر لإنتاج نوع معين من النظام.

مبكراً، حدثت عملية تسييس للمجتمعات الإثنية الطائفية في العراق. ولخلق نظام إجتماعي لمصلحتهم، نظرت السلطات البريطانية بمزيد من الاهتمام إلى المجموعات الصغيرة الشريفية والنخب الإدارية العثمانية السابقة والوجهاء من الأقلية العربية السنية في العراق[24]. واعتبر العديد من هؤلاء القادة السنة أن الشيعة كيان لا يعتمد عليه متعاطف مع إيران، ولم يتحملوا مطالب القادة الأكراد بالإستقلال، مثلهم في ذلك مثل مشرفيهم البريطانيين، وهو الموضوع الذي ظهر رسمياً طبقاً لتقارير "الإدارة المدنية لبلاد ما بين النهرين" البريطانية في يونيو 1918 بواسطة الجنرال شريف باشا (كردي) في مناقشات مع السير بيرسي كوكس[25]. أيضاً، تمادى البريطانيون في الحفاظ على هذا النظام على الرغم من المعارضة العراقية العامة للإنتداب، من خلال معاهدة تمكنوا أيضاً من ربطها بالإطار الدستوري للدولة الجديدة. وطبقاً لحسين جميل، فانه وعلى أساس المعاهدة الأنجلو/ عراقية، تم تكليف الجمعية التأسيسية العراقية الجديدة بمهمة إقرار ثلاثة موضوعات أساسية: المعاهدة الأنجلو عراقية، الدستور والقانون الإنتخابي[26]. أشعل هذا التطور أحد أوائل الثورات الشعبية ذات المشاركة الواسعة من الشيعة. وعندما نعتبر أن الشيعة و"القضية الشيعية" في العراق تم تناولها في هذه الأطروحة، يجب التأكيد مجددا على أن استخدام مصطلح المرجع بشكل موسع كما في الشيعة يعني درجة من التعميم. من المهم إذاً أن نؤكد أنه طبقاً لأي معيار أو متغير يمكن أن يختاره المرء – الطبقة، الجغرافيا أو درجة الولاء – فإن الشيعة في العراق كانوا وما زالوا بعيدين عن المجتمع المتجانس الموحد[27].

أيضاً، يجب أن يكون من الواضح أن الصلة الوثيقة لموضوع الطائفية الشيعية بالعراق إختلفت بشكل واضح من وقت لوقت، فتلك الصلة الوثيقة يجب أن تدرس من خلال منهج مكاني/زماني. أيضاً، جوهر موضوع الطائفية الشيعية لم يكن "ضد السنية"، ولم يكن عن الإنفصال. ولكنه حدث باسم العراق وبذلك فهو لم يكن أبداً تحدياً للدولة القومية. ومع ذلك، من الأيام الأولى للدولة العراقية كانت هناك قضية شيعية. ومحددات هذه القضية كما يدعي فنار حداد "إرتبطت بالضرورة بالتمثيل السياسي، المدى المؤسسي للمذهب الشيعي المنظم، وحدود الهوية الشيعية في الفضاء العام"[28]. لم يكن ذلك يعني أن القابلية للحركة الإجتماعية والسياسية لم تكن متاحة للشيعة. فبحلول عام 1958 (العام الذي اندلعت فيه ثورة الرابع عشر من تموز)، كان أربعة عشر من ثمانية عشر عضوا بالغرفة التجارية لبغداد

من الشيعة. ولم يكن يعني أيضاً أن الشيعة كمجتمع كانوا طائفيين وأن الشعور بضعف التمثيل تحول تلقائياً إلى مطالب طائفية. في الواقع، العديد من قادة الحزب الشيوعي العراقي (والذي كان عنصرا أساسيا في الحركة الوطنية العراقية) كانوا من ذوي خلفية شيعية[29]. أيضاً، في الخمسينيات، كان من بين السبعة عشر الأعضاء في قيادة حزب البعث العراقي ثمانية من الشيعة، بما في ذلك الأمين العام فؤاد الركابي[30].

يعني ذلك وجود هياكل شيعية مميزة اجتماعياً ودينياً، بعضهم عابرون للهويات الفرعية. في مواجهة المجال غير العادل للدولة العراقية الذي سيطرت عليه قوى تتشكك في الشيعة معتبرة اياهم ككيان لا يعتمد عليه، متعاطف مع إيران، كانت هناك حقائق موازية تتعلق بالدولة العراقية والذات العراقية والتي ترجمت على سبيل المثال في المطالب بالتمثيل العادل (وفي عراق ما بعد 2003 تمثيل الأغلبية) للشيعة.

داخل هذا السياق، أدى هذا الى الاعتقاد بأنهم يعاملون كمواطنين من الدرجة الثانية لا يتم تمثيلهم بالشكل المناسب، وإلى اعتقاد شريحة كبيرة من الشيعة بأن الإتفاقية الأنجلو - عراقية وترتيباتها المؤسسية تمثل إقراراً لنظام لم يكن لهم فيه تأثير، والذي ربما يهمشهم[31]. ففي وقت مبكر، قام مهدي الخالصي وهو رجل دين شيعي بعمل سلسلة من المطالبات بالإستقلال العراقي التام عن بريطانيا العظمى وبأن يكون نصف مجلس الوزراء من الشيعة وأن يكون نصف المسؤولين الحكوميين من الشيعة[32]. أيضاً، في العشرينيات ظهر حزب شيعي (النهضة) لم يدم طويلاً، وكان يؤيد قضايا الشيعة وتمثيلهم.

ويدعي بعض الباحثين (إيريك دافيد مثلا) أنه في وقت مبكر من تاريخ الملكية العراقية، شهد العراق ظهور حركة وطنية عراقية مناهضة للملكية، ونخبتها السياسية وسادتها البريطانيين. كانت المطالب الأساسية لهذه الحركة تمثل في الحريات السياسية والعدالة الإجتماعية. شملت الحركة جميع شرائح المجموعات العراقية الإثنية والدينية، وشجعت على خلق العديد من الجمعيات المهنية التي شكلها المهندسون والمدرسون والمحامون والمنظمات الثقافية مثل إتحاد الأدباء والكتاب العراقيين[33].

بالتوازي مع هذا التطور، حاولت الحكومات العراقية خلال الفترة الملكية تأسيس هوية متماسكة وإحساس بالوطنية العراقية. كان ذلك واضحاً على سبيل المثال في تركيز تعليم الدولة على الوطنية والعلمانية، وتم بناء جيش بسرعة[34].

في الفترة من 1930 حتى الخمسينيات وبداية الستينيات، إكتسبت الحركة الوطنية ومكافحة الملكية زخماً وتم نشر عدد كبير من الجرائد والمجلات تحمل الشعار الوطني[35]. ظهر التيار الأساسي المعادي للملكية من الطبقة الوسطى بالأساس، ولعب التمدن والتعليم دورا جوهريا في هذه العملية. بالتالي في الخمسينيات وخصوصاً بين الطبقات المتعلمة في المناطق الحضرية بدأت الولاءات القومية تحل محل التبعية للمجموعات الفرعية الأصغر من الدولة مثل الطوائف والقبائل[36].

وبعد ما قام به الزعيم عبد الكريم قاسم من عمل عسكري يوم 14 يوليو 1958 (المقصود ثورة 14 تموز 1958 – المحرر)، تصاعدت المشاعر المناهضة للملكية وتزايد دعم الجمهورية العراقية. خلال الأسبوع الأول بعد ذلك، ملأت مظاهرات ضخمة شوارع المدن الرئيسية في العراق، والجماهير تعلن التزامها بالجمهورية الجديدة[37]. تميزت

السنة الأولى من حكم قاسم بهيمنة الحزب الشيوعي العراقي، مقابله كان هناك الذين دعموا العروبة. لم يشارك الشيوعيون كثيراً في اتخاذ القرار، ولكنهم تسيدوا المنظمات المهنية والديمقراطية، والشوارع، وقاموا لإثبات قوتهم بملء شوارع بغداد بمليون شخص، للدفاع عن الجمهورية الوليدة. كما يلاحظ Adeed Dawisha، لم تمارس أي مجموعة سياسية تأثيرا قويا على العملية السياسية منذ نشوء الدولة العراقية[38]. ولكن، بينما أظهرت التحركات الأولى لقاسم والعسكر نية طيبة بشأن إقتسام السلطة مع المدنيين ذوي الميول المشتركة إلا أنه في السنوات التالية سيطر العسكر وقاسم على جميع مؤسسات الدولة. في شباط عام 1963، تم قتل قاسم في الإنقلاب البعثي الأول. ويرى بعض الباحثين أن الإنقلاب البعثي حدث عندما تم قمع الحركة الوطنية العراقية – للتمسك بفكرة العراق كمجتمع متعدد الثقافات، متعدد الديانات ومتعدد اللغات[39].

ولكن، برغم تاريخ العراق كافحت الدولة العراقية لإدارة التعددية المجتمعية بشكل ملائم. وبحسب فنار حداد، "تمت صياغة تنوع الدولة الإثني والدين والطائفي بشكل متناقض: غالباً ما إحتفل خطاب الدولة به كصفة مميزة للعراق بينما في نفس الوقت تم النظر لهذا التنوع بدرجة من الشك كتهديد محتمل للوحدة الوطنية"، علاقة كانت "نتيجة لتاريخ بناء الدولة الإقصائي"[40].

وللسيطرة على الدولة العراقية، أصبحت النظم العراقية المتعاقبة تميل الى الإعتماد على تركيبة من حكم القائد، والرهان على إستخدام العنف، ومحاولات دعم إستقلال الدولة عن المجتمع. بالتالي، ظهر تصور خاص بين كلاً من القادة العراقيين والمعارضين بشأن ماهية السياسة، وكيفية القيام بها، وسرديات سلطة الدولة. حاولت النظم العراقية المتعاقبة مد سلطة الدولة المركزية على رعاياها، من خلال صياغة وإعادة صياغة "مجتمعات الثقة" وباستكشاف التصدعات المجتمعية أو الطائفية في المجتمع العراقي، واتسم كلاهما بالحذر والشك. كان الهدف هو جعل أغلبية الشعب العراقي معتمدين على الأقلية التي سيطرت على الدولة، ومن ثم الإحتفاظ بهرمية الوضع سليمة. من ثم، تم النظر للدولة على أنها ضامن لمميزات المجموعات المختلفة حيث تميّز الحكام على الجزء الأكبر من السكان[41]. اما السياسة، من ناحية أخرى، فقد أصبح ينظر لها على أنها أداة للنظام تجبر السكان على إتباع رؤية الحكام لشؤون الدولة المستقبلية وهو ما كان واضحاً في استعداد الدولة لاستخدام الإكراه[42]. وقد ترسخت عملية الإنتاج وإعادة الإنتاج هذه لأشكال الهيمنة والإحتفاظ بعلاقات السلطة غير المتماثلة بدون تغيير داخل المجتمع العراقي وذلك بشكل أكبر من خلال القاعدة المتحولة للإقتصاد السياسي للعراق حيث أصبحت عائدات البترول أكثر أهمية حيث وفرت لمن يديرون إيرادات الدولة سلطة مالية غير مسبوقة، تتجاوز بكثير أي مجموعة أخرى من الموارد الإقتصادية في العراق، وتضمن بدرجة كبيرة السلطة السياسية وإستقلال الدولة[43].

لقد ساهمت تلك العوامل، معاً، في خلق ما أسماه (شارلز تريب) دولة الظل[44]، وتسييس المجموعات الإثنية والطائفية في العراق، وبالتالي، تقسيم المعارضة العراقية عبر تلك الخطوط الطائفية/ الإثنية[45]. بالتالي، خلق القادة العراقيون جهازا عاما رسميا ولكن عديم السلطة للدولة وفسروا ذلك بمصطلحات

أيديولوجية متنوعة، بل وشرعنوها عبر الدساتير. ويبين منهج قاسم تجاه الحزب الشيوعي العراقي الذي كان له في ذلك الوقت قاعدة شعبية قوية، وتجاه القضية الكردية ذلك بوضوح. يقول عزيز الحاج وهو من قيادات الحزب الشيوعي العراقي (سابقا) في سيرته أنه، وبرغم إعتماد قاسم بدرجة ما على قاعدة سلطة الحزب الشيوعي العراقي، وإحتاج لدعمه للقيام بإصلاحات إجتماعية، إلا أن السلطة الحقيقية ظلت في يد قاسم[46]. ويعيد زكي خيري التأكيد على أنه في أوائل 1960 أعطى قاسم الإذن لجميع الأحزاب السياسية لممارسة نشاطها ما عدا الحزب الشيوعي العراقي. ولكي يسيطر على الحزب الشيوعي العراقي أعطى قاسم الإذن لعضو سابق في لجنة الحزب المركزية (داود الصايغ) لتمثيل الحزب رسمياً وأجبر بقية أعضاء الحزب على قبول هذا الشرط[47]. كما يلاحظ (شارلز تريب)، فإن الدستور العراقي الجديد تحت قيادة الزعيم عبد الكريم قاسم (1958 - 63) "أعلن العراق جمهورية وأقام مجلس سيادة من ثلاثة رجال للقيام بالوظائف الرسمية أو الإحتفالية لرئيس الدولة. ولكن، لم يتم تأسيس مؤسسات نيابية وكان قاسم ذاته في منصب رئيس الوزراء ووزير الدفاع وأيضاً القائد العام للقوات المسلحة[48].

السيطرة السياسية والسيطرة القبلية

والامر ذاته يتعلق أيضاً بالنظام البعثي بعد انقلاب 17-30 تموز 1968، فبينما أقر الدستور بخلق جهاز أمني حزبي وأسماه "مكتب العلاقات العامة" لتجنب إستخدام كلمة "أمني" المثيرة للحساسية، قام الحزب بتعيين صدام حسين رئيسا للجهاز[49]. بالتالي، وبالتوازي مع منظمات أمن الدولة والمخابرات تم تأسيس "مكتب العلاقات العامة". وتم تأسيس "المكتب العسكري" بالتوازي مع وزارة الدفاع. وبالتوازي مع وزارة النفط تم تأسيس "لجنة شؤون النفط". وبالتوازي مع "وزارة الاعلام" تم تأسيس "المكتب الثقافي"[50]. وظهرت سيطرة حزب البعث على الدولة رمزياً عام 1977 عندما تم دمج القيادة القطرية للحزب مع جهة إصدار القرار النهائي في العراق، مجلس قيادة الثورة، RCC، وأصبح أعضاء مجلس قيادة الثورة وزراء.

بالتوازي مع هذا التطور، بدأ صدام حسين في سياسته القبلية. كما بين أماتزيا بارام[51]، وكانت البداية، برغم مذهب حزب البعث والذي فرض التخلص من الشيخ القبلي كسلطة إجتماعية سياسية، كافح صدام حسين للتلاعب بالشيوخ وتحويلهم إلى أدوات في خدمة النظام. فقد تم تحويل الشيوخ القبليين إلى شركاء شرعيين لإقتسام السلطة، حيث أدخل القيم والعادات القبلية في حزب البعث نفسه وهياكل الدولة. بالتالي، تمت شرعنة القرابة أو النسب كمبدأ يحكم إختيار قادة الحزب، وأصبح الشرف القبلي مبدأ شرعيا حاكما وراء قرارات الدولة السياسية[52]. كانت نتيجة ذلك، كما يعترف هاني الفاكيكي وهو عضو سابق في حزب البعث في سيرته، خلق مجتمع أهل الثقة المرتبطين بصدام حسين، والذين يتكونون من العائلات والعشائر العربية السنية من مسقط رأس صدام حسين (تكريت)[53]، ومن نهازي فرص آخرين والذين أصبحوا العمود الفقري لأمن صدام حسين (الحرس الجمهوري والحرس الجمهوري الخاص والامن الخاص) وأجهزة النظام الاخرى، والذين تزايدوا من خلال شبكات المحسوبية

على حساب التمييز الممارس ضد أغلبية سكان العراق [54]. من ثم، بعد مؤتمر حزب البعث التاسع، أصدر صدام حسين أمرا بإسم (مجلس قيادة الثورة) بإبطال قرار 1977 الذي جرت الاشارة اليه سابقا، وأعطى لنفسه الحق في إتخاذ القرار النهائي للدولة [55]. ومن ثم، فقد قام بشغل المناصب الحساسة مع زملاء الحزب المنتمين لأهل الثقة، والذين كانوا في العادة أقاربه من الدرجة الأولى أو الثانية [56].

وبالمقابل، فقد أظهرت حملة الأنفال ضد الأكراد بنهاية الثمانينيات درجة إعتماد النظام على العلاقات العائلية والقبلية. حيث كان علي حسن المجيد (وهو ابن عم صدام حسين) العقل المدبر للحملة الوحشية. ومن خلال أمر تم إصداره في 29 مارس 1987، مُنح علي حسن المجيد السلطة على جميع المنظمات العسكرية، الأمنية، والمدنية في "المناطق الشمالية"، وتم الإعلان عن أن "قراراته ملزمة ويجب إتباعها من قبل جميع مؤسسات الدولة سواء كانت عسكرية، مدنية أو أمنية"[57].

لقد تلازمت عملية تركيز السلطة وخلق جهاز عام رسمي للدولة ليس له سلطة مع خطاب بلاغي كان الهدف منه تمييز "العراقيين الحقيقيين" – الوطنيين – عن هؤلاء الذين لهم "ميل طائفي". وكانت إحدى المجموعات الرئيسية التي استهدفتها هذه السياسة منظمات الشيعة السياسية. قبل وصول البعثيين للسلطة بفترة طويلة كانوا قد بدأوا إستخدام الكلمة العربية "الشعوبية" لمهاجمة خصومهم. يذكر فاضل البراك مدير الامن العام الأسبق في سيرته أنه، بعد الستينيات وخلال الصراع مع شاه إيران، لاحقاً، جمهورية إيران الإسلامية، ومن خلال مراجعة التاريخ الإسلامي، بدأ البعث إستخدام كلمة "شعوبي" لوصف نشاط الشيعة السياسي. كان ذلك محاولة للتشكيك في موثوقية الشيعة في العراق[58]. وخلال الحرب العراقية – الايرانية، ربط البعث موضوع الشعوبية بمسألة من ينتمي للمجتمع العراقي والأمة العربية، ومن لا ينتمي[59].

من جهته، يلاحظ الباحث العراقي زهير الجزائري أنه فيما بعد إنتفاضة 1991 في العراق ضد صدام حسين، نشر النظام العراقي سلسلة من المقالات تحت عنوان "ماذا حدث في نهاية 1991 وبداية 1991 ولماذا حدث؟". هذه المقالات لم تهاجم فقط أحزاب الشيعة السياسية، ولكن الشيعة كمجموعة. فقد إتهم الشيعة بأنهم موالون لمعتقداتهم الطائفية وليس للأمة[60].

من جهة اخرى فان سلطة الإحتلال الأمريكي، التي خططت لبناء دولة عراقية جديدة على أنقاض نظام صدام حسين كانت تدرك أنه، بينما هزمت الولايات المتحدة النظام العراقي بسهولة، إلا أنه كانت توجد مشكلات تعاني منها العلاقة: دولة – مجتمع وهي أكثر تعقيداً والتي قيدت بدرجة كبيرة محاولات السلطة الأمريكية لتغيير الدولة وتضييق خيارات قواتها وقوات العراق السياسية في عراق ما بعد صدام. كانت هناك دولة الظل، شبكات المحسوبية القوية، وعلاقات السلطة اللامتماثلة حيث ترجم كل ذلك إلى تسييس المجتمعات الإثنية الطائفية والمخاوف والفرص المرتبطة بحكم أكثر تمثيلاً.

ان الملاحظات السابقة تبين أنه بحلول الإنتقال أو تغيير النظام في 2003، أصبح مجال ومستقبل السياسات العراقية ضيقاً ومعتمداً علي، ومتأثراً بالعوامل الآتية:

أولاً، تاريخ العلاقات اللامتماثلة، العنف وتسييس المجتمعات الإثنية – الطائفية؛

ثانياً، الإعتماد على خطط الولايات المتحدة المستقبلية للدولة؛
ثالثاً، رفع مجموعات المنفى كممثل وحيد للشعب العراقي على حساب إهمال الحقائق السياسية داخل العراق؛
رابعاً، التمثيل وبدرجة ما مأسسة السياسات العراقية عبر الخطوط الإثنية/ الطائفية المتصدعة؛
وخامساً واخيرا، الإتفاق العام على الفيدرالية كأساس مستقبلي لهياكل الدولة في العراق، ولكن مع عدم وجود إجماع على موضوعاتها الأكثر أهمية، مثل ماهية طبيعة الدولة وكيفية تفويض وتوزيع السلطة.

خلاصة القول ان الأطروحة التي عرضناها توجه الإنتباه التحليلي إلى التأثيرات السببية للصراعات التاريخية والسياسية، وكذلك إتجاهات وإلتزامات الفاعلين المشاركين في عملية صنع الدستور، والسياق الإستراتيجي الذي تحدث فيه العملية، والجوانب المستمرة وغير المكتملة لصنع الدستور. وهي تدعي أن الدساتير ليست أسبابا ولا حلولا لمشكلات المجتمع. فبدلاً من أن تحل الدساتير صراعات المجتمع الهيكلية، فإنها تصوغها أو تؤطرها وتساعد في إحدى مهام الدولة الأساسية، ألا وهي خلق "مناطق مستقرة نسبياً"، فتمكن المجتمع من الإستمرار في كفاحه السياسي على حساب المشكلات المستقبلية. وبإستخدام منهج ملاحظة العملية السببية والمعرفة العميقة بالعراق، كدراسة حالة، من خلال جمع الدليل حول العلاقات بين الخطوات المتتابعة في سلسلة سببية طويلة، تبين هذه الأطروحة كيف أن الميراث التاريخي للدولة العراقية والأحداث الطارئة في وقت صنع الدستور قد قيدت الخيارات المتاحة للفاعلين المشاركين في عملية صنع الدستور. وهي تبين كيف أتاح الدستور العراقي إستمرار المجتمع السياسي في خضم الصراعات الهيكلية من خلال تأجيل التناقضات في المجتمع العراقي ومن خلال إحداث عدم إنسجام دستوري، ومن خلال عدم التعريف الواضح لنطاق وحدود سلطة المنظمات العامة وسلطة المسؤولين، وبترك أمور جوهرية خارج أي آلية سلطة لها معنى[61].

الهوامش:

1- Lerner, Hana. Making Constitutions in Deeply Divided Societies. Cambridge University Press, 2011; Rosenfeld, Michel. "Modern Constitutionalism". Constitutionalism, Identity, Difference, and Legitimacy. Duke University Press, 1994.
2- Bob Jessop, State Theory: Putting the Capitalist State in Its Place (Cambridge: Polity Press, 1990): 1.
3- Fanar Hadad, Sectarianism in Iraq: Antagonistic Visions of Unity (Hurst & Company, 2011): 2.
4- Falah Abdul Jabar, The Shiite Movement in Iraq (Londo:Saqi, 2003).
5- Bob Jessop, State Theory: Putting the Capitalist State in Its Place (Polity Press, 1990).
6- Fanar Hadad, Sectarianism in Iraq…, ibid, p.7
7- Eric Davis, Taking Democray Seriously in Iraq, Boston University Institute for Iraqi Studies, Occasional papper, No. 2 (June 2015).
8- Fanar Hadad, Sectarianism in Iraq…, ibid,
9- Charles Tripp, A History of Iraq (Cambridge Univercity Press, 2002). See also: Charles Tripp, "After Saddam", Survival, Volume 44, Number 4, 2002, pp. 22-37.
10- Eric Davis (2005), Memories of State: Poltics, History, and Collective Identity in Modern Iraq, University of California Press; First edition.
11- Mansoor Moaddel, "Is Iraq Actually Falling Apart? What Social Science Surveys Show". Avail-

able on: https://www.juancole.com/2014/06/actually-falling-surveys.html

-12 Fanar Hadad, " Shia-center state –buildning and Sunni rejection in post 2003 Iraq", Carnegie Endowment for International Peace (January 2016): 8.

-13 For main sourceson the history of Kurds in Iraq before 2003, see: David McDowall, A Modern History of the kurds (I. B. Tauris, 2004) Faleh Abdel Jabar and Hosham Dawod, The Kurds: Nationalism and Politics (Saqi Books, 2007) ; Denise Natali, The Kurds and the State: Evolving National Identity in Iraq, Turkey, and Iran (Syracuse University Press, 2005).
For post – 2003 history, see Reidar Visser and Gareth Standfield, An Iraq of Its Regions: Cornerstones of a Federal Democracy? (Columbia Univercity Press 2008).

-14 Davis McDowall, A Modern History of the Kurds (I. B. Tauris, 2004).

-15 9 India Office, "Review of the Civil Administration of Mesopotamia", (3 December 1920), Archive of House of Commons Parliamentary Papers (accessed via SOAS electronic data bases, at parlipapers.chadwyck.co.uk, on 15 September 2015), p. 1.

-16 For principal sources on the history of Iraq before the 2003 invasion, see Batatu, Hanna. The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq. Princeton University Press, 1978; Charles Tripp, A History of Iraq (Cambridge, 2001); Marion Farouk-Sluglett and Peter Sluglett, Iraq since 1958: From Revolution to Dictatorship, rev. ed. (London, 2001); Kanan Makiya, Republic of Fear: The Inside Story of Saddam's Iraq (New York, 1990). See also International Crisis Group, Iraq Backgrounder: What Lies Beneath, Middle East Report 6 (1 Oct 2002).

-17 India Office, "Review of the Civil Administration of Mesopotamia", (3 December 1920), Archive of House of Commons Parliamentary Papers (accessed via SOAS electronic data bases, at parlipapers.chadwyck.co.uk, on 15 September 2015), pp. 20-24.

-18 Sami Zubaida, "The Fragments Imagine the Nation: The Case of Iraq", in "Nationalism and the Colonial Legacy in the Middle East and Central Asia", special issue, International Journal of Middle East Studies 34, no. 2 (May 2002): 205–15.

-19 حسين جميل، العراق شهادة سياسية 1908 – 1930 (لندن: دار اللام، 1987)، ص 75.

-20 زكي خيري، صدى السنين في ذاكرة شيوعي عراقي مخضرم، ستوكهولم 1994.

-21 جريدة الاستقلال، مقال لداود السعدي (4 تموز 1921)، متاح للاطلاع في ارشيف مكتبة سامي عبد الرحمن في أربيل، ايلول 2014.

-22 Aberdeen Press and Journal, " Anglo- Iraqi Treaty: Constituent Assembly Refuses Ratification",(9 June 1924).

-23 The Yorkshire Post, " Iraq as candidate for League" (29 September 1929), at: www.britishnewspaperarchive.co.uk/viewer/bl/...687/19290920/279/0010, (made available on 14 September 2015).

-24 Sami Zubaida, " The Fragments Imagine the Nation: The Cace of Iraq", In: " Nationalism and the Colonial Legacy in the Middle East and Central Asia", special issue, International Journal of Middle East Studies 34, no. 2(May 2002): 205 - 15; Charles Tripp, A History of Iraq..,) ibid., p. 31.

-25 India Office, " Review of the Civil Administration of Mesopoyamia", (3 Decmber 19 1920), Archive of House of Commons Paliamentary Papers (accessed via SOAS electronic data bases, at parlipapers. Chadwyck.co.uk, on 15 September 2015), p.60.

-26 حسين جميل، العراق شهادة سياسية 1908 – 1930، ص 75.

-27 لمزيد من التفاصيل عن تاريخ الشيعة في العراق قارن: اسحاق نقاش، شيعة العراق، ترجمة عبد الآله النعيمي، الطبعة الاولى (بغداد: دار المدى للثقافة والنشر، 1996) (والكتاب صدر ايضا باللغة الانكليزية وبنفس العنوان عن مطبعة جامعة برنستون وذلك في 2003؛ كذلك:
Faleh Abdel Jabar, The Shi'ite Movement in Iraq (Saqi Books, 2003)

-28 Fanar Hadad, " Shia-center state –buildning and Sunni rejection in post 2003 Iraq", ibid., p. 9

-29 Phebe Marr, The Modern History of Iraq (Westview Press, 2004): 145.

-30 Hanna Batatu, The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq (Princeton University Press, 1978).

-31 Charles Tripp, A History of Iraq (Cambridge University Press, 2002): 52–57.

-32 Peter Sluglett, Britain in Iraq: Contriving King and Country, 1914-1932 (Columbia University Press, 2007): 224.
-33 Eric Davis, " Taking Democracy Seriously in Iraq", Boston University. Institute for Iraqi Studies. Occasional Paper, No. 2 (June 2015): 16.
-34 Adeed Dawisha, "Identity" and Political Survival in Saddam's Iraq, Middle East Journal, Vol. 53, No. 4 (Autumn, 1999), pp. 553-567.
-35 Eric Davis, " Taking Democracy Seriously in Iraq",) ibid.
-36 Adeed Dawisha, "Identity" and Political Survival in Saddam's Iraq, op, cit, p. 141.
-37 ibid., p. 172.
-38 ibid., p. 141.
-39 Eric Davis, " Taking Democracy Seriously in Iraq",) ibid.p. 16.
-40 Fanar Hadad, " Shia-center state –buildning and Sunni rejection in post 2003 Iraq", ibid., p. 8.
-41 Charles Tripp, A History of Iraq, ibid., p 2.
-42 ibid.
-43 Charles Tripp, "After Saddam", Survival, Volume 44, Number 4, 2002, pp. 23-37.
-44 يميز المصطلح "دولة الظل" بين الجهاز الشعبي الرسمي للدولة العراقية وشبكات التمييز والمحسوبية الأقل ظهوراً، حيث تكمن القوة أو السلطة الحقيقية في العراق، والمنظمة عبر الخطوط المختلفة وتخضع لديناميكيات مختلفة. يمكن تفسير هذه الظاهرة بمخاوف المستبدين من خلق أوضاع مؤسسية لها سلطة محاسبتهم.
-45 Charles Tripp, ibid,
-46 عزيز الحاج، شهادة للتاريخ: أوراق في السيرة الذاتية السياسية (لندن: مؤسسة الرافد، 2002)، ص 52.
-47 زكي خيري، صدى السنين في ذاكرة شيوعي عراقي مخضرم..، مصدر سبق ذكره، ص 236.
-48 Charles Tripp, A History of Iraq, ibid., p. 152.
-49 التقرير السياسي الصادر عن المؤتمر القطري التاسع لحزب البعث العربي الاشتراكي، القطر العراقي (بغداد: دار العربية، 1983).
-50 زهير الجزائري، المستبد (بغداد: معهد الدراسات الاستراتيجية، الفرات للنشر والتوزيع، 2006)، ص -28 52.
-51 Amatzia Baram, "Neo-Tribalism in Iraq: Saddam Hussein's Tribal Policies 1991–96", International Journal of Middle East Studies 29, no. 1 (February 1997): 1–31.
-52 Ibid. p. 1.
-53 هاني الفكيكي، أوكار الهزيمة – تجربتي في حزب البعث العراقي، الطبعة الاولى (لندن – قبرص: رياض الريس للكتب والنشر، 1993)
-54 Charles Tripp, "After Saddam", ibid., pp 25-27.
-55 فؤاد مطر، صدام حسين – السيرة الذاتية والحزبية واسلوب الحكم وادارة الصراع 1937 – 1980 (لندن: منشورات هاي لايت، 1980).
-56 زهير الجزائري، المستبد، مصدر سبق ذكره، ص ص. 82-81.
-57 المصدر السابق، ص 190.
* يثير إصطلاح شعوبي ذكرى حركة الشعوبية التي ظهرت في الإسلام في القرن الثامن والتاسع. كان معظم الحركة الشعوبية من غير العرب وكانوا يحتجون على الوضع المميز للعرب في الإسلام.
-58 فاضل البراك، استراتيجيا الامن القومي- اراء وافكار (بغداد: دار العربية، 1986)، ص 28.
-59 عبد الله سلوم السامرائي، الشعوبية حركة مضادة للإسلام والأمة العربية (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1984).
-60 زهير الجزائري، المستبد...، مصدر سبق ذكره، ص 230.
-61 Salam Kamel Karam, The Constitution as Unfinished Business. The Making and Un-Making of Power Relations in Iraq, 2003-2010 , Department of Politics and International Studies School of Oriental and African Studies, SOAS ,University of London, Thesis submitted for the degree of PhD, London 2015, p.3.

وتمت ترجمة الاطروحة الى العربية ونشرت في بغداد عام 2017. لمزيد من التفاصيل انظر:
سلام كامل كرم، الدستور كعمل غير مكتمل - صنع وإبطال علاقات السلطة في العراق 2003-2010 (بغداد: دار الرواد المزدهرة، 2017).

الدستور ومقترح تعديل قانون الأحوال الشخصية.. اتفاق أم افتراق؟

القاضي سالم روضان الموسوي

القاضي سالم روضان الموسوي، باحث وكاتب في الشؤون القانونية والقضائية، وله أطروحات فكرية متعددة. نشرت له الصحف والدوريات العراقية والعربية العديد من البحوث والدراسات والمقالات. كما أنه عضو في العديد من المنظمات والجمعيات والمنتديات الثقافية والقانونية. صدرت له عدة كتب في الجانب القانوني والقضائي.

إن المبادئ الدستورية تعتبر من أسمى القواعد القانونية في سلم المنظومة القانونية لأي بلد فيه دستور. وفي دستور العراق للعام 2005 جاء ذلك التأكيد في الفقرة (أولاً) من المادة (13) من الدستور التي جاء فيها الآتي (أولا: يُعدُ هذا الدستور القانون الأسمى والأعلى في العراق، ويكون ملزماً في أنحائه كافة، وبدون استثناء) ولذلك تقاس مشروعية القوانين التي تصدر عن الجهات التشريعية بمدى مطابقة القانون لتلك المبادئ الدستورية فان اختلف معها يحكم بعدم دستورية ذلك القانون أو بعض مواده وهذا الأمر أدى إلى وجود الرقابة الدستورية على القوانين. والمتابع لأحكام المحكمة الاتحادية العليا في العراق، وهي المحكمة الدستورية، يجد إنها قضت بعدم دستورية العديد من القوانين لأنها خرقت المبدأ الدستوري إما شكلاً أو موضوعاً وهذه هي الرقابة الدستورية على القوانين وتعرف بأنها الوسيلة لمعرفة مطابقة القانون للمعيار الأساسي ومطابقته للمبادئ الدستورية[1]، لذلك تجد الهيئات التشريعية في جميع البلدان تهتم كثيراً بجعل مشاريع القوانين ومقترحاتها تتطابق مع المبادئ الدستورية تداركاً لتعطيلها بقرار حكم قضائي يصدر لاحقاً، ومناسبة هذه المقدمة نشاط مجلس النواب العراقي في اقتراح القوانين حيث يظهر للعلن بين الحين والآخر، أن عددا من أعضاء المجلس يقترحون القوانين التي يرون إنها تصب في الصالح العام، لان فكرة القانون وجدت أصلا ليكون حلاً لمشكلة أو تنظيماً لنشاط معين، والملاحظ أن بعض الشخصيات البرلمانية تدفع بعض المشاريع أو المقترحات لغرض تشريعها، فتحدث جدلاً كبيراً على مستوى أعضاء مجلس النواب وأحيانا يتعدى إلى المجتمع وفعالياته الاجتماعية ومن هذه المقترحات المتعلقة بقضايا الأحوال الشخصية وما عرض في الإعلام وما رشح عنه حول مقترح تعديل قانون الأحوال الشخصية رقم 188 لسنة 1959 المعدل النافذ، حيث اخذ مجالاً وحيزاً كبيراً في مساحة الجدل والاعتراض حتى

أصبح مادة للاحتجاج الجماهيري، وصل مداها إلى الأمم المتحدة التي تدخلت للتوصية تجاه ذلك المقترح، وكذلك عدد من الدول منها بريطانيا وأمريكا وعلى لسان الشخصيات الرسمية، لذلك لا بد من الوقوف على ما ورد في هذه المقترح والمتعلق بالمبادئ الدستورية، وفحصه لبيان مدى مطابقة ما ورد فيه مع تلك المبادئ، تلافياً لحرج اكبر إذا ما مرر مع وجود خروقات دستورية.

ومن خلال قراءة مقترح قانون التعديل وجدت إن فيه بعض الأحكام التي تتعلق بعدة مبادئ دستورية وردت في دستور العراق لعام 2005 في المواد الاتية المادة ((2/اولا/آ)، المادة (14)، المادة (19)، المادة (29)، المادة (41)، المادة (88)، المادة (92) والمادة (93) من الدستور)) وسأعرض لوجهة النظر فيها على وفق الآتي:

أولاً: المادة (2/أولاً/آ) (لا يجوز سن قانونٍ يتعارض مع ثوابت أحكام الإسلام)

إن الدستور العراقي مثله مثل سائر الدساتير في الدول الإسلامية اعتمد هذا المبدأ بعدم جواز سن أي قانون يتعارض مع الثوابت الإسلامية التي من صورها الإجماع: وهو عند الجعفرية الكشف عن رأي المعصوم فإذا كان احد المجمعين هو المعصوم، يكون الحكم محل إجماع. بينما يرى فقه المذاهب الأخرى خلاف ذلك، بان إجماع المؤمنين أو أهل العلم[2]. وعند الحنفية: هو اتفاق رأي المجتهدين من أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في عصر ما على حكم شرعي. أما عند الظاهرية: هو إجماع جمع المؤمنين وهو ما تيقن أن جميع أصحاب رسول الله عرفوه، وقالوا به، ولم يختلف منهم أحد[3] ومن خلال ما تقدم فان أي تشريع يتعارض مع ثوابت الإسلام التي اجمع عليها فقهاء المسلمين، يكون قد خرق الدستور، وواجب التعطيل بحكم قضائي من المحكمة الاتحادية العليا في العراق. وفي مقترح التعديل محل البحث نجد أن المادة (السابعة) من المقترح قد قضت بإلغاء نص البند (3) من المادة (السادسة والعشرين) من القانون النافذ، واقترحت بدلاً منها النص الآتي (يحق للزوج إسكان أبويه أو أحدهما مع زوجته في دار الزوجية وليس للزوجة حق الاعتراض على ذلك ما لم تتضرر به(، لم يختلف عن النص السابق سوى إضافة العبارة الآتية (ما لم تتضرر به) ومفاد هذه العبارة عند تشريعها ونفاذها إن للزوجة الحق في رفض إسكان والدي الزوج معه في دار الزوجية التي يملكها، ويعلم الجميع أن من ثوابت الإسلام التي اقرها الله ـ عز وجل ـ في كتابه المحكم، بر الوالدين ورعايتهم وطاعتهم، وأشار إلى ذلك في أكثر من موضع في سور القرآن الكريم ومنها الآية الكريمة (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا) [4] فإذا منحت الزوجة حق رفض إسكان الزوج لأبويه معه، فكيف له أن يحسن إليهما أو يبرهما أو يرعاهما إذا بلغا من الكبر عتيا. ومن الجدير بالذكر إن ائمة اهل البيت ـ عليهم السلام ـ ومنهم الإمام الصادق، اعتبروا إن الإحسان إلى الوالدين هو صحبتهما بالحسنى، وان لا تكلفهما شيئاً مما يحتاجان إليه، وان كانا يستغنيان عنه، ثم قال الإمام الصادق (ع) لا تملأ عينك من النظر إليهما، إلا برحمة ورقّة، ولا ترفع صوتك فوق صوتهما ولا يدك فوق أيديهما[5]. وهذا الأمر من الثوابت التي لا يختلف عليها احد، فإذا مكنّا الزوجة من أن تنقض هذا الواجب القرآني على الابن تجاه والديه، فإنّا فتحنا بابا لمخالفة الثابت الإسلامي

بموجب قانون، وانه سوف يتعارض حتما مع نص المادة (2/أولاً/آ) من الدستور، لذلك أرى أن هذه الإضافة في التعديل تشكل خرقاً دستوريا ومخالفة للثوابت الإسلامية، فضلاً عن كونها دعوة للجحود تجاه الأبوين، لأن لا يتصور أن يتمكن الابن من رعاية والديه، وهو بعيد عنهم في منزل آخر، لا يستطيع أن يغيثهم عند الحاجة. بينما الدستور العراقي في موضع آخر في المادة (29/ثانياً) من الدستور، أكد أن من حق الوالدين على الأولاد الرعاية، وعلى وفق النص الآتي (للأولاد حقٌ على والديهم في التربية والرعاية والتعليم، وللوالدين حقٌ على أولادهم في الاحترام والرعاية، ولا سيما في حالات العوز والعجز والشيخوخة). والملاحظ على النص انه أكد وبشكل خاص على الرعاية في حالات العوز والعجز والشيخوخة، فكيف يمكن للابن أن يؤدي واجبه الدستوري تجاه حق أبويه الدستوري في الرعاية، وهو بعيد عنهم لان الزوجة لا ترضى بوجودهما، لان وجودهما يضرها. فهذا خرق دستوري آخر، أما إذا احتج البعض بان للزوجة حقوقا؛ منها الدار المستقلة، فان الرد على ذلك بان للحقوق أولويات، وما كان محل إجماع، ويعد من ثوابت الإسلام ويمثل مبدأ دستوريا، يكون أولى بالإتباع وهذه قاعدة فقهية وقانونية.

ثانياً: المادة (14) من الدستور (العراقيون متساوون أمام القانون دون تمييز بسبب الجنس أو العرق أو القومية أو الأصل أو اللون أو الدين أو المذهب أو المعتقد أو الرأي أو الوضع الاقتصادي أو الاجتماعي).

هذه المادة تضمنت مبدأ المساواة المستمد من أحكام الشريعة الإسلامية ومصدرها الآية الكريمة (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)[6] وفيها التذكير بأصل الخلق وإنهم متساوون وان معيار التمييز بينهم هو التقوى التي يدخل تحت عنوانها الصدق والأمانة والإيمان والعمل الصالح. وتعتبر المساواة من المبادئ الإنسانية والحقوق الطبيعية للإنسان لكن في التعديل المقترح نجد أن هذا المبدأ تعرض إلى الخرق، لأنه ميّز بين الرجل والمرأة، كما ميز بين رجل وآخر، وامرأة وأخرى. وسأعرض لها على وفق الآتي:

1. ميز بين الرجل والمرأة عندما اعدم مفهوم المساواة بينهم بجعل مذهب الزوج هو الذي يسري على الزوجة، حتى ولو لم تختاره، وإنما فرض عليها حيث جاء في الفقرة (ب) من المادة (الأولى) من التعديل النص الآتي (تلتزم المحكمة المختصة بالنسبة للأشخاص الوارد ذكرهم في الفقرة (أ) من هذا البند عند إصدار قراراتها في جميع المسائل التي تناولتها نصوص قانون الأحوال الشخصية رقم 188 لسنة 1959 المعدل وغيرها من المسائل المتعلقة بالأحوال الشخصية، بإتباع ما يصدر عن المجمع العلمي في ديوان الوقف الشيعي، والمجلس العلمي والإفتائي في ديوان الوقف السني، وتبعاً لمذهب الزوج، ويصح أن يكون سبباً للحكم) وفيه فرض مذهب الزوج دون الرجوع إلى رأي الزوجة، لان أحيانا يتفق الزوجان على الحقوق المالية المترتبة عن الزواج على وفق أحكام غير مذهب الزوجين او مذهب الزوج، وفي هذا النص المقترح تم سلب الزوجة من ذلك الحق الذي وفره لها الدستور، عندما جعلها متساوية مع الرجل. وهذا خرق واضح لمبدأ المساواة الوارد في المادة (41) من الدستور.

2. أيضاً هذا النص المقترح ميز بين رجل وآخر وامرأة وأخرى؛ إذ جعل أحكام كل زوج تختلف عن الآخر، رغماً عن رغبتها عندما

افترض الحكم الذي يطبق يكون فقه المذهب الذي عليه الزوج، حتى لو اختار هو أحكام مذهب آخر، وهذا خرق آخر للدستور.

ثالثاً: المادة (41) من الدستور (العراقيون أحرار في الالتزام بأحوالهم الشخصية، حسب دياناتهم أو مذاهبهم أو معتقداتهم أو اختياراتهم، وينظم ذلك بقانون).

إن هذا المبدأ الدستوري أتى على عرض مفهوم من المفاهيم، ذات الصلة بحقوق الإنسان، ألا وهو الحرية في الاختيار، عندما جعل العراقيون أحراراً في عدة مجالات ذكرها النص المتقدم، ومنه التزامه بأحوالهم الشخصية، حسب دياناتهم ومذاهبهم ومعتقداتهم واختياراتهم. واقرن ذلك بقانون ينظم هذه الأحوال والملاحظ على التعديل المقترح انه لم يتطرق سوى لأحوال العراقيين من معتنقي المذهب الحنفي والجعفري فقط، وأهمل بقية الأديان والمذاهب الأخرى وأصحاب المعتقدات من غير الكتابيين، لذلك فان التعديل لم يتوفر على متطلبات المادة (41) من الدستور، وان ما جاء في أسبابه الموجبة المقترحة إلى إن ذلك التعديل هو تطبيق لما جاء في المادة (41) من الدستور أراه اتجاه غير سليم للأسباب الآتية:

1. إن المادة اشترطت تنظيم تلك الأحوال لجميع العراقيين وليس لفئة محدودة من العراقيين. وان يكون التنظيم لجميع العراقيين بقانون واحد وليس بتعديلات مجتزئة لقوانين نافذة، لان قانون الأحوال الشخصية الحالي لجميع العراقيين وعلى وفق ما جاء في مادته الأولى لذلك لا يجوز أن يجزأ الاختصاص الشخصي لجعله ينطبق على فئة دون أخرى. كما إن اتجاه المحكمة الاتحادية العليا في العراق سار على عدم التصدي للأحكام الواردة فيه، لان الدستور اشترط صدور قانون ينظم تلك الأحوال وليس بنصوص مجزئة، تصدر على شكل تعديلات جزئية. وأصدرت المحكمة الاتحادية العليا عدة قرارات بهذا الصدد[7].

2. إن عبارة "العراقيون أحرار" تعني أن كل عراقي له الحرية في اختيار الفعل الذي لا يحرمه القانون، وهذا ما أشار إليه مونتسكيو في كتابه الموسوم (روح القوانين) فضلاً عن المفهوم الفلسفي للحرية، باعتبارها الخاصية التي تدعو إلى التقيد بالنظام العام مع الاحتفاظ بالاختيار للوسائل المعبرة عن الإرادة[8]، لذلك فان نص المادة (الثانية) من التعديل المقترح فرض قسراً على بعض العراقيين أن يكونوا تحت طائلة حكم المذهب الجعفري، لان اجل استحقاق المهر المؤجل المثبت في عقد زواجه يكون عند المطالبة والميسرة، واعتبر وجود تلك العبارة دليلا وليس حتى قرينة على أن هؤلاء الأزواج من معتنقي المذهب الجعفري دون أن تقف على رغبتهم أو رضاهم، لان الكثير من عقود الزواج لا تعبر عن مذهب الزوجين، ومنهم من يختار اجل استحقاق المهر المؤجل عند اقرب الأجلين، وهو ليس من معتنقي المذهب الحنفي، وآخرون يجعلون اجل الاستحقاق عند المطالبة والميسرة، وهم ليسوا من معتنقي المذهب الجعفري، والبعض يحدد مدة معينة لاستحقاق المهر، مثال ذلك بعد خمس سنوات أو بعد عشر سنوات من تاريخ عقد الزواج، وفي العمل القضائي حالات كثيرة من هذه الأمور، قد حصلت، وبذلك لا يمكن أن يكون اجل الاستحقاق دليلا للتمييز بين من يعتنق المذهب الجعفري او المذهب الحنفي، فضلاً عن أن اجل الاستحقاق لا علاقة له بالمذهب، لأنه من أمور المعاملات التي تكون من آثار عقد الزواج، فهي تخضع للاتفاق على أن يكون المهر المؤجل يستحق عند اجل معين، لان أصله دين في الذمة

المالية للزوج، وأحيانا كثيرة تقبض الزوجة كامل مهرها ولا يذكر اجل استحقاق في العقد، وبذلك فان معيار اجل استحقاق المهر المؤجل ليس صحيحا، لأنه ليس من الأمور العقائدية، وإنما من الأمور المالية. ونعلم ان اعتناق المذهب أو الدين يتعلق بالعقيدة وليس بالأموال، وبذلك يكون النص المقترح قد خالف منطوق المادة (41) من الدستور التي قررت للعراقي حرية الاختيار ولا يجوز أن يسلب هذا الحق الدستوري بفرض أحكام هو لم يعلن عن قبوله بها، وإنما بموجب فرضية قائمة على قرينة، لا تمثل امراً عقائدياً يستدل على انتماء الشخص مذهبياً.

3. إن حرية الاختيار الواردة في المادة (41) من الدستور تشترط لمن يختار من العراقيين أن يكون مالكا لإرادته، ومتوفرا على الأهلية القانونية لحق الاختيار، وحيث أن كمال الأهلية بحكم القانون هو تمام الثامنة عشرة من العمر على وفق حكم المادة (106) من القانون المدني العراقي رقم 40 لسنة 1951 المعدل التي جاء فيها الآتي (سن الرشد هي ثماني عشرة سنة كاملة). وقضايا الأحوال الشخصية فيها أبواب للتعاملات المالية فلا بد وان يكون من يختار قد تمتع بالأهلية الكاملة، وإلا عد تصرفه باطلا، لذلك فان التعديل المقترح يسعى لتطبيق أحكام على من لم يبلغ سن الرشد دون اختياره لأنه لا يملك حق الاختيار، كما لم يمنح حق الخيار عند بلوغ سن الرشد، فيكون هذا النص قد تقاطع مع المبدأ الدستوري الوارد في المادة (41) من الدستور التي افترضت أن كل العراقيين أحرار دون تمييز سواء بجنسهم أو بسنهم أو بغير ذلك.

رابعاً: المادة (19/ أولاً) من الدستور (القضاء مستقل لا سلطان عليه لغير القانون)

إن استقلال القضاء اعتبره الدستور من أهم الحقوق الممنوحة للمواطن العراقي عندما نص عليه في المادة (19/أولا) والمادة (88) من الدستور وجعل استقلال القضاء والمحافظة عليه جزءا من مفردات اليمين الدستورية التي وردت في نص الدستور، فهذه الأهمية لا بد ان تراعى عند تشريع أي قانون، إلا أن المقترح جاء فيه خرق واضح لهذا المبدأ، عندما جعل القضاء تابعا لرأي مؤسسة أخرى غير قضائية، وذلك على وفق نص المادة (الثالثة) من النص المقترح التي جاء فيها الآتي (يجوز إبرام عقد الزواج لأتباع المذهبين (الشيعي والسني) كلّ وفقاً لمذهبه، من قبل من يجيز فقهاء ذلك المذهب إبرامه للعقد بعد التأكد من توافر أركان العقد وشروطه وانتفاء الموانع في الزوجين، على أن يجري تصديق العقد لدى محكمة الأحوال الشخصية خلال فترة لا تزيد على (60) ستين يوماً من تاريخ إبرامه)، عندما جعلت أمر إبرام عقد الزواج بيد جهة غير القضاء، وان لم تسمِها بالاسم، وان الاستدراك في عجز المادة جعل القضاء جهة توثيق وليس جهة حكم، عندما جاء النص على وفق الآتي (على أن يجري تصديق العقد لدى محكمة الأحوال الشخصية خلال فترة لا تزيد على (60) ستين يوماً من تاريخ إبرامه)، وما جاء في البند (ب) من المادة الأولى من التعديل المقترح التي جاء فيها الآتي (تلتزم المحكمة المختصة بالنسبة للأشخاص الوارد ذكرهم في الفقرة (أ) من هذا البند عند إصدار قراراتها في جميع المسائل التي تناولتها نصوص قانون الأحوال الشخصية رقم 188 لسنة 1959 المعدل وغيرها من المسائل المتعلقة بالأحوال الشخصية، بإتباع ما يصدر عن المجمع العلمي في ديوان الوقف الشيعي، والمجلس العلمي والإفتائي في ديوان الوقف السني، وتبعاً لمذهب الزوج، ويصح أن يكون

سبباً للحكم)، حيث قررت تلك المادة حكما قانونيا بإلزام المحكمة بآراء ما يصدر من فتوى عن رجال الدين في الوقف وهذا تقاطع صريح وخرق صارخ لمبدأ استقلال القضاء، لان القضاء تجرد من استقلاله، وأصبح تابعا لرأي جهة أخرى غير قضائية، ممثلة بديوان الوقف، وهو مؤسسة أصلا تتولى الإدارة المالية للأعيان الموقوفة، وليس لها علاقة بالإفتاء أو الاجتهاد الديني لان المرجعيات الدينية لا تتحدد بدائرة أو مؤسسة حكومية.

خامساً: المادة (92/أولاً) من الدستور التي جاء فيها الآتي (أولاً: المحكمة الاتحادية العليا هيئةٌ قضائيةٌ مستقلة مالياً وإدارياً).

جاء في المادة (الثامنة) من التعديل المقترح (لا يحكم بمخالفة أي من مواد هذا القانون أو بنوده أو فقراته لثوابت أحكام الإسلام، إلا إذا صوّت على مخالفته أغلبية خبراء الفقه الإسلامي من أعضاء المحكمة الاتحادية العليا)، وفي هذه المادة تقاطع مع أهم مبدأ دستوري، يتعلق بالرقابة على دستورية القوانين، حيث أناط الدستور مهمة مراقبة دستورية القوانين ومدى مطابقتها للدستور ومنها الثوابت الإسلامية إلى المحكمة الاتحادية العليا وعلى وفق نص المادة (93/ أولا) ولم يمنح ذلك الاختصاص لرجال الفقه الإسلامي، لان المحكمة تتكون من عدد من القضاة ومن رجال الفقه في القانون، وكذلك من رجال الفقه الإسلامي، وما جاء في النص المقترح اختزال عمل المحكمة برجال الفقه الإسلامي على خلاف ما جاء في المواد الدستورية المشار إليها في أعلاه، لان القرار الذي يصدر يكون من المحكمة، وليس من الأعضاء حيث اعتبر الدستور الرقابة على دستورية القوانين رقابة قضائية تنظرها محكمة دستورية وهي المحكمة الاتحادية العليا، ونص في المادة (92) من الدستور على أنها هيئة قضائية وليس مجلسا دستوريا أو مجلس شورى او عددا من الأفراد، لذلك ورود مثل هذا النص في التعديل المقترح فيه مخالفة دستورية واضحة للمبدأ الدستوري الوارد في المواد (92) و(93) من الدستور.

ومن خلال العرض المتقدم نرى ان التعديل المقترح لقانون الاحوال الشخصية انطوى على الكثير من المخالفات الدستورية، ولا يتفق مع المبادئ الواردة فيه، ولا بد من اعادة النظر فيه من قبل من سعى لتمريره من اجل الوصول الى تشريع، يتسم بالمشروعية الدستورية، ويضمن تحقيق العدل والتوازن في الحقوق لجميع العراقيين.

الهوامش

1 - للمزيد انظر مؤلفنا الموسوم: حجية احكام المحكمة الاتحادية العليا في العراق، منشورات مكتبة الصباح القانونية عام 2017 - ص 20.

2 - للمزيد من التفاصيل انظر: الدكتور احمد فتح الله، معجم ألفاظ الفقه الجعفري (الدمام، 1995).

3 - للمزيد انظر: الدكتور سعدي أبو حبيب، القاموس الفقهي لغة واصطلاحا (دمشق: منشورات دار الفكر، 1988.

4- الآية 23 من سورة الإسراء.

5- للمزيد انظر: غدير حمودي، فقه نظام الأسرة في القرآن الكريم (بيروت: منشورات دار الولاء، الطبعة الأولى، 2011)، ص253.

6- الآية 13 من سورة الحجرات.

7- للاطلاع على القرارات مراجعة الموقع الالكتروني للمحكمة الاتحادية العليا http://www.iraqfsc.iq

8- للمزيد انظر موريس نخلة، الحريات الحقوقية (بيروت: منشورات الحلبي، 1999)، ص 45.

الوضع الدستوري الحالي للمرأة في النظام العراقي

جاسم هداد

جاسم هداد خريج معهد الهندسة التطبيقية العالي/ جامعة بغداد عام 1970، ماجستير في القانون الدستوري بامتياز من معهد البحوث والدراسات العربية في القاهرة، صدر له "حقوق المرأة السياسية في الدساتير العراقية" عن دار الرواد المزدهرة- بغداد- 2015.

تمهيد وتقسيم:

منذ تأسيس الدولة العراقية عام 1921 وإلى الاحتلال الأمريكي للعراق عام 2003، أي: قرابة ثمانين عاماً، تناوب إدارة النظام السياسي، حكم ملكي وجمهوري ببزات عسكرية، ولم تحظ المرأة العراقية باهتمام يتناسب ودورها وحجمها في المجتمع.

عاش العراق في ظل خمسة دساتير حكومية مؤقتة[1]، ودستور دائم واحد هو الدستور الملكي عام 1924، الذي ولد من مزيج من التقاليد البريطانية، والدستور العثماني والدستور المصري، كما يقول المؤرخ الدستوري "نيثن براون". أما المؤرخ السياسي العراقي، مجيد خدوري، فيقول: إنه تم اعتماد أيضاً مصادر دستورية أخرى، مثل الدستور الأسترالي، ودستور نيوزيلندا. وبعد الاحتلال الأمريكي في 9 نيسان/ إبريل 2003، تولى إدارة شؤون الحكم مكتب إعادة الأعمار والمساعدات الإنسانية المرتبط بوزارة الدفاع الأمريكية، وتم تكليف الفريق المتقاعد "جاي غارنر" بالإشراف عليه، ولكن سرعان ما تم حله وتشكيل سلطة الائتلاف المؤقتة[2] والمستندة إلى قرار مجلس الأمن 1483 في 22 أيار/ مايو 2003، والتي تولت إدارة الحكم في البلاد للفترة 21 نيسان/ إبريل 2003 - 28 أيار/ مايو 2004.

ولقد دشّن قرار مجلس الأمن سابقة دولية خطيرة في العلاقات الدولية ممثلة بشرعنة احتلال دولة عضو في الأمم المتحدة، من طرف مجموعة دول أعضاء في نفس المنظمة[3].

ووضعت سلطة الائتلاف المؤقتة خارطة طريق لإدارة شؤون الحكم في العراق، فشكلت مجلس حكم مؤلف من "25" شخصية عراقية، كان من ضمنهم ثلاث نساء فقط[4]، وذلك في 13 تموز/ يوليو 2003، والذي كان بمثابة السلطة التنفيذية، ولكن بصلاحيات محدودة وبإشراف من الحاكم الأمريكي "بول بريمر"، ومن صلاحياته العمل بالتنسيق مع سلطة الائتلاف على رسم السياسات العامة للبلاد، والمصادقة على قانون إدارة الدولة للمرحلة الانتقالية، والذي صاغته لجنة تألفت من تسعة أعضاء، ولم يكن من ضمنهم أي امرأة، كما أن المرأة لم تشترك في هيئة الرئاسة لمجلس الحكم[5].

وانتهت مهام مجلس الحكم بتشكيل الحكومة الانتقالية المؤقتة برئاسة إياد علاوي، والتي تشكلت في 28 أيار/ مايو 2004، واستمرت في مهامها لغاية تشكيل الحكومة الانتقالية برئاسة إبراهيم الجعفري بعد الانتخابات التشريعية للجمعية الوطنية في 30 كانون الثاني/ يناير 2005، وإلى جانبها وكسلطة تشريعية المجلس الوطني المؤقت، الذي تم تشكيله استنادا إلى ملحق قانون إدارة الدولة العراقية للمرحلة الانتقالية.

تطور مفهوم حق الانتخاب والترشيح للمرأة في النظام الدستوري العراقي

أصدر مجلس الحكم في 8 آذار/ مارس 2004 قانون إدارة الدولة للمرحلة الانتقالية، والتي بدأت في 30 حزيران/ يونيو 2004، وبموجب هذا القانون تمت إدارة شؤون العراق خلال المرحلة الانتقالية إلى حين قيام حكومة منتخبة، تعمل في ظل دستور شرعي دائم. وتضمن القانون "62" مادة. واعتبر القانون الأعلى في البلاد، أي: بمثابة دستور مؤقت للدولة، لحين وضع الدستور الدائم، ولأول مرة يقر القانون الأعلى "الدستور" بأن نظام الحكم في العراق جمهوري اتحادي "فيدرالي" ديمقراطي تعددي. وحدد جدولاً زمنياً لإجراء الانتخابات الانتقالية والدستورية، وكان منصفاً مع المرأة حيث ضمن لها العديد من الحقوق السياسية والمدنية، وتضمن مبدأ "الكوتا النسوية"، أي: التمييز الإيجابي للمرأة في موضوعة الترشيح للسلطة التشريعية. وفي 31 أيار/ مايو 2005 أصدر مجلس الحكم، واستناداً لما جاء في المادة الثانية الفقرة أ/ب من قانون إدارة الدولة العراقية للمرحلة الانتقالية[6] ملحقاً بالقانون "ملحق قانون إدارة الدولة العراقية للمرحلة الانتقالية 2004"، واعتبر (... جزءاً لا يتجزأ من قانون إدارة الدولة العراقية)[7]، بصدور قانون إدارة الدولة للمرحلة الانتقالية، ألغي الدستور المؤقت للنظام السابق، ولقد تميز هذا القانون بأنه: (كان للمرأة نصيب واف من الحقوق بشكل واضح؛ حيث أشار إلى ذلك في المادة الأولى/ ب التي نصت على "أن الإشارة للمذكر في هذا القانون يشمل المؤنث أيضاً"، وهذه سابقة مهمة تختلف عن الدساتير العراقية السابقة، بالتخصيص على حقوق المرأة وترك العمومية في الحقوق)[8]، وهي بذلك قطعت الشك باليقين، وأبعدت مواد القانون عن كل تأويل.

وتضمن القانون مساواة المرأة بالرجل، وبدون أي تمييز أو تفرقة بينهما؛ حيث نصت المادة الثانية عشرة على أن: (العراقيين كافة متساوون في حقوقهم بصرف النظر عن الجنس أو الرأي أو المعتقد أو القومية أو الدين أو المذهب أو الأصل، وهم سواء أمام القانون، ويمنع التمييز ضد المواطن العراقي على أساس جنسه أو قوميته أو ديانته أو أصله، ولهم الحق بالأمن الشخصي وبالحياة والحرية ولا يجوز حرمان، أي أحد من حياته أو حريته إلا وفقاً لإجراءات قانونية، أن الجميع سواسية أمام القضاء)[9].

ولقد نصت المادة العشرون في الفقرة "أ" على أنه: (لكل عراقي تتوفر فيه الشروط المنصوص عليها في قانون الانتخاب أن يرشح نفسه للانتخابات، ويدلي بصوته بسرية في انتخابات حرة، مفتوحة، عادلة، تنافسية ودورية)[10]، ونصت الفقرة "ب" من المادة نفسها على أنه: (لا يجوز التمييز ضد أي عراقي لأغراض التصويت في الانتخابات على أساس الجنس أو الدين أو المذهب أو العرق أو المعتقد أو القومية أو اللغة أو الثروة أو المعرفة بالقراءة والكتابة)[11]، وهذا النص لم يرد في الدساتير العراقية السابقة.

وللمرة الأولى في تاريخ الدولة العراقية يتم تحديد حصة للمرأة "كوتا" في السلطة التشريعية، ويتم تشريع ذلك دستورياً؛ حيث نصت المادة الثلاثون الفقرة ج من قانون إدارة الدولة على أن: (تنتخب الجمعية الوطنية طبقاً لقانون الانتخاب وقانون الأحزاب السياسية، ويستهدف قانون الانتخابات تحقيق نسبة تمثيل للنساء لا تقل عن الربع من أعضاء الجمعية الوطنية، وتحقيق تمثيل عادل لجماعات العراق كافة، وبضمنها التركمان والكلدوآشوريين والآخرين)[12].

وفي ضوء خارطة الطريق التي وضعتها سلطة الائتلاف المؤقتة لإدارة شؤون الحكم في العراق، فلقد تناول القسم الثالث من ملحق قانون إدارة الدولة العراقية للمرحلة الانتقالية، آلية تشكيل المجلس الوطني المؤقت، وصلاحياته كسلطة تشريعية استشارية إلى جانب السلطة التنفيذية "حكومة إياد علاوي الانتقالية المؤقتة" التي تشكلت في 1 حزيران/ يونيو 2004؛ حيث: (يتم تشكيل واختيار أعضاء المجلس الوطني المؤقت بواسطة مؤتمر وطني يعقد في بغداد خلال شهر تموز 2004، ينظم المؤتمر الوطني بواسطة هيئة عليا تضم أعضاء مجلس الحكم، من الذين لم يتولوا مناصب حكومية أخرى، وممثلي الأقاليم والمحافظات والشخصيات العراقية المعروفة بنزاهتها وكفاءتها)[13]، ولقد تم عقد المؤتمر الوطني في ظروف شهدت تصاعد أعمال العنف، خلال الفترة 15 - 18 آب/ أغسطس 2004، وحضر المؤتمر حوالي 1300 شخصية عراقية[14]، يمثلون جميع المحافظات ومؤسسات المجتمع المدني والنقابات وأكثر من 70 حزباً سياسياً ورجال الدين والعشائر والشخصيات الاجتماعية والثقافية والفنانين والمبدعين والمستقلين، إضافة لممثلي القوميات والطوائف المختلفة. وشكل المؤتمر أربع لجان تخصصت بالوضع السياسي، الوضع الأمني، حقوق الإنسان والعدالة في المرحلة الانتقالية، إعادة الإعمار.

أما المادة الحادية والثلاثون من القانون، فتم بموجبها تحديد عدد أعضاء الجمعية الوطنية والشروط الواجب توافرها في المرشح لعضويتها.

والانتخابات الأولى "كانون الثاني/ يناير 2005" التي جرت في العراق بعد التغيير الذي تم في 2003 تمت وفق قانون الانتخاب الذي أصدرته سلطة الائتلاف المؤقتة، والذي حمل الأمر رقم 96 في 15 حزيران/ يونيو 2004، والذي أوضح أن المفردات الواردة فيه بصيغة المذكر فإنها تشمل المؤنث؛ حيث نص القسم الثاني على أن: (... تشمل الكلمات الواردة بصيغة المذكر معنى المؤنث)[15]، ولأول مرة يتم تحديد حصة للمرأة "كوتا" دستورياً وبصيغة الإلزام؛ حيث نص القسم الرابع في فقرته الثالثة على أنه: (يجب أن يكون اسم امرأة واحدة على الأقل ضمن أسماء أول ثلاثة مرشحين في القائمة، كما يجب أن يكون ضمن أسماء أول ستة مرشحين على القائمة أسماء امرأتين على الأقل، وهكذا دواليك حتى نهاية القائمة)[16].

رغم أن الانتخابات التشريعية الأولى (30 كانون الثاني/ يناير 2005) جرت في ظروف أمنية غير جيدة، وشارك فيها 307 كيانات سياسية، بضمنها 19 ائتلافاً، وكان أكبر تلك الائتلافات ذا طبيعة طائفية أو عرقية، ونسبة المشاركة كانت 58% من الناخبين المسجلين، وقدرت مساهمة النساء فيها بين 70 - 80%، كان عدد النساء المنتخبات في الجمعية الوطنية 87 امرأة من أصل 275 عضوا منتخبا، أي: بنسبة 32%، وهي النسبة الأعلى في تاريخ مجلس النواب العراقي.

في 16 آذار/ مارس 2005 تشكلت الجمعية

الوطنية بعد إعلان نتائج الانتخابات، ومن مهامها وضع الدستور العراقي الدائم؛ حيث شكل مجلس الحكم "لجنة إعداد آلية كتابة الدستور" من 25 عضوا؛ حيث رشح كل عضو في مجلس الحكم مرشحا واحدا يمثله، ولم ترشح أي: امرأة لعضوية هذه اللجنة. وهذا يعني أن العضوات الثلاث في مجلس الحكم لم يرشحن نساء ممثلات عنهن، بل رشحن رجالاً لعضوية اللجنة.

شكلت الجمعية الوطنية "لجنة صياغة الدستور"، وضمت 71 عضواً. كما يمكن ملاحظة قلة عدد النساء المشاركات في لجنة صياغة الدستور؛ فضمت هذه الهيئة ثماني نساء من بين "71" عضواً، أي: بنسبة 11%. وصادقت الجمعية الوطنية على الدستور في 28 آب/ أغسطس 2005 بدلاً من الموعد الرسمي المحدد له 15 آب/ أغسطس 2005.

والدستور العراقي الحالي، والذي يسمى دستور عام 2005[17]، تم وضعه بعد تحول سياسي عاصف، وتم الاستفتاء عليه في 15 تشرين الثاني/ نوفمبر 2005 بنسبة 78% من أصوات المقترعين، وكانت نسبة المشاركة 63% من الناخبين المسجلين[18]. ويعد الدستور الدائم الجديد أول وثيقة قانونية تصاغ على يد جمعية تأسيسية منتخبة منذ العام 1924.

وأهم ما تميز به دستور 2005 إقراره للحقوق والحريات السياسية والمدنية، وافتقاره لوسائل حماية لهذه الحقوق والحريات، واحتوائه على مواد غامضة متناقضة تتعلق بنواظم الحريات السياسية، ودور الدين وحقوق المرأة. كما تغلب عليه اللغة الذكورية "مواطن، عراقي، عراقيون... إلخ"، والتي يمكن تفسيرها لغير صالح المرأة، ومما يميز الدستور العراقي الجديد لعام 2005 الميل الشديد لأسلمة السياسة والمجتمع، واتسامه بمسحة إسلامية، مما يشكل خطراً على الحريات الديمقراطية والمدنية.

ويمكن ملاحظة ذلك في المواد الخاصة بالمرأة وما اعتراها من التأرجح القيمي الذي تركته ظروف التراجع في القيم المدنية الحضرية التي صيغت بها هذه المواد[19]. ولقد حظر الدستور لسنة 2005 التمييز بين المرأة والرجل. ونص على المساواة بينهما؛ حيث نصت المادة "14" منه على أن (العراقيين متساوون أمام القانون دون تمييز بسبب الجنس أو العرق أو القومية أو الأصل أو اللون أو الدين أو المذهب أو المعتقد أو الرأي أو الوضع الاقتصادي أو الاجتماعي[20].

وأكد الدستور الدائم بوضوح غير قابل للتأويل، حق المرأة بالتمتع بحقوقها السياسية، بما فيها حق التصويت والترشيح، ويسجل الدستور اعترافاً لا غبار عليه، وغير قابل للشك بحق المرأة بالمشاركة في الشؤون العامة، والتي تعني: المشاركة في الحياة السياسية ومجلس النواب والحكومة والقضاء؛ حيث نصت المادة "20" على أن:(للمواطنين رجالاً ونساءً حق المشاركة في الشؤون العامة، والتمتع بالحقوق السياسية، بما فيها حق التصويت والانتخاب والترشيح)[21].

وتضمن الدستور الدائم لسنة 2005 نصاً دستورياً حامياً وضامناً لحق المرأة في المشاركة السياسية، وهو لم يرد سابقاً في جميع الدساتير العراقية؛ حيث نصت الماد "48" في الفقرة رابعاً على أنه: (يستهدف قانون الانتخابات تحقيق نسبة تمثيل للنساء لا تقل عن الربع من أعضاء مجلس النواب)[22].

يعتبر الدستور العراقي لسنة 2005 من أفضل الدساتير العراقية التي صدرت منذ تأسيس الدولة العراقية عام 1921، رغم بعض التحفظات عليه؛ حيث تضمن نصوصاً واضحة وصريحة في المساواة بين المرأة والرجل، وعدم التفريق بينهما، فلقد أكدت المادة الرابعة عشرة على المساواة بين الرجل والمرأة أمام

القضاء بنصها على أن: (العراقيين متساوون أمام القانون دون تمييز بسبب الجنس أو العمل أو العرق أو القومية أو الأصل أو اللون أو الدين أو المذهب أو المعتقد أو الرأي أو الوضع الاقتصادي أو الاجتماعي)[23]، والمادة 20 منه نصت على أن: (للمواطنين رجالاً ونساء حق المشاركة في الشؤون العامة، والتمتع بالحقوق السياسية بما فيها حق التصويت والانتخاب والترشيح)[24].

وحدد الدستور عدد أعضاء مجلس النواب، وأناط تحديد الشروط الواجب توافرها في الناخب والمرشح للقانون التشريعي، كما ثبت نصاً دستورياً بتحديد نسبة معينة لا تقل عن الربع لتمثيل المرأة في السلطة التشريعية، فنصت المادة "49" على ما يأتي: (... رابعاً: يستهدف قانون الانتخابات تحقيق نسبة تمثيل للنساء لا تقل عن الربع من عدد أعضاء مجلس النواب)[25].

أرى: أن الدستور العراقي لعام 2005 أغفل الإشارة إلى أن كل صيغة مذكر تشمل الإناث؛ حتى يمكن الاحتجاج في حالة حدوث خلل عند المعاملة بالمثل، كما ورد في قانون إدارة الدولة المؤقت.

واستناداً للنص الدستوري (المادة 49/ ثالثاً) التي نصت على أن: (تنظم بقانون، شروط المرشح والناخب، وكل ما يتعلق بالانتخاب[26]، فلقد شرعت الجمعية الوطنية بتاريخ 5 تشرين الأول/ أكتوبر 2005 قانون الانتخابات رقم 16 لسنة 2005، والذي حل محل أمر سلطة الائتلاف المؤقتة رقم 96؛ حيث جرت الانتخابات النيابية في 15 كانون الأول/ ديسمبر 2005 بموجب قانون الانتخابات الجديد، وبموجب هذا القانون تم تحديد الشروط الواجب توافرها في الناخب والمرشح، فقد حددت المادة الثالثة منه الشروط الواجب توافرها في الناخب؛ حيث نصت على أن (يشترط في الناخب أن يكون:

1 - عراقي الجنسية.

2 - كامل الأهلية.

3 - أكمل الثامنة عشرة من عمره في الشهر الذي تجري فيه الانتخابات.

4 - مسجلاً للإدلاء بصوته وفقاً للإجراءات الصادرة عن مفوضية الانتخابات العراقية المستقلة)[27].

أما الشروط الواجب توافرها في المرشح فنصت عليها المادة السادسة بأن: (يشترط في المرشح أن يكون ناخباً بالإضافة إلى ما يلي:

1- أن لا يقل عمره عن ثلاثين سنة.

2- أن لا يكون مشمولاً بقوانين اجتثاث البعث.

3- أن لا يكون قد أثرى بشكل غير مشروع على حساب الوطن والمال العام.

4- أن لا يكون محكوماً عليه بجريمة مخلة بالشرف، وأن يكون معروفاً بالسيرة الحسنة.

5- أن يكون حاملاً لشهادة الدراسة الثانوية، أو ما يعادلها.

6- أن لا يكون عضواً في القوات المسلحة عند الترشيح)[28].

وأكدت المادة السابعة من القانون ضرورة خضوع المرشحين لمصادقة مفوضية الانتخابات العليا المستقلة، بالنص الآتي: (يخضع المرشحون لمصادقة مفوضية الانتخابات العراقية المستقلة)[29].

ولقد خصص القانون حصة للمرأة "كوتا" وبصفة الإلزام من خلال النص الآتي: (يجب أن تكون امرأة واحدة على الأقل ضمن أول ثلاثة مرشحين في القائمة، كما يجب أن تكون ضمن أول ستة مرشحين في القائمة امرأتان على الأقل، وهكذا حتى نهاية القائمة)[30].

كما نصت المادة 14 من القانون على ما يلي: (أولاً: إذا فقد عضو المجلس مقعده لأي سبب يحل محله المرشح التالي في قائمته طبقاً

للترتيب الوارد فيها.
ثانياً: إذا كان المقعد الشاغر يخص امرأة، فلا يشترط أن تحل محلها امرأة، إلا إذا كان ذلك مؤثراً على نسبة تمثيل النساء)[31]، وما زالت هذه الفقرة محل مطالبة المنظمات النسائية في العراق بتعديلها بحيث تشغل امرأة، النائبة فاقدة العضوية، لكن لم تتم الاستجابة رغم إجراء تعديلات على القانون، وهو ما يشكل انتهاكاً لحقوق المرأة السياسية ومخالفة للدستور الذي ينص على المساواة في الحقوق بين الرجل والمرأة[32].
وبموجب قانون الانتخابات رقم 16 لسنة 2005 جرت الانتخابات النيابية في 15 كانون الأول/ ديسمبر 2005، والتي فازت بها المرأة بـ "73" مقعداً من مجموع "275" مقعداً، أي: بنسبة 27%.
ولقد عالج الدستور موضوعة استبدال أعضائه لأي سبب كان؛ حيث نصت المادة 49 الفقرة الخامسة على أن: (يقوم مجلس النواب بسن قانون يعالج حالات استبدال أعضائه عند الاستقالة أو الإقالة أو الوفاة)[33]، واستناداً لهذا النص الدستوري أصدر مجلس النواب قانون "استبدال أعضاء مجلس النواب" رقم 6 لسنة 2006، والذي نص في المادة الثانية منه على أنه:
(إذا شغر أحد مقاعد مجلس النواب لأحد الأسباب المذكورة في المادة الأولى، فيتم استبداله بمرشح من نفس القائمة التي شغر المقعد المخصص لها في مجلس النواب وحسب الترتيب التالي:
1 -...
2 - ...
3 - إذا كان المقعد الشاغر يخص امرأة، فلا يشترط أن يحل محلها امرأة، إلا إذا كان ذلك مؤثراً على الحد الأدنى لتمثيل النساء للمجلس.
4 -...)[34].
ولقد سبق لقانون الجمعية الوطنية رقم 3 في 23 تموز/ يوليو 2005 أن تضمن نفس المادة؛ حيث نصت المادة الأولى الفقرة ثانياً على أنه: (ثانياً: ...2 إذا كان المقعد الذي شغر يخص امرأة فلا يشترط أن تحل محلها أخرى من نفس القائمة، ما لم يكن ذلك مؤثراً على نسبة تمثيل النساء المقررة قانوناً في الجمعية الوطنية[35].
أرى: أن عدم اشتراط أن تحل امرأة محل المقعد الشاغر الذي يخص امرأة، يعكس الرغبة لدى مجلس النواب ذي الأغلبية الذكورية لإبقاء تمثيل المرأة في حده الأدنى، وبقدر ما يشكل انتهاكا لحقوق المرأة، فهو يتناقض وما تضمنه الدستور من كفالة الدولة لتحقيق تكافؤ الفرص[36].
وقام مجلس النواب بإدخال تعديل على قانون الانتخابات رقم 16 لسنة 2005، بالقانون رقم 26 لسنة 2009، والذي بموجبه جرت الانتخابات النيابية في آذار/ مارس 2010.
وبموجب المادة أولاً منه فأنه (يتألف مجلس النواب من عدد من المقاعد بنسبة مقعد واحد لكل مائة ألف نسمة وفقا لآخر إحصائية تقدمها وزارة التجارة...)[37]، وعليه كان عدد أعضاء مجلس النواب "325" عضواً، وتنافس على هذه المقاعد 6172 مرشحاً، من ضمنهم 1798 امرأة تنافسن على 82 مقعداً، هو عدد مقاعد الكوتا النسائية من مجموع عدد المقاعد البرلمانية البالغة 325 مقعداً، أي: بنسبة 25%، وفاز "61" نائبة على أساس الكوتا، و"21" نائبة بدون كوتا، أي: بالتنافس الحر.
ولقد شرع مجلس النواب العراقي بتاريخ 4 تشرين الثاني/ نوفمبر 2013 قانون انتخابات مجلس النواب العراقي[38]، الذي حل محل القانون السابق رقم (16) لسنة 2005

وتعديلاته[39]، ونصت المادة "4" منه على (أولاً: الانتخاب حق لكل عراقي ممن توافرت فيه الشروط المنصوص عليها في هذا القانون لممارسة هذا الحق دون تمييز بسبب الجنس أو العرق أو القومية أو الأصل أو اللون أو الدين أو المذهب أو المعتقد أو الرأي أو الوضع الاقتصادي أو الاجتماعي.
ثانياً: يمارس كل ناخب حقه في التصويت للانتخاب بصورة حرة ومباشرة وسرية وفردية، ولا يجوز التصويت بالإنابة)[40].
أما المادة "5" فحددت الشروط الواجب توافرها في الناخب، وهي نفس الشروط التي تضمنها قانون الانتخابات السابق، فقد نصت على أن: (يشترط في الناخب أن يكون:
أولاً: عراقي الجنسية.
ثانياً: كامل الأهلية.
ثالثاً: أتم الثامنة عشرة من عمره في السنة التي تجري فيها الانتخابات.
رابعاً: مسجلاً في سجل الناخبين وفقاً لأحكام هذا القانون والأنظمة والإجراءات التي تصدرها المفوضية) [41].
أما الشروط الواجب توفرها في المرشح فقد تضمنتها المادة "8" من قانون انتخابات مجلس النواب لسنة 2013، التي نصت على أنه:
(يشترط في المرشح لعضوية مجلس النواب إضافة للشروط الواجب توفرها في الناخب ما يأتي:
- أولاً: أن لا يقل عمره عن (30) ثلاثين سنة عند الترشيح.
- ثانياً: أن لا يكون مشمولا بقانون هيئة المساءلة والعدالة أو أي قانون آخر يحل محله.
- ثالثاً: أن يكون حسن السيرة والسلوك وغير محكوم بجريمة مخلة بالشرف.
- رابعاً: أن يكون حاصلاً على شهادة الإعدادية كحد أدنى أو ما يعادلها.
- خامساً: أن لا يكون قد أثرى بشكل غير مشروع على حساب الوطن أو المال العام.
- سادساً: أن لا يكون من أفراد القوات المسلحة أو المؤسسات الأمنية عند ترشحه)[42].
ونصت المادة (12) من نفس القانون على أن: (يكون الترشيح بطريقة القائمة المفتوحة، ولا يقل عدد المرشحين فيها عن ثلاثة، ويحق للناخب التصويت للقائمة، أو للقائمة وأحد المرشحين فيها، ويجوز الترشيح الفردي[43].
ولقد حدد القانون الحصة النسوية "الكوتا" بنسبة 25%؛ حيث نصت المادة (13) على أنه: (أولاً: يجب أن لا يقل عدد النساء المرشحات عن 25% في القائمة، وأن لا تقل نسبة تمثيل النساء في المجلس عن 25%.
ثانياً: يشترط عند تقديم القائمة أن يراعى تسلسل النساء بنسبة امرأة بعد كل ثلاثة رجال)[44].
أما طريقة توزيع المقاعد فقد استبدل القانون نظام سانت ليغو الذي تم اعتماده في قانون انتخابات مجالس المحافظات والاقضية والنواحي رقم 36 لسنة 2008 المعدل بنظام سانت ليغو المعدل؛ حيث نصت المادة "14" على أن: (يتم توزيع المقاعد على القوائم المتنافسة وفقاً لنظام سانت ليغو المعدل، وكما يأتي:-
أولا: تقسم الأصوات الصحيحة للقوائم المتنافسة على الأعداد التسلسلية (1،3،5،7،9... إلخ) وبعدد المقاعد المخصصة للدائرة الانتخابية.
ثانياً: يراعى في ذلك ضمان حصول المرأة على (25%) على الأقل من عدد المقاعد.
ثالثاً: توزع المقاعد داخل القائمة بإعادة ترتيب تسلسل المرشحين استناداً إلى عدد الأصوات التي حصل عليها كلا منهم. ويكون الفائز الأول من يحصل على أعلى الأصوات وهكذا بالنسبة لبقية المرشحين.
رابعاً: في حالة تساوي أصوات المرشحين لنيل المقعد الأخير، يتم اللجوء إلى القرعة بحضور المرشحين أو ممثلي الكتل المعنية[45].

ونصت المادة "11" على تخصيص كوتا للمكونات الاجتماعية الصغيرة، فنصت المادة على أن: (أولاً: يتكون مجلس النواب من (328) ثلاثمائة وثمانية وعشرون مقعداً يتم توزيع (320) ثلاثمائة وعشرون مقعداً على المحافظات وفقاً لحدودها الإدارية وفقاً للجدول المرفق بالقانون وتكون (8) ثمانية مقاعد منها حصة (كوتا) للمكونات.

ثانياً: تمنح المكونات التالية حصة (كوتا)، تحتسب من المقاعد المخصصة على أن لا يؤثر ذلك على نسبتهم في حالة مشاركتهم في القوائم الوطنية، وكما يأتي:

أ. المكون المسيحي (5) خمسة مقاعد، توزع على محافظات (بغداد ونينوى وكركوك ودهوك واربيل).

ب. المكون الايزيدي (1) مقعد واحد في محافظة نينوى.

ج. المكون الصابئي المندائي (1) مقعد واحد في محافظة بغداد.

د. المكون الشبكي (1) مقعد واحد في محافظة نينوى.

ثالثاً: تكون المقاعد المخصصة من الكوتا للمسيحيين والصابئيين المندائيين ضمن دائرة انتخابية واحدة)[46].

أما المادة "16" فهي إعادة لما تضمنه القانون السابق حيث نصت على: (أولاً: إذا كان المقعد الشاغر يخص امرأة فلا يشترط أن تحل محلها امرأة أخرى، إلا إذا كان ذلك مؤثراً على نسبة تمثيل النساء.

ثانياً: إذا كان المقعد الشاغر يخص كياناً سياسياً أو قائمة استنفذت المرشحين يخصص المقعد إلى مرشح آخر لكيان سياسي، حصل على الحد الأدنى من عدد الأصوات المقررة للحصول على مقعد)[47].

الهوامش

1 - لم يخضع أي منها لأي نقاش مجتمعي عام أو تفويض شعبي عبر استفتاء.

2 - التسمية الملطفة للحاكم الأمريكي بول بريمر، والذي كان وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد مسؤوله المباشر.

3 - د. صالح ياسر وآخرون، تأثير العمليات الانتخابية في عملية التحول الديمقراطي، مؤسسة فريدريش أيبرت، دار الرواد المزدهرة، بغداد، ط 1،2012، ص 76.

4- هن: الدكتورة عقيلة الهاشمي، وبعد اغتيالها تم تعيين السيدة سلامة الخفاجي بدلاً منها، الدكتورة رجاء الخزاعي، السيدة صنكول جابوك.

5- د. بلقيس محمد جواد، دور المرأة العراقية في النظام الديمقراطي، دار الحصاد، سوريا، دمشق، ط1، ص 61.

6- قانون إدارة الدولة العراقية للمرحلة الانتقالية، المادة الثانية :أ ـــ أن عبارة المرحلة الانتقالية تعني المرحلة التي تبدأ من 30 يونيو/ حزيران 2004 حتى تشكيل حكومة عراقية منتخبة بموجب دستور دائم، كما ينص عليه هذا القانون، وذلك في موعد أقصاه 31 ديسمبر/ كانون الأول 2005، إلا في حالة تطبيق المادة 61 من هذا القانون. ب - أن المرحلة الانتقالية تتألف من فترتين: 1 - تبدأ الفترة الأولى بتشكيل حكومة عراقية مؤقتة ذات سيادة كاملة تتولى السلطة في 30 حزيران 2004، وتتألف هذه الحكومة وفق عملية تداول واسعة النطاق بتشاور شرائح المجتمع العراقي. يقوم بها مجلس الحكم وسلطة الائتلاف المؤقتة، ويمكن التشاور مع الأمم المتحدة بذلك. إن هذه الحكومة ستمارس السلطة بموجب هذا القانون، وبضمنها المبادئ والحقوق الأساسية المنصوص عليها في هذا القانون، وملحق يتفق عليه ويصدر قبل بداية المرحلة الانتقالية، ويكون جزءاً لا يتجزأ من هذا القانون. 2 - تبدأ الفترة الثانية بعد تأليف الحكومة العراقية الانتقالية، والتي تتم بعد إجراء الانتخابات للجمعية الوطنية، كما هو منصوص عليه في هذا القانون، على ألا تتأخر هذه الانتخابات إن أمكن عن 31 كانون الأول 2004، وعلى كل حال قبل 31 كانون الثاني 2005. تنتهي المرحلة الثانية عند تأليف حكومة عراقية وفقاً لدستور دائم.

7- قانون إدارة الدولة العراقية للمرحلة الانتقالية المادة الثانية .

8- د. بلقيس محمد جواد، دور المرأة العراقية في النظام الديمقراطي، مصدر سابق، ص 55، 56.

9- قانون إدارة الدولة للمرحلة الانتقالية، المادة الثانية عشرة.

10- قانون ادارة الدولة للمرحلة الإنتقالية، المادة العشرون الفقرة أ.
11- قانون إدارة الدولة للمرحلة الانتقالية، المادة العشرون، الفقرة ب.
12- قانون إدارة الدولة للمرحلة الانتقالية، المادة الثلاثون/ ج.
13- ملحق قانون ادارة الدولة العراقية للمرحلة الإنتقالية.
14- د. رغد نصيف حاسم السراجي، المشاركة السياسية الحزبية للمرأة العراقية بعد العام 2003، دار الكتب العلمية للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد، ط1، 2012، ص115، نقلا عن المؤتمر الوطني العراقي 15 – 18 آب 2004، أبحاث، وثائق، مختارات، دائرة البحوث، مجلس النواب العراقي، آذار 2008.
15- أمر سلطة الائتلاف المؤقتة رقم 96 في 15/6/2004، القسم الثاني، تعريف المصطلحات.
16- أمر سلطة الائتلاف المؤقتة رقم 96 في 15/6/2004، القسم الرابع، الفقرة 3.
17- نشر في جريدة الوقائع العراقية بالعدد 4012 في 28/12/2005.
18- د. فالح عبد الجبار، مأزق الدستور الدائم، متضادات الدستور، معهد الدراسات الإستراتيجية، لبنان، بيروت، ط1، 2006، ص 59.
19- د. فالح عبد الجبار، مأزق الدستور، متضادات الدستور الدائم، مصدر سابق، ص 91 - 95.
20- الدستور العراقي لسنة 2005، المادة 14.
21- الدستور العراقي لسنة 2005، المادة 20.
22- الدستور العراقي لسنة 2005، المادة 48/ رابعاً.
23- الدستور العراقي لسنة 2005، المادة 14.
24- الدستور العراقي لسنة 2005، المادة 20.
25- الدستور العراقي لسنة 2005، المادة 49 الفقرة، رابعاً.
26- الدستور العراقي لسنة 2005، المادة 49/ ثالثاً.
27- قانون الانتخابات رقم 16 لسنة 2005، المادة 3 المنشور في جريدة الوقائع العراقية العدد 4010 في 23 /11 /2005.
28- قانون الانتخابات رقم 16 لسنة 2005، المادة 6.
29- قانون الانتخابات رقم 16 لسنة 2005، المادة 7.
30- قانون الانتخابات رقم 16 لسنة 2005، المادة 11.
31- قانون الإنتخابات رقم 16 لسنة 2005، المادة 14.
32- د. نهلة النداوي، الأداء البرلماني للمرأة العراقية، مطبعة الطباع، بغداد، ط1، 2010، ص 14.
33- الدستور العراقي لسنة 2004، المادة 49.
34- قانون استبدال أعضاء مجلس النواب رقم 6 لسنة 2006 ، المادة الثانية، المنشور في جريدة الوقائع العراقية العدد 4024 في 19 /6 /2006.
35- قانون استبدال أعضاء الجمعية الوطنية رقم 3 لسنة 2005، المادة الأولى الفقرة ثانياَ.
36- الدستور العراقي لسنة 2005 المادة 16 (تكافؤ الفرص حق مكفول لجميع العراقيين، وتكفل الدولة اتخاذ الإجراءات اللازمة لتحقيق ذلك).
37- قانون الانتخابات رقم 26 لسنة 2009، المادة أولاً.
38- قانون انتخابات مجلس النواب العراقي لسنة 2013، الموقع الرسمي لمجلس النواب العراقي.
39- قانون انتخابات مجلس النواب العراقي، لسنة 2013، المادة 47(يلغى قانون انتخابات مجلس النواب رقم (16) لسنة 2005 وتعديلاته).
40- قانون انتخابات مجلس النواب العراقي لسنة 2013، المادة 4، الموقع الرسمي لمجلس النواب العراقي.
41- قانون انتخابات مجلس النواب العراقي،لسنة 2013 ، المادة 5، الموقع الرسمي لمجلس النواب العراقي.
42- قانون انتخابات مجلس النواب العراقي لسنة 2013، المادة 8.
43- القانون السابق، المادة 12.
44- القانون السابق، المادة 13.
45- القانون السابق، المادة 14.
46- القانون السابق ، المادة 11.
47- القانون السابق، المادة 16.

أسلحة الحرب والرقابة الدولية القانونية

د. كاظم المقدادي

أكاديمي عراقي مقيم في السويد. عضو التحالف الدولي لحظر أسلحة اليورانيوم (ICBUW). باحث بالأضرار البيولوجية لإشعاعات أسلحة اليورانيوم. نشر في مجلات أجنبية وعربية وعراقية عشرات المقالات والأوراق البحثية العلمية، سلط فيها الضوء على طبيعة الأسلحة الحديثة وأضرارها. في هذا المقال يسلط د. المقدادي الضوء على مهمة إستعراض الأسلحة الفتاكة وضرورة مراجعتها قانونياً، إمتثالا للإلتزامات الدولية.

تمهيد

تبرز إشكاليتا الحرب وأسلحة الحرب الى الواجهة من جديد في أيامنا هذه مع تصاعد الخوف من نشوب حرب دولية جديدة، وإحتمال إستخدام الترسانة النووية، وأسلحة أخرى غير تقليدية، حديثة جداً، سُربت معلومات عنها، وتباهى أصحابها بأنها ستكون أكثر تدميراً وأوسع فتكاً. وقد تزامن ذلك مع تصاعد التوترات الدولية والتدخلات الخارجية العسكرية غير المشروعة، الى جانب تهديد الخصوم، كل للآخر، وتوعدهم بضربة عسكرية لم يسبق لها مثيل، وتجريب أسلحة جديدة من قبل الولايات المتحدة وروسيا وكوريا الشمالية وإيران وإسرائيل، والإعلان عن أسلحة جديدة وكأن العالم يعيش مرحلة سباق تسلح جديد.

وكل هذا، ليس بعيداً، بالتأكيد، عن مخططات ومشاريع أعداء السلام من تجار الحروب وشركات الأسلحة وصقور التجمع الصناعي العسكري، الذين لم تشف غليلهم، كما يبدو، ما تكبدته البشرية من خسائر جسيمة وما عاشه الناجون من الحرب العالمية الثانية، خصوصاً في هيروشيما وناغاواكي اليابانيتين، وما يعانيه حالياً مئات الألوف من ضحايا الحروب التي جرت خلال الـ 26 عاماً المنصرمة في العديد من الدول، من فظائع وآلام رهيبة. ولذا يواصلون إعداد وتطوير وإنتاج أسلحة ومعدات حربية جديدة للحروب القادمة، رائدهم الوحيد هو جني المزيد من المليارات، غير مبالين بمصير البشرية.

الحرب والأسلحة وضحاياها

الحرب كنزاع مسلح بين دولتين أو عدة دول، تخوضه جيوشها النظامية، مستخدمة كل الوسائل والأساليب المسلحة الهادفة لإلحاق الضرر بقدرات الطرف الآخر العسكرية والبشرية والمادية.

لقد قيل الكثير عن الحرب. فهي من وجهة نظر علم البيئة تعتبر كارثة غير طبيعية، أي أنها من صنع الإنسان. وقال عنها الاقتصادي

الألماني الأمريكي جورغن برور (مساهم بارز في مجال إقتصاديات السلام): ''ان الحرب شرّ معروف، تقتل النّاس، تدمّر البنية التّحتيّة الثّمينة المطلوبة لجودة الحياة البشريّة، وتقتلع السّكّان المدنيّين''. ووصفها السياسي البريطاني المخضرم وليام إيوارت غلادستون (1809 - 1898) بأنها ''مأساة يستعمل فيها الإنسان أفضل ما لديه ليلحق بنفسه أسوأ ما يصيبه''[1].

عملياً، تعني الحرب، كخيار، بالدرجة الأولى، التدمير والقتل.. تدمير الثروة البشرية والأنظمة البيئية والموارد الطبيعية الداعمة للحياة. بيد ان التدمير، على أهميته الكبيرة لكسب الحرب، لا يُقاس غالباً بفداحة الخسائر البشرية وانهيار الحياة الاجتماعية، الناجمة عن انفجارات الصواريخ والقنابل وما تخلفه.

وإرتباطاً بالحرب ووحشيتها، فان السلاح يعدُ في المفهوم الحربي اداة لتدمير العدو ولالحاق أكبر ضرر بأهدافه. وتصنف الاسلحة بحسب المادة المستعملة في تصنيعها والهادفة للتدمير والفناء. ولم تعد أسلحة الحرب في وقتنا الراهن أسلحة تقليدية وغير تقليدية فقط، وإنما تستخدم الصناعة الحربية في آلة الحرب الحديثة أحدث وسائل تكنولوجيا الموت والخراب والدمار. وتحتل أسلحة الدمار الشامل فيها (النووية والكيميائية والبيولوجية) موقعاً متصدراً، وهي أسلحة رهيبة وشنيعة خلقت كوارث ومآسي لا مثيل لها. وأضيف لها خلال العقود الثلاثة الأخيرة نوع جديد من الاسلحة، تبين فيما بعد أنها أسلحة مشعة، هي ذخائر اليورانيوم المنضب، التي إستخدمتها أمريكا وحلفاؤها، بعد ان جربوها لأول مرة في ميادين القتال ''الحية'' عام 1991، في الحرب على العراق، ومن ثم على الصومال ويوغوسلافيا (في البوسنة وكوسوفو وصربيا) وأفغانستان والأراضي الفلسطينية المحتلة ولبنان والعراق مجدداً، وعلى ليبيا وسوريا. وهي لا تختلف كثيراً عن أسلحة الدمار الشامل، المعترف بها دولياً، من حيث شدة التدمير والفتك، وقد سببت كوارث بيئية وصحية رهيبة، لن تقتصر على الجيل الحالي وإنما ستطول الأجيال القادمة.

بواعث الخوف الراهن

للخوف من نشوب نزاع دولي جديد بواعث موضوعية؛ فالعالم يتحول بخطوات ثابتة من السلام إلى الحروب، التي كلفت الاقتصاد العالمي في عام 2014 نحو 14.3 ترليون دولار، وهو ما يعدل مجموع الناتج لكل من البرازيل وكندا وفرنسا وألمانيا وأسبانيا والمملكة المتحدة - بحسب صحيفة ''الغارديان'' البريطانية، بالاستناد لما نشره (مؤشر السلام العالمي). ووفقا للمؤشر فإن أكثر من ترليون دولار انفقت على الإنفاق العسكري[2].

الى هذا، طلب الرئيس الأمريكي ترامب زيادات كبيرة في الإنفاق العسكري، ووجه الوكالات الفيدرالية لجمع ميزانية للعام المالي الجاري تشمل زيادات كبيرة في إنفاق البنتاغون، وقطاع كبير في الوكالات المحلية التي تستطيع أن تفي بوعوده بترك الضمان الاجتماعي والرعاية الصحية وحدهما - وفقاً لصحيفة ''نيويورك تايمز''، في 22 شباط 2017 بالإستناد الى مسؤولين أمريكيين رفيعي المستوى.

ولم يتوقف الأمر على الولايات المتحدة، وإنما إنخرطت دول عظمى أخرى في سعي الرئيس ترامب الى استرداد ديون وهمية. وأبدت حكومات رأس المال الأوربية استعدادها لتخصيص 2 في المائة من الناتج الاجمالي المحلي لتمويل العسكرة والحرب. وقد كانت ركائز قمة حلف الناتو ثلاث - كما لخصها الخبير في الشؤون الدولية رشيد غويلب: مزيدا من المال، مزيدا من الاسلحة الحديثة، ومزيدا من الحروب. مؤكداً ان القارة الأوربية ومعها العالم مقبلان على موجة جديدة من التسلح؛ فألمانيا سترفع تخصيصاتها من 37 الى 69 مليار يورو سنويا، واوربا سترتفع النفقات من 200 الى اكثر من 300 مليار يورو سنويا. وهذا يعني ان على اوربا التي تواجه الأزمة المالية والبطالة ان تدفع ثمن التدخلات غير المجدية والحروب. وبالمقابل ستحتفل كبريات شركات السلاح بنتائج قمة الناتو، وسيتم تقليص النفقات الخاصة بقطاعات التعليم والصحة وحماية البيئة والبحث العلمي[3].

وعلى صعيد السلاح، فان الدول النووية تواصل عملياً "تحديث ترسانتها، بدلا من نزعها، رغم الرغبة المعلنة للمجتمع الدولي في نزع هذا السلاح"- وفقاً لمعهد ستوكهولم الدولي لأبحاث السلام (SIPRI)، الذي أشار في بيان له إلى ارتفاع عدد الرؤوس النووية وبطء وتيرة نزعها. وقال الباحث في المعهد شانون كايل إنه "رغم التصريحات الدولية المتكررة بشأن أولوية نزع السلاح النووي، فإن برامج التحديث الجارية في الدول التي تمتلك أسلحة نووية تدفع إلى الاعتقاد بأن أيا منها لن يتخلى عن ترسانته النووية في المستقبل القريب". وقال SIPRI إن عدد الرؤوس النووية في العالم وصل في مطلع العام 2015 إلى 15850 رأسا نووية، بينها 4300 جاهزة للاستخدام، بينما في العام 2010 كان عددها 22600 رأس، بينها 7650 رأسا جاهزة للاستخدام. وأضاف أن وتيرة نزع الأسلحة النووية في العام 2015 وعلى غرار العام 2014 ظلت بطيئة بالمقارنة مع ما كانت عليه في العقد الفائت. وتقع مسؤولية خفض عدد الرؤوس النووية في العالم بالدرجة الأولى على عاتقي الولايات المتحدة وروسيا لكونهما تمتلكان 7260 و7500 رأس على التوالي، أي أن حصتهما مجتمعتين توازي 90% من الترسانة النووية في العالم بأسره. وأوضح كايل، أنه مع ذلك فإن واشنطن وموسكو منخرطتان في "برامج تحديث ضخمة ومكلفة تستهدف الأنظمة الناقلة والرؤوس النووية وإنتاجها". وأن ترسانات بقية الدول التي تمتلك أسلحة نووية لا تنفك تتزايد، وتجري إسرائيل وكوريا الشمالية اختبارات على صواريخ بالستية جديدة بعيدة المدى[4].

ويتواصل عدم الالتزام بالاتفاقيات الدولية النافذة، التي تحظر استخدام وإنتاج ونقل وتخزين أسلحة الدمار الشامل، وبالفترات الزمنية المحددة، بموافقة الدول المعنية، للتخلص من الترسانة النووية. ولم توافق الدول المتنفذة في عالم اليوم على الاتفاقية الدولية لحظر الأسلحة النووية (6/10)، ولا على اتفاقية حظر استخدام الأسلحة الإشعاعية المصنعة من اليورانيوم المنضب (7/7)، اللتين تبنتهما الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها الحادية والسبعين الجارية.

ويتزامن هذا مع تصاعد التهديدات المتبادلة

بين الولايات المتحدة وكوريا الشمالية باستخدام الردع النووي، وتهديد الولايات المتحدة بإلغاء الإتفاق النووي مع إيران وفرض المزيد من العقوبات ضدها.

ولم تخف حدة التوتر في العلاقات بين الولايات المتحدة وروسيا. وبشأن الأسلحة، أكد قائد روسي رفيع المستوى ان ''السلاح النووي لروسيا لا يوجد خارج أراضيها''، وأعلن وزير خارجية روسيا سيرغي لافروف في مؤتمر حول الحد من انتشار السلاح، انعقد مؤخراً بالعاصمة الروسية موسكو: ''ان الدرع الأمريكي المضاد للصواريخ الذي تقيمه واشنطن على أراض أجنبية يمثل مشكلة رئيسية لروسيا والصين، ولا بد من إعادة الأسلحة النووية الأمريكية المنتشرة في أوروبا للولايات المتحدة''[5]. واعتبرت وزارة الدفاع الروسية: ''أن الولايات المتحدة، من خلال تعزيز منظومتها للدفاع الصاروخي، تحاول الحصول على التفوق الاستراتيجي لتهيئة الظروف لاستخدام السلاح النووي بأدنى حد من النفقات. وهذا قد يؤدي إلى عواقب خطيرة في مجال الأمن''[6]. وعبرت روسيا عن قلقها البالغ إزاء نية الولايات المتحدة الأمريكية تحديث أسلحتها النووية، حيث قال الخبير الروسي إيغور روستوفتسيف: ''قريبا قد نصبح جميعا شهودا على مواجهات عسكرية لا سابق لها، والتي قد تكون الأخيرة في تاريخ البشرية''[7].

وبشأن تحديث الأسلحة الأمريكية، كان البنتاغون قد كشف أنه يخطط لإنفاق 108 مليارات دولار خلال السنوات الخمس المقبلة على صيانة وتحديث القدرات النووية، بينما أشار معهد استوكهولم الدولي لأبحاث السلام إلى، أن الولايات المتحدة تنوي إنفاق 348 مليار دولار بين عامي 2015 و2024، في المحافظة على أسلحتها النووية وتحديثها[8]. ومؤخراً، تحدث الجنرال دافيد غولدفين - رئيس أركان القوات الجوية الأمريكية - عن الخطط الجديدة لبلاده، في محاولة لردع الطموح النووي الكوري الشمالي، مشيراً الى أنه من المقرر نشر طائرات ''بي 52'' في قاعدة ''باركسديل'' الجوية بولاية لويزيانا، على أن تكون محملة بالأسلحة النووية وجاهزة للانطلاق في أي لحظة. وأتت هذه الخطوة بعد لقاء الرئيس الأميركي مع كبار القادة العسكريين، وتحدث ترامب وقتها عن ''الهدوء الذي يسبق العاصفة''[9].

من جهود نزع السلاح النووي

سعت الأمم المتحدة وتسعى حثيثا إلى خلق عالم أكثر أمنا للجميع وإحلال السلام والأمن في عالم خال من الأسلحة النووية، اقتناعا منها بأن نزع السلاح النووي والإزالة الكاملة للأسلحة النووية هما الضمانة المطلقة الوحيدة التي تكفل عدم استخدام الأسلحة النووية أو التهديد باستخدامها. وقد أكد الأمين العام السابق للأمم المتحدة بان كي مون، في رسالته بمناسبة اليوم الدولي للإزالة الكاملة للأسلحة النووية لعام 2016، ان ''نزع السلاح النووي يمثل أحد المبادئ التأسيسية للأمم المتحدة''. ولفت الأنتباه: ''إذا نجوب الأفق العالمي بأنظارنا، نجد أنفسنا في مواجهة أخطار نووية متنامية. وقد وصلت عملية نزع السلاح النووي المتعددة الأطراف إلى طريق مسدود. ورُصدت عشرات المليارات من الدولارات للاحتفاظ

بمنظومات الأسلحة النووية وتطويرها. ومن المحزن أن العقيدة الأمنية للعديد من البلدان ما زالت تشمل الردع النووي. غير أن التطورات الأخيرة قد بيّنت أن الأسلحة النووية لا تضمن السلام والأمن. بل لقد أصبح تطوير هذه الأسلحة وحيازتها مصدرا رئيسيا للتوترات الدولية".

حيال مخاطر السلاح النووي، ومن أجل تحقيق عالم خال منه، أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة يوم 26 أيلول يوماً دولياً للإزالة الكاملة للأسلحة النووية. واعتبرته بمثابة فرصة متاحة للمجتمع الدولي ليعيد توكيد التزامه بنزع السلاح النووي على الصعيد العالمي بوصفه أولوية عليا. وهو يتيح كذلك فرصة لتثقيف الجمهور وقادته بالفوائد الحقيقية التي ستعود من القضاء على هذه الأسلحة، والتكاليف الاجتماعية والاقتصادية لبقائها.

واختارت الأمم المتحدة افتتاح أعمالها لعام 2017، بالتركيز على منع نشوب النزاعات المسلحة، وبناء السلام الدائم، بعد أن شهدت الأعوام الأخيرة ارتفاعاً في أعداد ضحايا الحروب من المدنيين القتلى والجرحى، وأعداد المشردين والمهجرين ومعاناتهم المريرة، إضافة الى تدمير المدن والأرياف والبنى التحتية. ونظم مجلس الأمن الدولي، بمبادرة من السويد، إبان توليها لرئاسته في كانون الثاني 2017، نقاشاً مفتوحاً على المستوى الوزاري بشأن "منع النزاعات ومن أجل السلام المستدام". وأبدى الأمين العام للأمم المتحدة أنطونيو غوتيريس تصميمه على جعل منع نشوب النزاعات أولوية خلال فترة ولايته، مؤكداً على أهمية الوقاية لتجنب نشوب النزاعات، رغم الصعوبات الجمة التي سيواجهها.

ودعماً للجهود الدولية المبذولة للتخلص من الأسلحة النووية منحت جائزة نوبل للسلام للعام 2017 للحملة الدولية لمكافحة الأسلحة النووية International Campaign to Abolish Nuclear Weapons (ICAN) تكريماً لجهود المنظمة منذ تأسيسها عام 2007 للتخلص من هذه الأسلحة التي تشكل محور توترات دولية شديدة للإدارة الأمريكية مع إيران وكوريا الشمالية وغيرها. وفي هذا المناسبة، أكدت رئيسة لجنة نوبل النرويجية بيريت رايس أندرسون: "نعيش في عالم أصبح فيه خطر استخدام الأسلحة النووية أكبر بكثير مما كان عليه منذ فترة طويلة". وأضافت أن "بعض الدول تطور ترسانتها النووية والخطر فعلي في أن يتزود عدد أكبر من الدول بالسلاح النووي".

وقالت لجنة نوبل للسلام إن "جائزة نوبل للسلام لهذا العام هي أيضاً نداء إلى تلك الدول للشروع في مفاوضات جدية بهدف إزالة الأسلحة النووية، البالغ عددها أكثر من 15 ألف رأس نووي في العالم، بصورة تدريجية ومتوازنة وتحت مراقبة دقيقة"[10].

من جهته، أعلن معهد ستوكهولم الدولي لأبحاث السلام (SIPRI) بأنه سيستضيف المؤتمر الدوري القادم للاتحاد الأوروبي لمنع الانتشار ونزع السلاح (EU Non-Proliferation and Disarmament)، في مدينة بروكسل، خلال أيام 11 – 13 كانون الأول 2017، بهدف تشجيع النقاش داخل المجتمع المدني، وخاصة بين الأكاديميين والخبراء والباحثين، بشأن تدابير مكافحة انتشار أسلحة الدمار الشامل ونظم

إيصالها. وستشمل أعمال المؤتمر المسائل المتصلة بالأسلحة التقليدية[11].

استعراض الأسلحة الجديدة

أسندت الأمم المتحدة للجنة الدولية للصليب الأحمر(ICRC) مهمة (حماية ومساعدة ضحايا النزاع المسلح من خلال اتفاقيات جنيف الأربع لعام 1949 وبروتوكوليها الإضافيين لعام 1977)، بوصفها منظمة دولية غير حكومية، مستقلة وغير متحيزة ومحايدة، وقد أولت المنظمة إهتماماً كبيراً بقضايا الحروب والنزاعات المسلحة وتداعياتها على المدنيين، وأصبحت بحق ضامنة لاتفاقيات جنيف.

ضمن هذه المهمة، أكدت ICRC على ضرورة مراقبة إستخدام الأسلحة وضرورة المراجعة القانونية للأسلحة الجديدة، منطلقة من ان قواعد القانون الدولي الإنساني تضع قيوداً على أطراف النزاعات المسلحة في اختيارها للأسلحة ووسائل الحرب وأساليبها التي تستخدمها. وتلزم الدول، عند تطويرها أو اقتنائها لأسلحة جديدة، التحقق من أنها تمتثل بذلك لتلك القواعد، منبهة الى ان التقدم الحالي الذي تشهده التكنولوجيات الجديدة يملي، من المهم جدا، مواصلة تقييم مشروعية الأسلحة الجديدة. ويكمن المبدأ العام التوجيهي في أن أطراف النزاعات المسلحة مقيّدة في اختيارها للأسلحة وكيفية استخدامها. وتشمل هذه القيود حظر الأسلحة التي تتسبب في إصابات أو آلام لا مبرر لها، أو الأسلحة غير القادرة على التمييز بين المدنيين أو الأعيان المدنية والأهداف العسكرية. وهذه قواعد أساسية من قواعد القانون الدولي الإنساني. وعلاوة على ذلك، هناك عدد من الاتفاقيات التي تنظم استخدام أسلحة معينة أو تحظرها. ويشمل ذلك حظر الأسلحة البيولوجية والكيميائية، والألغام المضادة للأفراد وأسلحة الليزر المسببة للعمى.

وذكّرت ICRC الدول مراراً بان المادة (36) من البروتوكول الإضافي الأول إلى اتفاقيات جنيف لعام 1949، المعتمدة في عام 1977، تنص على أن تلتزم كل دولة من الدول الأطراف بالتحقق، عند دراسة أو تطوير أو اقتناء أو اعتماد أية أسلحة جديدة أو وسائل أو أساليب جديدة للحرب، من أنها تمتثل لقواعد القانون الدولي الإنساني. وللدول كافة، سواء أكانت طرفا في البروتوكول الإضافي الأول أم لا، مصلحة في تقييم مشروعية الأسلحة الجديدة. ومن شأن عمليات التقييم هذه أن تسهم في ضمان قدرة القوات المسلحة التابعة للدولة على تسيير العمليات العدائية التي تنفذها وفقا للالتزامات الدولية. ومن هذا المنطلق إعتبرت مهمة إجراء مراجعة قانونية للأسلحة الجديدة تكتسب أهمية خاصة في ضوء التطور السريع الذي تشهده تكنولوجيا الأسلحة.

وكانت الدول الأطراف في اتفاقيات جنيف قد أعلنت في المؤتمر الدولي الثامن والعشرين للصليب الأحمر والهلال الأحمر (2-6 كانون الأول 2003)، أنه "في ضوء التطور السريع لتكنولوجيا الأسلحة وسعيا إلى حماية المدنيين من الآثار العشوائية للأسلحة، والمقاتلين من المعاناة التي لا مبرر لها ومن الأسلحة المحظورة، يتعين أن تخضع جميع الأسلحة الجديدة ووسائل الحرب

وأساليبها الجديدة لمراجعة صارمة ومتعددة التخصصات".

ولوجود قلة من الدول التي وضعت لها آليات استعراض رسمية للأسلحة الجديدة، وحرصا منها على مساعدة البلدان، وضعت ICRC في عام 2006، دليلا لاستعراض مشروعية الأسلحة الجديدة ووسائل الحرب وأساليبها الجديدة [12]، أعدته بالتشاور مع خبراء عسكريين وخبراء في القانون الدولي من 10 بلدان.

ومع هذا، ترى ICRC بان البروتوكول الإضافي الأول لا يحدد كيف ينبغي لكل دولة طرف أن تتحقق من مشروعية استخدام الأسلحة الجديدة ووسائل الحرب وأساليبها الجديدة عند دراستها أو تطويرها أو اقتنائها أو اعتمادها. ويعود لكل دولة إنشاء آلية مراجعة خاصة بها. إلا أن الالتزام ينطوي بوضوح على ضرورة إخضاع تطوير أو اقتناء جميع الأسلحة لإجراء دائم يكون إلزاميا. والدليل نفسه، الذي أعدته، لا يقدم عرضا نهائيا عن كيفية استعراض الأسلحة الجديدة ووسائل الحرب وأساليبها الجديدة. لكنه يعكس تفسير ICRC للمتطلبات القانونية ذات الصلة، ويعرض تجربة وممارسات الدول التي وضعت حتى الآن إجراءات لاستعراض الأسلحة، اَملة أن يؤدي نشر الدليل إلى زيادة ملموسة في عدد الدول التي تضع آليات استعراض وطنية [13].

وفق منطوق المادة (36)

في عام 2003 نشرت المجلة الدولية لـ ICRC بحثاً للفريق جستن ماكليلاند [14] بعنوان: "استعراض الأسلحة وفقا للمادة (36) من البروتوكول الإضافي الأول لاتفاقيات جنيف"، تناول فيه عملية دراسة سلاح جديد أو وسيلة أو أسلوب جديد للحرب، أو تطويرها أو اقتنائها أو اعتمادها، وفقا للمادة (36) من البروتوكول الأول لعام 1977 الإضافي إلى اتفاقيات جنيف لعام 1949[15]، ووصف الطريقة التي تجرى بها عملية المراجعة القانونية للأسلحة في الواقع العملي، بما في ذلك فحص الأدلة المتاحة التي تقوم عليها عمليات التقييم القانوني. وأجاب على عدة أسئلة مهمة في هذا المضمار، ومنها: ما الذي يجب مراجعته؟:

"تتطلب المادة 36 من البروتوكول الأول مراجعة الأسلحة ووسائل وأساليب الحرب الجديدة"، مشيراً الى عاملين يحددان ما إذا كان السلاح جديدا أم لا، هما:

الأول - بالرجوع إلى الدولة التي تنوي استخدامه، فواقع أن سلاحا ما كان موجودا في الخدمة في دولة معينة لبعض الوقت قبل بيعه لدولة أخرى لا يمنع الدولة المتلقية من اعتبار أن السلاح "جديد" وفقا لنص المادة (36).

الثاني - بالرجوع إلى تاريخ دخول السلاح الخدمة، فعند تصديق الدولة على البروتوكول الإضافي الأول، لا يمكن اعتبار الأسلحة الموجودة بالفعل في الخدمة "جديدة" في إطار نص المادة (36). ولكن ربما يكون من قبيل الحيطة للدولة أن تجري مراجعة لهذه الأسلحة التي تخضع للفحص الدولي الدقيق حتى تستطيع الدفاع عن امتلاكها واستخدامها لها بشكل أكثر قوة، وإن كانت المادة (36) لا تستوجب ذلك.

وتناول ماكليلاند معايير المراجعة: عند دراسة مدى توافق الأسلحة ووسائل

وأساليب الحرب مع الالتزامات القانونية للدول بموجب القانون الدولي، لا بد من وضع عدة مجالات في الاعتبار. وبدايةً، لا بد من الإقرار بالتوازن الواجب تأمينه بين الضرورة العسكرية من جانب، ومستوى المعاناة من جانب آخر، وهو ما يشار إليه غالبا بمبدأ التناسب[16]، ويتصدر هذا التوازن الأهمية عند دراسة المعايير، لأنه يؤثر على نوع الأدلة المطلوبة لإجراء المراجعة القانونية. وحظر استخدام الأسلحة ذات الطبيعة التي تسبب أذى مفرطا أو معاناة لا مبرر لها[17]. فان مبدأ عدم جواز استخدام المقاتل لأسلحة ذات طبيعة تتسبب في معاناة لا مبرر لها أو أذى مفرط راسخ رسوخا جيدا في القانون الدولي[18].

وأكد على ضرورة إعادة النظر في المراجعة، موضحاً: نظرا لأن عملية اقتناء السلاح تقاس عادة بالسنين وليس بالشهور، فسوف يلزم إعادة النظر في أية مراجعة قانونية تمت في مراحل مبكرة من العملية. والأمر ليس أن الوضع القانوني ربما يتغير بمرور الزمن وحسب [19]، بل إن مشروعية السلاح نفسه ربما تتغير تغيرا كبيرا. لذلك فالمراجعة تتطلب التكرار بطبيعتها. وسوف تكون المراجعة القانونية مطلوبة في المراحل الحاسمة من عملية اتخاذ القرار باقتناء السلاح، ولكن ذلك لا يحول دون طلب المشورة القانونية الإضافية في فترات الانتقال. وما دام السلاح في الخدمة، تعد المراجعات القانونية ملائمة. وربما يدفع حدوث تغيير في القانون إلى إجراء مثل هذه المراجعات. وحيث أن نظم بعض الأسلحة تظل في الخدمة لمدد تصل إلى 15 أو 20 عاما، فربما يؤثر تغير الالتزامات القانونية بموجب القانون الدولي التعاهدي أو العرفي في بعض النظم القديمة. لذلك فلا بد من إنشاء مراقبة قانونية مستمرة.

وختم الفريق ماكليلاند بحثه: "تعد المادة (36) واحدة من بضع آليات في القانون الدولي الإنساني تسمح بالتقييم الدوري للمعدات العسكرية فيما يتعلق بالنظام القانوني الذي تعمل في إطاره. ومن الأفضل أن يُجرى هذا التقييم بأسلوب شديد الدقة، وتختبر فيه جميع الأدلة المتوفرة من مصادر مختلفة. وتقف الأسباب الأمنية دون أن تتسم هذه العملية الدقيقة بالشفافية التامة. ومع هذا، فإن أثرها يستشعر تماما بالنسبة للدول التي تجريها، ويجب أن يكون مقياسا على نجاحها. وليس الرد على الحاجة إلى توسيع نطاق تطبيق المراجعة القانونية بإنشاء هيئة دولية لإجراء هذه المراجعات أو مراقبتها، وإنما بالالتزام الصارم من الدول بالالتزامات التي تفرضها عليها المادة (36) من البروتوكول الإضافي الأول لاتفاقيات جنيف"[20].

أثر التكنولوجيات الناشئة على التسلح

لمعهد ستوكهولم الدولي لأبحاث السلام (SIPRI) برنامج بحثي مخصص لأثر التكنولوجيات الناشئة على التسلح ومراقبة الأسلحة ونزع السلاح، التي هي من اختصاصاته، كمعهد بحثي دولي مستقل، متخصص بالبحوث والأنشطة المكرسة للسلام والأمن الدوليين. ضمن هذا البرنامج استضاف المعهد، بالتعاون مع وزارة الخارجية السويدية ووزارة الخارجية

الهولندية ووزارة الدفاع الوطني الكندية، في العشرين والحادي والعشرين من أيلول 2017، مؤتمراً دولياً، كُرسه لمراجعة المادة (36) من البروتوكول الإضافي الأول لعام 1977 الملحق باتفاقيات جنيف لعام 1949، لتسليط الضوء على التحديات التي تفرضها التكنولوجيات الناشئة على المراجعة القانونية للأسلحة ووسائل وأساليب الحرب [21]. شارك فيه 75 خبيراً حكومياً ومن المجتمع المدني، مثّل الحكوميين خبراء ممارسون بالمراجعة القانونية ومستشارون قانونيون في وزارات الدفاع ودبلوماسيون بارزون. ومثّل المجتمع المدني خبراء من منظمات غير حكومية تعمل في مجال مراقبة الأسلحة والقضايا الإنسانية. وركز المؤتمر على ثلاثة مجالات رئيسية للتكنولوجيا، هي:

(أ) التكنولوجيات السيبرانية Cyber tec-nologies ؛

(ب) الذكاء الاصطناعي والروبوتات art-ficial intelligence and robotics ؛

(ج) تكنولوجيات تعزيز دور الإنسان h-man enhancement technologies.

وقد هدف المؤتمر الى دعم زيادة التعاون وتبادل المعلومات من خلال إتاحة الفرصة أمام الممارسين وخبراء المجتمع المدني للتعرف إلى التكنولوجيات الجديدة. ومناقشة المسائل التقنية والقانونية والتشغيلية التي تثيرها التكنولوجيات الناشئة في سياق مراجعات المادة (36). وتحديد حلول ملموسة للمساعدة على تعزيز الامتثال لمتطلبات المادة (36) من البروتوكول الإضافي الأول، التي تفرض التزاما عمليا على الدول بمنع استخدام الأسلحة ووسائل وأساليب الحرب التي تنتهك القانون الدولي، من خلال استخدام آلية للمراجعة. ويشار إلى هذا النوع من الآليات عادة بـ ''إستعراض الأسلحة'' أو ''المراجعة القانونية'' أو ''مراجعة المادة (36)''، لتقييم شرعية شراء جميع الأسلحة الجديدة. وينبغي للقوانين، شأنها في ذلك شأن أي سلاح آخر، أن تمر بهذه العملية. ولذلك، فإن إستعراض الأسلحة دورياً ضروري لضمان تطوير نظم الأسلحة الذاتية وإنتاجها وخزنها واستخدامها، امتثالا للقانون الدولي.

وكان SIPRI قد أعد في عام 2015 تقريراً بعنوان: ''تنفيذ عمليات استعراض الأسلحة بموجب المادة (36) في ضوء زيادة الذاتية (autonomy) في نظم الأسلحة''، أوجز فيه التحديات المتعلقة بالمراجعة القانونية للأسلحة التي تحتوي على مزايا ذاتية. ودعا فيه إلى زيادة التعاون وتبادل المعلومات بين الدول. وهدف التقرير إلى إثراء المناقشات الجارية بشأن نظم الأسلحة الذاتية الفتاكة (LAWS) بموجب الاتفاقية المتعلقة بأسلحة تقليدية معينة[22] (CCW)، وذلك إستكمالا للمحادثات غير الرسمية التي جرت قبل صدور التقرير بعامين حول القوانين في إطار اتفاقية الأسلحة التقليدية.

في نفس العام، كانت قد أخفقت الدول المجتمعة في جنيف في مؤتمر رئيسي لمناقشة قواعد الحرب، في تأييد اقتراح يهدف إلى تعزيز الامتثال لاتفاقيات جنيف. وكانت سويسرا واللجنة الدولية للصليب الأحمر قد اقترحتا عقد اجتماع سنوي للدول بغية تبادل الخبرات بشأن التحديات وأفضل الممارسات، والقيام بشكل طوعي بتقديم

تقارير عن الامتثال. وقد أعربت ICRC مراراً، عن قلقها إزاء الانتهاكات المتكررة والفجة لهذه الاتفاقيات. وفي هذا الصدد، قال بيتر ماورير، رئيس اللجنة الدولية للصليب الأحمر في بيان له: "يتعرض القانون الدولي الإنساني للانتهاك كل يوم تقريباً، وفي كل صراع حول العالم... لقد ضيعت الدول المجتمعة فرصة لمساعدة ملايين الناس بإخفاقها في إقرار هذه المبادرة"[23].

حيال هذا، دعا SIPRI في التقرير الدول الأطراف في الاتفاقية الى ان تقرر ما إذا كانت مستعدة للانخراط في مناقشات أكثر رسمية بشأن هذا الموضوع، وتؤكد من جديد أهمية إجراء عمليات مراجعة للأسلحة، وتحدد أيضا القيود الحالية لهذه الآليات حيثما يتعلق الأمر، وضمان حيازة الأسلحة ذات المزايا الذاتية واستخدامها بطريقة تتفق مع مقتضيات القانون الدولي. وخلص التقرير إلى أن مراجعة مشروعية الأسلحة الذاتية يمكن أن تشكل تحديا تقنيا كبيرا يستلزم خبرة تقنية وموارد مالية كبيرة. وأوضح د. فنسنت بولانين، الباحث في SIPRI، الذي قدم التقرير: "التحدي التقني هو أكثر إشكالية، كما ان الدول ليست جاهزة بشكل كاف للتعامل معها". وأضاف: "المشكلة هي أن عددا محدودا جدا من الدول - أقل من 20 - معروفة بامتلاكها آلية رسمية لمراجعة الأسلحة. وهذا يقوض قدرة المجتمع الدولي على السيطرة على تسليح التكنولوجيات الذاتية بشكل متزايد". وأوضح: "قد يفتقر البعض إلى الخبرة العملية، والخبرة التقنية أو الموارد المالية لتنفيذ التقييمات الفنية الكافية لدعم عملية المراجعة القانونية". وأكد ان SIPRI ملتزم بدعم المزيد من التعاون والشفافية في مجال عمليات مراجعة الأسلحة، ومعه ICRC التي هي الأخرى مستعدة دائماً لمساعدة الدول على تحقيق هذه الأهداف.

علماً بان التقرير تضمن سلسلة من التوصيات العملية للمراجعة القانونية للأسلحة التي تحتوي على مزايا تلقائية أو ذاتية. وأوضح بأنه من الضروري تهيئة الظروف اللازمة لتنفيذ عمليات استعراض الأسلحة على نطاق أوسع. ووفقا للتقرير، فإن مبادرات تبادل المعلومات أساسية لهذا الغرض، وينبغي دعمها في إطار اتفاقية الأسلحة التقليدية[24].

خاتمة

شكلت النزاعات المسلحة والأسلحة المستخدمة وضحاياها، خاصة المدنيين، وتشكل اليوم هماً كبيراً لمنظمة الأمم المتحدة وللمنظمات الدولية غير الحكومية والمستقلة وللباحثين الحريصين. وفي ضوء ما طرحته اللجنة الدولية للصليب الأحمر، بوصفها الضامنة لاتفاقيات جنيف وبروتوكولاتها الإضافية، وما استكشفه معهد ستوكهولم الدولي لأبحاث السلام، بوصفه مؤسسة علمية مستقلة متخصصة بشؤون التسلح ونزع السلاح والأمن الدولي الهادفة لحماية البشرية ولخدمة السلام العالمي، فان المراجعة القانونية للأسلحة والرقابة على إستخدامها هي مهمة ضرورية جداً في ظل التطور السريع الذي تشهده تكنولوجيا الأسلحة، وتعتبر خطوة حيوية لضمان الامتثال للقانون الدولي الإنساني، يتوجب على كافة دول العالم ان تلتزم بها.

الهوامش

1 - غنوة خليل الدقدوقي، أمراض الحروب، "مقهى العلوم"، 24 /4 /2008.

2 - ثلاثة تريليونات دولار تكلفة الحروب الحالية في الشرق الأوسط، "الآن نيوز" - وكالات، 2015/6/17.

3 - رشيد غويلب، قمة الناتو.. مزيدا من المال، مزيدا من السلاح، مزيدا من الحروب، "طريق الشعب"، 8/6/ 2017.

4- "فرانس برس"، 15 /6 /2015.

5- BBC عربي، 20 /10 / 2017.

6- Sputnik عربي، 12 /10 /2017.

7- "اليوم السابع" المصرية، نقلاً عن: "كمسومولسكايا برافدا" الروسية، 14 /10 /2017.

8- ترامب النووي!، RT عربي، 27/9/2016.

9- Under a B-52 with Gen. Goldfein; 11% cut to USAF budget request?; New Mideast arms-export numbers, and more…By Marcus Weisgerber, Defense One, October 19, 2017

10- أنظر مقالنا: "جائزة نوبل للسلام لعام 2017 للحملة الدولية للقضاء على الأسلحة النووية"، "طريق الشعب"، 18/ 10/ 2017.

11- SIPRI convenes annual EU Non-Proliferation and Disarmament Conference, 11 -13 Dec. 2017 .

12- A Guide to the Legal Review of New Weapons, Means and Methods of Warfare.

13- استعراض الأسلحة الجديدة، نظرة عامة، اللجنة الدولية للصليب الأحمر (29/10/2010، ICRC).

14- الفريق جستن ماك كليلاند، محام وضابط في الخدمات القانونية للجيش البريطاني وخبير. في إجراء المراجعات القانونية وفقا لأحكام المادة 36 لجميع المعدات الأرضية للقوات المسلحة البريطانية.

15- البروتوكول الإضافي إلى اتفاقيات جنيف المؤرخ في 12 آب 1949المتعلق بحماية ضحايا المنازعات الدولية المسلحة، والنافذ في 8 حزيران 1977، المشار إليه في ما بعد بالبروتوكول الإضافي الأول.

16- يتطلب مبدأ التناسب أن يحجم المحاربون عن مهاجمة الهدف الحربي المشروع إذا كان من المتوقع له أن يتسبب في خسارة عرضية في أرواح المدنيين، أو الأذى للمدنيين، أو تلف الأعيان المدنية مما قد يتجاوز الميزة العسكرية المتوقعة من هذا الهجوم.

17- أنظر:

Meyrowitz, H; "The principle of superfluous injury and unnecessary suffering", International Review of the Red Cross, March-April 1994, p.103.

18- إتفاقية لاهاي (الرابعة) فيما يتعلق بقوانين وأعراف الحرب البرية والملحق التابع لها: اللوائح المتعلقة بقوانين وأعراف الحرب البرية، 18 تشرين الأول 1907 (المادة 23هـ)؛ والبروتوكول الإضافي الأول، المادة 35؛ واتفاقية حظر أو تقييد استخدام أسلحة تقليدية معينة يمكن اعتبارها مفرطة الضرر أو عشوائية الأثر، 10 تشرين الأول 1980، الديباجة، الفقرة (3) .

19- الهدف من أن تكون القضايا القانونية المستقبلية واحدة من المعايير لا بد من تجنب المباغتة بالتطورات القانونية الدولية.

20- جستن ماك كليلاند، استعراض الأسلحة وفقا للمادة 36 من البروتوكول الإضافي الأول، المجلة الدولية للصليب الأحم، العدد 850 ، 31 /12 /2003.

21- SIPRI hosts conference on Article 36 reviews and emerging technologies, SIPRI. 27 Sept 2017.

22- Implementing Article 36 weapon reviews in the light of increasing autonomy in weapon systems, SIPRI (for the media), 11 November 2015

23- لا اتفاق لتعزيز احترام اتفاقيات جنيف، جنيف- شبكة الأنباء الإنسانية (IRIN 2015 /12 /10)

24- Implementing Article 36 weapon reviews, SIPRI,11 Nov 2015- Ibid.

طاولة مستديرة

ندوة (الثقافة الجديدة) الحوارية بمناسبة مرور 100 عام على اندلاع ثورة اكتوبر العظمى في روسيا القيصرية

في صباح يوم الجمعة المصادف 15/ كانون الأول/ 2017 وعلى قاعة جمعية (الثقافة للجميع)، اقامت مجلة (الثقافة الجديدة) ندوة حوارية بمناسبة مرور 100 عام على اندلاع ثورة اكتوبر العظمى في روسيا القيصرية عام 1917. استضافت فيها عددا من الاساتذة والأكاديميين والناشطين السياسيين، للحوار حول التجربة الاهم في القرن العشرين، والتي غيرت مجرى التاريخ العالمي.

ساهم في اعمال الندوة العديد من المشاركين، عبر تقديم مداخلات مكتوبة عرضوا خلاصات لها (النصوص الكاملة للمداخلات تجدها في مكان آخر من هذا التقرير)، وهم كل من السادة:

- الدكتور عبد جاسم الساعدي/ كاتب وباحث ورئيس جمعية (الثقافة للجميع).
- الدكتور سيف عدنان القيسي/ كاتب وباحث اكاديمي.
- الاستاذ سعد محمد رحيم/ كاتب وروائي.
- الاستاذ فرحان قاسم/ كاتب وباحث.
- الاستاذ عبد الحسين شايع/ باحث اكاديمي.

في حين قدم بعض الحاضرين مداخلات شفهية (تجد عرضا لها في مكان آخر من التقرير) ومن بينهم:

- الاستاذ رضا الظاهر/ كاتب وباحث.
- الدكتور عقيل الناصري/ كاتب وباحث اكاديمي.
- الاستاذ كامل عبد الرحيم/ روائي وناشط سياسي.
- الاستاذ رشيد اسماعيل/ ناشط سياسي.
- الانسة بسمة كاظم/ ناشطة سياسية.
- الاستاذ رشيد غويلب/ صحافي ونشاط سياسي.

هذا وتسهيلا للنقاش، كانت هيئة تحرير (الثقافة الجديدة) قد وزعت على المدعوين ورقة عمل، تتضمن في طياتها محاور رئيسية مقترحة للندوة. وندرج في ادناه نص ورقة العمل تعميما للفائدة:

ورقة عمل ندوة مجلة (الثقافة الجديدة) بمناسبة الذكرى المئوية الأولى لثورة اكتوبر 2017

بداية، نعبر عن سعادتنا لمشاركتكم في هذه الندوة المكرسة للحوار، حول ثورة اكتوبر العظمى في مئويتها الأولى، ويحدونا الامل بمناقشات تسهم في تطوير وتعميق المعرفة عن تجربة تاريخية فريدة هي الاهم في القرن العشرين، والتوصل الى خلاصات ودروس للاستفادة منها في عملنا النضالي في ظروفنا الملموسة.

كما معروف تمر على البشرية هذه الأيام الذكرى الـ 100 لقيام ثورة أكتوبر العظمى في روسيا القيصرية، تلك الثورة التي غيّرت مجرى التأريخ العالمي. فقد جاءت هذه الثورة تعبيراً عن تفجّر تناقضات الرأسمالية في إحدى اضعف حلقاتها، وهي، خلافاً لما يدعيه البعض، ثورة حقيقية انطلقت من أعماق المجتمع الروسي بمشاركة واسعة من جماهير الفلاحين المسحوقة في الريف والطبقة العاملة النشيطة في المدن وأقسام واسعة من الفئات الوسطى الحضرية. وقد سبق الانتصار الحاسم للثورة، مجابهات وانتفاضات عنفية ولا عنفية ضد السلطة القيصرية الاستبدادية وضد طغيان الاقطاعيين وكبار الملاكين.

ورغم الاختلاف في تقييم المآل الذي آل إليه النظام المنبثق من ثورة أكتوبر، إلا أن هذه الثورة كانت أحد أهم أحداث القرن العشرين. فقد تركت بصماتها على الاتجاهات الأساسية لتطور عالمنا خلال القرن العشرين الذي انقضى معظمه في ظل القطبية الثنائية للاشتراكية والرأسمالية. لقد كان المؤرخ الماركسي المعروف الراحل أريك هوبسباوم محقا حين اختتم آخر أعماله بعنوان مثير: "عصر التطرفات"، راسماً صورة القرن العشرين بأنه قرن أكتوبر، القرن القصير الذي ابتدأ، برأيه، متأخراً في 1917، وانتهى مبكراً في 1991، سنة صعود يلتسن، مثلما أن القرن التاسع عشر كان قرن الثورة الفرنسية.

بالمقابل، فإنه وقبل أكثر من عقدين ونصف، انهارت الانظمة التي قادتها الاحزاب الشيوعية والاشتراكية والعمالية في أوربا الوسطى (المانيا الديمقراطية والمجر) والشرقية (بولندا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا) والجنوبية (يوغسلافيا وبلغاريا). وتُوجت تلك العملية بتفكك الاتحاد السوفيتي وانهيار "التجربة الاشتراكية" في عام 1990 - 1991.

وبعد انهيار هذه الانظمة بات من الصعب تفادي طائفة واسعة من الاسئلة المتعلقة بمعرفة اسباب وعوامل هذا السقوط وكذلك الافرازات المتفاعلة والمتداخلة المترتبة على ذلك.

ولا شك أن تجربة بهذه الأهمية والدلالة، في بنائها وانهيارها، تطرح أسئلة كثيرة

وكبيرة ومفتوحة. وبسبب ذلك فإن أجوبتها ما زالت تحتاج إلى المزيد من البحث والتأصيل والتدقيق.

لعل من المفيد البدء بأسئلة اساسية قد تساعدنا في الاقتراب من هذه الاشكالية من بينها على سبيل:

1. لماذا وقعت "الردة الكبرى" في مسيرة التاريخ وكيف اصبحت ممكنة؟ وهل يعني ذلك نهاية الاشتراكية وانتصار الرأسمالية؟ وهذا السؤال هو الذي يؤرق ويزلزل الاذهان على الدوام وشكل ويشكل محور النقاشات التي اندلعت منذ لحظة الانهيار ولا تزال وستستمر.

2. ما هو مغزى أزمة "الاشتراكية الفعلية"؟ ونعني هنا بالتحديد معرفة ما إذا كانت هذه الازمة، قد الغت صحة مبادئ الاشتراكية والماركسية.

تتفرع عن السؤالين السابقين اسئلة عديدة أخرى من بينها على سبيل المثال لا الحصر:

- هل يكمن الانهيار في "النهج الاشتراكي"، أي الممارسة؟
- أم في ابعاده النظرية/ النظرية؟
- أم في كليهما معاً؟

نظرا لطبيعة هذا الموضوع المعقد والمتشابك، فإننا نعتقد ان التناول الاكثر جدوى، هو محاولة فهم هذا "الزلزال" الذي حدث من منظور لا يركز على "ضرورة" الانشغال بالنتائج، بل البحث في الجذور والأسباب الكامنة وراءه.

من المؤكد ان الانهيار الذي حصل هو بحد ذاته حدث كارثي، ولكن له ميزة ايجابية، هي انه اسهم في دك اسوار الجمود، وحرر العقول من قيود "الايديولوجية" (بمعناها السلبي) ما اعطى دفعا قويا للنقاش والحوار، وفتح الابواب امام انطلاقة كبرى للفكر للتجوال في رحاب البحث والتقصي والاستكشاف؛ حيث يلاحظ المرء هذا الكم الهائل من الدراسات والأبحاث والمناقشات الساخنة والاجتهادات غير المألوفة والاستنتاجات المفاجئة.

وفي ضوء ذلك يتعين أولا وقبل كل شيء تجاوز تلك التحليلات التبسيطية التي ترجع ما حدث من انهيار الى "ردة داخلية" أو الى "مؤامرة خارجية" أو الى "دور رجل خارق استطاع أن يغير مجرى الأحداث"! لقد كانت هناك جملة من المشكلات والعوامل الاساسية وراء الانهيار الذي حصل. والمقاربة الصحيحة لهذه القضية تفترض الانطلاق من واقع أن هذه المشكلات نشأت بفعل عوامل اقتصادية وغير اقتصادية، داخلية وخارجية، ذاتية وموضوعية، في اطار عملية تاريخية معقدة ومتناقضة وطويلة المدى. ويفترض التحليل السليم لهذه المشكلات رؤية العوامل المسببة للأزمة والانهيار الذي حصل في هذه البلدان باعتبارها جزءاً من سيرورة دايلكتيكية بالغة التعقيد يمكن فهمها واستيعابها عند استخدام المنهج العلمي الصحيح.

وعلى الرغم مما بذل من جهد لمحاولة الاجابة على الاسئلة التي طرحها الانهيار، إلا ان النقاش مع ذلك يظل مفتوحا، بل تتزايد الحاجة اليوم في ظل معركة فكرية على مستوى كل بلد وكونية الطابع أيضا، لإعمال العقل الجمعي للتفكير في هذه القضايا التي تتخذ ابعادا واستحقاقات تخص جميع قوى اليسار والديمقراطية،

بل وكل المناضلين من أجل بديل يتجاوز الرأسمالية ولا ينحصر في أفقها أو يخضع لآليات ومنطق إدماجها وهيمنتها.

وكما معلوم، وبرغم مظاهر الأشياء، دخلت الرأسمالية العالمية في مرحلة أزمة عميقة منذ أوائل سبعينات القرن العشرين. وأخذت هذه الأزمة في التفاقم المستمر دون أن تبزغ في الأفق أدنى إشارة للخروج منها. والأزمة تضرب النظام بكليته: مراكزه المتقدمة وتخومه المتخلفة ولا توفر أحدا.

كان من المتصور أن خطورة الأزمة ودوامها وعجز القوى المتنفذة عن مواجهتها، بل وتفاقمها المستمر، أن كل ذلك سيفتح مجالات جديدة لتجديد الأحزاب والقوى اليسارية والديمقراطية الموجودة، وكذلك لتبلور حركات شعبية ديمقراطية وثورية تعطي لليسار فرصا لكسب مواقع أقوى بين الجماهير.

ولكن انهيار نظام "الاشتراكية الفعلية" في كل من الاتحاد السوفيتي وبلدان أوربا الشرقية والوسطى قلب كثيرا من "البداهات" وفتح الأفق على مصراعيه لتحولات تطول الكثير من البرامج والمشاريع والتنظيمات. فقد جسّدت الهزة الكبيرة المتمثلة بطريقة وسرعة الانهيار الذي حدث جملة من القضايا المتعلقة بطابع الاشتراكية وأفقها. واقترن الحدث بهجوم إيديولوجي شرس سعى لتشويه الحقائق وتضليل الرأي العام من جهة، وتوظيف الحدث بما يخدم ديمومة الرأسمالية، وهذا ما عبرت عنه شعارات ومفاهيم مثل، نهاية التاريخ/ موت الشيوعية/ وانتهاء عصر الأيديولوجيات/ صدام الحضارات.. الخ.

ولا شك أن تبلور هذه السمات الجديدة للنظام العالمي قد أدى الى تآكل تدريجي لوسائل النضال التقليدية، الأمر الذي طرح وما زال يطرح المزيد من الأعباء والمصاعب أمام تجديد اليسار وقواه المكونة، والتكيف لشروط النضال الجديدة التي أحدثها "الزلزال الكبير" منذ بداية التسعينات من القرن الماضي والطموح الجارف لقوى الرأسمالية المعولمة لابتلاع الجميع وتكيفهم لمنطق الرأسمال وقوانينه.

تسمح الملاحظات السابقة بالاستنتاج بأن التجربة أكدت على ان التخلي عن الخيار الذي دافعت عنه ثورة أكتوبر ضار ومدّمر معاً، لأنه لا يبقي لنا سوى البربرية والحروب الامبريالية أو التلويح الدائم بها لإرهاب الخصوم وإجبارهم على الخضوع للمنطق الإمبريالي والفقر والجوع والاستقطاب الاجتماعي، والتفكك والتشظي المجتمعي وهيمنة القوى البيروقراطية -الطفيلية – الكومبرادورية – الطفيلية والريعية. وهنا يقبع خطر الردح الذي تعالى بعد الانهيار، والقائم أساساً على شطب هذا الخيار المناهض لرأس المال ومنطقه، لأنه يؤسس لبديل آخر يشكل قطيعة مع الرأسمالية كنظام وممارسات.

المحاور المقترحة للندوة:

المحور الأول: الممهدات للثورة ومساراتها الملموسة

- ثورة 1905 – 1907 وآثارها
- الوضع في روسيا في عام 2017 وطبيعة الازمة البنيوية
- الحرب الإمبريالية الأولى (1914 – 1918) وما تركته من آثار على نضوج

عوامل الثورة
- التحالفات والتكتيكات الملموسة خلال الفترة نيسان – اكتوبر 1917
- هل ”خان“ لينين والبلاشفة ماركس عندما اتخذوا قرارهم بتسلم السلطة، اثر طور قصير مرّت به الثورة البرجوازية الديمقراطية في روسيا، رافضين التعامل مع الانتقال الى الاشتراكية باعتباره سيرورة طويلة؟ اطروحة الحلقة الاضعف في السلسلة الامبريالية
- المواقف المتباينة بشأن قيام الثورة، والصراع الفكري الذي سبق الثورة وأعقبها (لينين، تروتسكي، بليخانوف، بوخارين، كاوتسكي، روزا لوكسمبورغ ... الخ)
- تجليات هذا الصراع في فترات لاحقة (غرامشي، ماركسيون غربيون، ألتوسير، مدرسة فرانكفورت... وصولاً الى هوبسباوم)
- ”شيوعية الحرب“ والسياسة الاقتصادية الجديدة – النيب“... لماذا؟
- ثورة أكتوبر والقضية القومية وحق تقرير المصير
- ثورة أكتوبر والأديان والتعامل مع المتدينين
- ثورة أكتوبر والثقافة والأدب والفن
- ثورة أكتوبر وتحرر المرأة
- ثورة أكتوبر وشعوب الشرق
- انتصار ثورة اكتوبر - أبرز الدروس والخلاصات ومدى الاستفادة منها في بناء بدائل قابلة للحياة

المحور الثاني: من الثورة.. الى الردة! – نحو فهم جذور انهيار التجربة الاشتراكية وأسبابه

- الاسباب والعوامل الداخلية الاقتصادية/ الاجتماعية/ الطبقية التي ادت الى التفكك والانهيار
- آلية تكون ”الطبقة الجديدة“ (البيروقراطية) ودورها
- ”الظاهرة الستالينية“ وآثارها
- اختلال العلاقة بين المفهوم النظري والنموذج المطبق
- اشكالية العلاقة بين الديمقراطية والاشتراكية – اختلال العلاقة بين السياسي والاجتماعي وآثاره
- العوامل الخارجية والصراع الايديولوجي على المستوى العالمي
- اخرى

المحور الثالث: آفاق بديل جديد - من مقاومة الرأسمالية الى استراتيجيات صياغة البديل

- الضرورات والمحددات
- كيف تعاد صياغة المفهوم النظري لمضمون مرحلة الثورة الوطنية – الديمقراطية في ظروف عولمة الحياة الاقتصادية - الاجتماعية؟
- الرأسمالية: امكانية أم ضرورة؟
- ما الصورة النظرية للبديل الاشتراكي، كأفق تأريخي، على الصعيد العام (العالمي) أو الخاص (بلد أو بلدان محددة)، وما هي شروط وملامح الانتقال؟

المحور الرابع: قضايا أخرى يرغب المشارك في الندوة مناقشتها شريطة ان يكون لها ارتباط بموضوع الندوة، من قبيل:

- تأثيرات ثورة أكتوبر في العراق

- عروض لكتب أو لأطروحات علمية (ماجستير ودكتوراه) حول ثورة اكتوبر
- قضايا اخرى

وفي بدء اعمال الندوة رحب د. سوران بالحضور قائلا: بداية نشكر السيدات والسادة الحضور على تلبيتهم دعوة مجلتنا (الثقافة الجديدة) للمساهمة في اعمال هذه الندوة الحوارية العامة. وقد عودت مجلتنا جمهور قرائها وبشعارها العتيد (فكر علمي.. ثقافة تقدمية) على القيام بنشاطات متنوعة، منها الطاولات والندوات الحوارية. كما اني وباسم هيئة تحرير المجلة أتقدم بالشكر الى جمعية (الثقافة للجميع) ورئيسها الدكتور (عبد جاسم الساعدي) لاستضافتهم اعمال هذه الندوة، وتعاونهم معنا لإنجاح اعمالها. في ندوتنا لهذا اليوم تغمرنا السعادة ونحن نلتقي بكم من اجل ان نستذكر معا ثورة اكتوبر العظمى، وان نحتفل بمئويتها الاولى هذا اولا. وثانيا ان تكون لنا نقاشاتنا في ندوتنا هذه، مساهمة فعلية تعمل على تعميق معرفتنا بهذه التجربة التي قد نختلف في تقييم النظام الذي انبثق عنها وممارساته، وقد نختلف احيانا في حيثيات انبثاقها ونتجادل في حول اسباب وعوامل انهيارها. لكن الذي لا نقاش فيه بحسب رأيي ان ثورة اكتوبر كانت الحدث الاهم في القرن العشرين. وانها كانت ثورة حقيقية انطلقت من اعماق المجتمع الروسي بمشاركة جماهير واسعة من العمال والفلاحين واقسام واسعة من الطبقة الوسطى.

وبعد تقديم خلاصات عن المداخلات المكتوبة من طرف معديها، بدأت النقاشات والمداخلات المفتوحة.

الاستاذ رضا الظاهر

كان اول المتداخلين الكاتب والباحث الاستاذ رضا الظاهر، والذي قدم مداخلة سعى من خلالها الى إضاءة عدد من المحاور: أسباب حدوث الثورة ودلالاتها وانجازاتها، والشروط المادية لقيام الثورة والعلاقة بين الاشتراكية والديمقراطية، والمواقف المتباينة من الثورة، وأسباب انهيار الثورة الاشتراكية، مختتماً مداخلته بالتأكيد على أن مُثل أكتوبر ما تزال حية. ومركزاً، بشكل خاص، على ما أسماه "عودة ماركس" مجدداً في المشهد الفكري والسياسي في عالمنا المعاصر.

وقال الظاهر إن الثورة جاءت تعبيراً عن تفجر تناقضات الرأسمالية في إحدى أضعف حلقاتها، وتجسيداً لروح الكفاح التي ظلت متقدة منذ تحدى سبارتاكوس عروش العبودية وحتى أيامنا، تلهم الثوريين مثل العدالة والتنوير والأمل العظيم في الوصول الى ضفاف اسقاط نظام الاستغلال.

ويتفق معظم الباحثين الماركسيين، رغم تبايناتهم في تقييم ثورة اكتوبر، على أنها الحدث الأعظم الذي حدد الاتجاهات الأساسية لتطور عالمنا ومصائره التاريخية، وعلامة مضيئة وملهمة في تاريخ النضال ضد الجور الاجتماعي. فقد حققت الثورة انجازات عظمى وضعت البشرية على أعتاب مرحلة جديدة.

لكن السؤال الذي بقي مطروحا: كيف يمكن للثورة الاشتراكية أن تنتصر في بلد لا يمتلك، بسبب ضعف تطور الرأسمالية فيه، قاعدة مادية متقدمة لبناء الاشتراكية، وهو الشرط الذي كان كارل ماركس قد وضعه لانتصار الاشتراكية في بلد من البلدان؟ فهل تناقض لينين مع معلمه ماركس عندما اتّخذ قراره بأن يتسلم البلاشفة السلطة إثر طور قصير مرت به الثورة "البرجوازية الديمقراطية" في روسيا؟

فالباحثون الماركسيون، يرون أن مشروعية هذا السؤال تنبع من حقيقة أن تسلم البلاشفة السلطة في أكتوبر 1917، وانتقالهم السريع من مرحلة الثورة "البرجوازية الديمقراطية" إلى مرحلة الثورة "الاشتراكية"، كان متعارضاً مع "المخطط" الذي وضعه ماركس لسبل الانتقال إلى الاشتراكية، في أمور ثلاثة رئيسية: فمن جهة أولى، جرى الانتقال إلى مرحلة الثورة الاشتراكية في بلد زراعي في الأساس. ومن جهة ثانية، كانت الطبقة العاملة فيه محدودة الحجم؛ إذ كان عدد العمال المأجورين فيه نحو 18 مليوناً، من أصل 174 مليوناً من السكان. ولم يكن يعمل في الصناعات الكبرى أكثر من 5،3 مليون عامل تقريباً. ومن جهة ثالثة، وبسبب استنادها إلى أقلية في المجتمع، لم يكن من الممكن أن تنطبع الثورة الاشتراكية في روسيا بطابع ديمقراطي، يجعل منها

ثورة "الأغلبية الساحقة" على حد تعبير ماركس.
لكن لينين وعلى أساس تحليله للظاهرة الإمبريالية، واكتشافه قانون التطور المتفاوت للرأسمالية، شدّد على إمكانية انتصار الاشتراكية، في بادئ الأمر، في عدد قليل من البلدان الرأسمالية أو حتى في بلد رأسمالي بمفرده.
وأكمل الظاهر قائلا: ومن الأهمية ايضا بمكان أن نتفحص المواقف المتباينة بشأن الثورة قبل وبعد قيامها. وتعرض بإيجاز شديد الى آراء ومواقف: بليخانوف، تروتسكي، بوخارين، كاوتسكي، وروزا لوكسمبورغ، مذكراً بأهمية معرفة آراء أخرى بينها، على سبيل المثل، آراء غرامشي، لوكاتش، الماركسيين الغربيين، مدرسة فرانكفورت، وألتوسير ... وصولاً الى إريك هوبسباوم والماركسيين الحاليين.

الدكتور عقيل الناصري

الباحث والاكاديمي د.عقيل الناصري ابتدأ مداخلته بتقديم شكره لمجلة (الثقافة الجديدة) وللحاضرين. وأكد انه سينحى في حديثه منحى آخر؛ إذ لن يتكلم عن اهمية ثورة اكتوبر وأسبابها ومآلاتها، إنما سيتحدث باختصار عن الماهيات والصيرورات الاجتماعية للثورة من خلال ثلاثة ابعاد: البعد الاول سيكون البعد النظري للاشتراكية. والثاني البنية الطبقية للمجتمع الروسي، توافقها مع التصور الماركسي. وايضا اقف عند ما قاله بليخانوف بصدد ثورة اكتوبر.
قال د. الناصري: اثناء ثورة اكتوبر كان هناك افتقار نظري لماهية الاشتراكية. وهنا اشدد على النظري المجرد لأن ماركس تكلم عن القانونيات الأرأسية للنظام الرأسمالي، وبالتالي استنتج الاستنتاج الاول، وهو قانون الربح باعتباره المحرك لهذا النظام، في حين لم يتطرق الى الاشتراكية إلا بجملة مبادئ عامة، عندما ناقش برنامج غوتا. ونجد بالتالي دخول العديد من الافكار بين حملة الفكر الاشتراكي حول الاشتراكية. باعتقادي كان لها دور او ساهمت في دخول النظام الاشتراكي الذي انشأ بعد ثورة اكتوبر في ازمته. والازمة برأيي تمثلت بأحد جوانبها حول معرفة ما هو القانون الرئيسي للاشتراكية. اول بحث طرح من قبل (اوسكار لانكَة) عام 1954 كان حول ما هو القانون الرئيسي للاشتراكية وما هي قوانينها الاقتصادية. هل هي اشباع الحاجات ام السيطرة على وسائل الانتاج وتكوين القاعدة الاجتماعية للانطلاق نحو الاشتراكية. هذا البعد في رأيي الشخصي وهذا الرأي قابل للنقاش. بالتأكيد كان احد المعاضل الرئيسية عندما اعلن ستالين عام 1937 انه تم الانتهاء من الاشتراكية. وعندما اعلن خروشوف ان عام

1980 سيتم الدخول الى عصر الشيوعية. رؤيتي الشخصية انه لو توفر البعد النظري حول قوانين الاشتراكية لكان من الممكن تلافي جانب مهم من جوانب ازمة النظام الاشتراكي.

عندما تم تكريم الاستاذ (ابراهيم الحريري) اقتبس عبارة مما قال (رضا الظاهر): الشيوعيون رافقتهم الامنية والامنية الطيبة. في اعتقادي لينين ايضا رافقته ايضا الامنية والامنية الطيبة عندما اراد السيطرة على السلطة لتطبيق مبادئه الاشتراكية. بينما عارض لينين استاذه ماركس، عندما اسس للسياسة الاقتصادية الجديدة، مؤكدا ان روسيا متعددة الانماط الاقتصادية. في عشية ثورة 1905 وأيضا ثورة 1917 كان هناك بعض الاقطاعيات للرق والعبودية، لا تزال قائمة وان انهتها المراسيم. فكما تعلمون أن التغييرات والعمليات الاجتماعية لا تفرض بالقانون ولا بالمراسيم؛ حيث قامت روسيا القيصرية بإلغاء الرق سنة 1861.

بليخانوف خير من عرفنا به هو لينين نفسه عندما قال انه اول منظر ماركسي روسي. بليخانوف في خضم نقاشه مع لينين اكد انه ربما ستنجح ثورة اكتوبر لكنها ستفشل بعد ذلك حتى لو بعد 100 سنة، لأنها بالتضاد مع سنن وقوانين التطور الماركسي.

في النهاية وقبل ان اختم ادعو الى ضرورة دراسة المنهج الماركسي وقوانينه بعمق من قبل الشيوعيين، فهو المفتاح الاهم لمعرفة اشكالياتنا. كما انه من الضروري تعميق دراساتنا للواقع الطبقي الاجتماعي. هناك دراسة لغانم حمدون نشرت في (النهج) في بداية الثمانينيات، ومن الضرورة استكمال هذه الدراسات بدراسات جديدة لتتبع التطور في هذه اللوحة الطبقية. فهل نتبنى فكر الطبقة العملة وهي غير متبلورة؟ ويقع على كاهل مجلة (الثقافة الجديدة) العبء الاكبر في نشر الفكر الماركسي... مع الشكر.

الآنسة بسمة كاظم

بعد ذلك قدمت الانسة (بسمة كاظم)/ ناشطة سياسية مداخلتها قائلة: اولا اتقدم لمجلة (الثقافة الجديدة) بالشكر الجزيل لدعوتي لحضور هذه الندوة، وقد جمعتني بالأساتذة الافاضل. اتفق تماما مع الرأي القائل ان ثورة اكتوبر تعتبر من اهم احداث القرن العشرين. فقد غيرت الثورة مسار العلاقات بين الطبقات وفرضت العدالة الاجتماعية والاقتصادية بين البشر. واستطاعت تحقيق مكاسب كبيرة على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي، وفككت النظام الكولونيالي وحققت الاستقلال السياسي وبالتالي أدى ذلك الى نشوء نظام القطبية الثنائية، كما أسهمت في ظهور "دولة الرفاه" واعتماد او تطبيق قوانين العمل والتأمينات الاجتماعية في البلدان الرأسمالية. لقد كان لينين مدركا انه في

لحظة استيلاء البلاشفة على السلطة، لم تكن روسيا تمتلك الشروط المادية لقيام الاشتراكية. ولقد اكد ذلك في اكثر من مناسبة حيث تحدث عن تخلف قوى الانتاج في روسيا والطابع البرجوازي الصغير لرأسماليتها، وعدم بلوغ العلاقات الرأسمالية فيها درجة النضج الكافي، لإنجاز البناء الاشتراكي. لكنه دافع عن فكرة إمكانية قيام الاشتراكية في بلد واحد، والانتقال السريع بالثورة من مرحلتها البرجوازية الديمقراطية إلى المرحلة الاشتراكية، أي تطبيق مفهوم الثورة المستمرة لماركس. في حين دعا المناشفة وماركسيون آخرون إلى حصر الثورة، ضمن افقها البرجوازي الديمقراطي. وربط قادة آخرون للثورة، منهم تروتسكي، الانتقال إلى الاشتراكية بقيام ثورات عمالية في البلدان الرأسمالية المتطورة.

كما اشارت الكثير من الادبيات، كان غياب الديمقراطية السياسية واعتماد اليات عمل بعيدة عن القيم والمثل الاشتراكية من ابرز العوامل التي أدت الى انهيار تجربة ثورة أكتوبر ومنها عبادة الفرد والبيروقراطية واستخدام سياسة القفز على المراحل والتنكر للفعل الموضوعي للقوانين الاقتصادية والاجتماعية؛ فهناك جملة من المشكلات والعوامل الاساسية التي تفترض الانطلاق من واقع المشكلات، نشأت بفعل عوامل اقتصادية وغير اقتصادية، داخلية وخارجية، ذاتية وموضوعية، في اطار عملية تاريخية معقدة ومتناقضة وطويلة المدى. ان حلّ الجمعية التأسيسية وتحويل السلطة كاملة إلى السوفييتات، أدى الى غرس الاشكالية "الديمقراطية" للنظام الاشتراكي السوفييتي. واكتسب هذا الإجراء أهمية في تحديده ملامح النظام السياسي والحقوقي السوفييتي.

لقد سقطت إحدى التجارب الاشتراكية، لكن الاشتراكية نفسها لم تسقط. وما زالت العدالة الاجتماعية من أهم القيم الإنسانية العليا. والديمقراطية الاشتراكية داخل الاتحاد السوفييتي لم تفشل بمعناها النظري، بل فشلت بسبب الأخطاء التي ارتكبت في عملية التطبيق "غير الديمقراطية" في فترة ستالين.

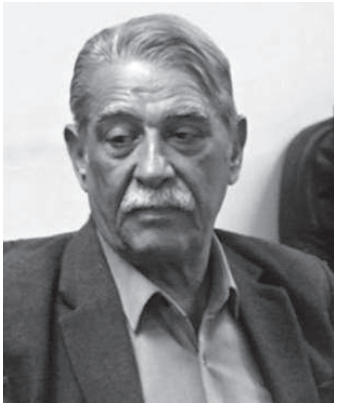

الاستاذ رشيد اسماعيل

بعد ذلك بدأ الاستاذ (رشيد اسماعيل)/ ناشط سياسي مداخلته قائلا: تحياتي للجميع واشكر مجلة (الثقافة الجديدة) لتوفيرها الفرصة لنا للتعبير عن آرائنا. بالنسبة لثورة اكتوبر نتفق جميعنا انها حدث عالمي وعظيم ترك بصمته واضحة على القرن العشرين وآثارها ما زالت واضحة لحد الآن. لكن الناس دائما ما تفكر بما آلت له هذه التجربة

ونهايتها فقط. وبالنسبة لي اتذكر انه عندما انهار الاتحاد السوفيتي، سد الافق تماما بوجهي.

روسيا في زمن القيصرية وقبل ثورة اكتوبر كانت دولة استبدادية أوتوقراطية واستعمارية لديها ذراع عسكري، لكنها كانت متخلفة اقتصاديا مقارنة بأوروبا. وكان النظام الروسي شبه ميت وغير قادر على الاستمرار. وكان في روسيا تياران واسعان الاول هو تيار البرجوازية، والاخر هو تيار الطبقة العاملة ولينين كان مؤمنا ان الاشتراكية لا يمكن ان تنتصر في روسيا إلا اذا كانت حركة اجتماعية نضالية، وايجاد الأداة الثورية بيد المجتمع، وبيد الطبقة العاملة، للقيام بالتغيير. والثورة تعمل على نشر افكارها وبرامجها بين ابناء الشعب، وبهذه الأداة تستطيع الطبقة العاملة قيادة عملية التحويل/ عملية الثورة. وكان هذا هو الطريق الذي يؤمن به لينين وليس من خلال الاغتيالات الفردية التي انتشرت لفترة معينة. وحتى ثورة شباط ساهمت الطبقة العاملة بالجزء الاهم فيها، بينما تسلمت السلطة الطبقة البرجوازية (كيرنسكي وغيره). وكانت هذه الاداة هي الحزب ذو البناء الحديدي. وكان فكر ودور لينين واضحا في (موضوعات نيسان) وفيها ايضا نجد كيف ميّز لينين الشيوعيين ودورهم عن باقي الاحزاب. لقد كان جوهر الصراع بين الشيوعيين والبرجوازيين هو السيطرة على السلطة. وبينما هناك من قادة البلاشفة من كانوا مؤمنين بأفكار (بليخانوف) اي اعطاء فرصة للبرجوازية لتأخذ دورها وتستكمل شروط البناء الرأسمالي ومن ثم يأتي دور الطبقة العاملة.

المهم ان نتذكر ان ثورة اكتوبر حدثت بصورة ديمقراطية لأنه كانت هناك ازدواجية سلطة، فمن جهة هناك المجالس (السوفيتات) والتي تتمثل فيها الارادة الحرة للسوفيتات، ومن جهة اخرى حكومة (كيرنسكي) المؤقتة. واصبح ميزان القوى يميل باتجاه البلاشفة، بعدما ان مالت السوفيتات الى برنامجهم وأصبحت لهم الاغلبية فيها، وفي النهاية كانت السوفيتات هي من سلمت السلطة للبلاشفة. وثورة اكتوبر وقادتها ساروا في طريق لم تعبر عليه البشرية من قبل، بحسب تعبير لينين.

نعم، كان للتدخل الامبريالي في روسيا والحرب الاهلية والصراع مع بقايا النظام السابق، دور كبير في ما آلت اليه طبيعة السلطة بعد ذلك، لكن ليس هذا كل شيء فالقانون الاساسي للماركسية بخصوص الثورة الاشتراكية هو التثوير الاقتصادي للمجتمع وانتقال ملكية وسائل الانتاج والغاء العمل المأجور وهذا ما لم يحدث وبذلك افرغت السوفيتات من محتواها الثوري وانتهت دكتاتورية البروليتاريا وانتقلت السلطة الى ستالين وجماعته وتحول الاقتصاد الى رأسمالية دولة. وستالين اول ما بدا، بدأ بإعدام رفاقه من قادة الثورة وما سقط ليست التجربة الاشتراكية ولا تجربة ثورة اكتوبر وانما ما سقط هو رأسمالية الدولة.

الاستاذ كامل عبد الرحيم

من جهته اشار الاستاذ كامل عبد الرحيم/ روائي وناشط سياسي، الى انه سيعود بمداخلة ملخصة الى ما سماه قلب الحدث لاستخلاص اهم الدروس السياسية والتي يعتقد ان جلسة اليوم أهملتها. قال الاستاذ عبد الرحيم: لم يكن الخلل في التوقيت بالنسبة لثورة اكتوبر ولا خطأ في الكشف، إنما خلل اجرائي. سأبدأ في المؤتمر العاشر للحزب الشيوعي السوفيتي (الروسي) سنة 1921، في هذا المؤتمر كان هناك ثلاثة مخاطر امام البلاشفة يحاولون تفاديها وهي: التدخل الإمبريالي، الانهيار الاقتصادي بسبب الحرب الاهلية، وشيوعية الحرب وأشياء اخرى. بينما الخطر الثالث هو تنامي المعارضة الداخلية، داخل الحزب نفسه، داخل الطبقة العملة، وعموما داخل الشعب نفسه. والسياسة التي اتخذها البلاشفة كانت: التسريع بإنشاء الاممية الثالثة وهي سياسة ثورية تجاه اوربا من اجل التسريع بثورة اشتراكية في المانيا خصوصا. وعلى الصعيد الثاني سياسة (النيب) من اجل انقاذ الاقتصاد بعض الشيء. اما الخطر الداخلي فتم قمعه بمنع التكتلات ومنع الحرية الداخلية ومنع الاصوات المعارضة داخل الحزب. ومنذ ذلك التاريخ ساد فقدان الحرية داخل الحزب البلشفي (وداخل الاحزاب الشيوعية بشكل عام) وكان من الاسباب المهمة لفشل ثورة اكتوبر والثورات اللاحقة التي قلدت ثورة اكتوبر. بصراحة ارى ضرورة التخلص من النمط اللينيني للحزب والذي كان سائدا وما زال. نعم، هذا النمط ساهم في تفجر الثورة لكنه ايضا كان سببا في افشال الثورة ووصولها الى مآلاتها. فشل النموذج اللينيني هو فشل لأساليب منع الحريات السياسية وحريات الحديث وهذا هو الدرس الاساسي الذي وددت الاشارة له.

الاستاذ رشيد غويلب

اما الناشط السياسي والصحفي الاستاذ رشيد غويلب فابتدأ مداخلته بتقديم الشكر لمجلة (الثقافة الجديدة)، داعيا الى استمرار الدعوة لمثل هذه الندوات والفعاليات ليس فقط من باب التجريد والنخبوية، وانما ايضا لحاجتنا نحن اليساريين والماركسيين

العراقيين لمثل هذه الحوارات. ثم اضاف غويلب: أنا اعتقد ان التاريخ هو ما حدث ولا يمكن ان نحاكم التاريخ بذهنية اليوم ومن الخطأ أن نسقط التاريخ على الصراع الدائر في عصرنا، في العالم كله حاليا هناك احتفالات بثورة اكتوبر واقيمت الكثير من النشاطات والفعاليات وكتب الكثير من الكتاب والناشطين بخصوصها وما زال السؤال الأكثر إثارة هو: هل كان قرار القيام بالثورة، او هل كان توجه لينين و"موضوعات نيسان" دقيقا؟ ام ان تنبؤ بليخانوف هو ما كان دقيقا؟ بالنسبة لي اعتقد ان لينين كان ادق، انطلاقا من حقيقة بسيطة مفادها، إن على الأحزاب الثورية ألا تتخلف عن حركة الجماهير، بل تتقدمها، وتأخذ بيدها. وشعارات الثورة استمدها لينين من الجماهير، وحولها إلى مفردات برنامجية، فكانت مراسيم اكتوبر المعروفة، ولعل اشهرها مرسوما الأرض والسلام. وعكست البحوث التي كتبت بمناسبة مئوية اكتوبر اجماعاً، تجاوز الماركسيين ليمتد إلى تيارات اصلاحية. اشاد بدور لينين باعتباره منظرا، جمع بدقة بين الاستراتيج والتكتيك الصحيحين. وتجسدت عبقريته في اختيار اللحظة المناسبة. وله مقولة متداولة مفادها أن اعلان الثورة بالأمس كان سيكون مبكرا، وتأجيلها للغد سيكون متأخرا. ولنأتي الى من عاصر لينين من بليخانوف وغيره وصولا الى روزا لكسمبورغ. انا اعتقد ان روزا لوكسمبورغ هي صاحبة الرؤية العبقرية في تقييمها لثورة اكتوبر، لأنها ايدت الثورة ودعمتها في الجوهر، ومارست نقدا علميا للجوانب السلبية على صعدي الفكر والممارسة، ولعل وجودها ونشاطها النظري والسياسي في بلد رأسمالي متطور هو المانيا، قد ساعدها على تقديم قراءة دقيقة لمآلات الثورة في المستقبل. وهو أمر، لم يكن متوفرا للينين، الذي عاش ونشط في روسيا التي كانت تعاني من تخلف اقتصادي، ولم يغير في الأمر كثيرا الفترات القصيرة التي امضاها في المنفى. بينما قرأت روزا لوكسمبورغ الحدث من الخارج، وكانت بعيدة عن الضغط المباشر للضرورات الميدانية والسياسية التي تفرضها الأحداث. ولعل موضوعة روزا لوكسمبورغ بشأن الترابط الوثيق بين الاشتراكية والديمقراطية، أصبحت اليوم، واحدة من الموضوعات التي تتبناها الأحزاب الشيوعية التي ولجت طريق المراجعة والتجديد، وكذلك طيف واسع جدا من قوى اليسار الجذري في مختلف قارات العالم. المسألة الثانية المهمة هي كيفية التعامل مع الرموز فنحن عندما نتعامل مع المفكرين لا بصيغة ان ما قاله المفكر الفلاني هو قانون سواء كان ماركس، لينين، غرامشي، لوكسمبورغ، وغيرهم من الكبار والذين زودونا بثراء نظري. لكن الحياة وطبيعة الصراع وتفاصيل الصراع هي من تفرض طرح الاجابات المطلوبة في الفكر والممارسة. إن الأسئلة التي عاشها لينين ورفاقه في مواجهة الحرب الاهلية وفي مواجهة الصراع الداخلي وفي تقديمهم للإجابات وردود الفعل المطلوبة لا يزال الكثير منها قائما. فما زال اليسار يناضل في مجتمع رأسمالي، والرأسمالية مهيمنة

على الاقتصاد والإعلام والعسكر وبالتالي تشكل هذه الهيمنة عوامل ضاغطة. لذلك فان تحقيق الانتصارات وتعميق مسارها، امر ليس سهلا، وهو ما تؤكده تجارب يسار امريكا اللاتينية. واعتقد ان هذا طبيعي لان اليسار يعمل ويقاوم في ظل توازن قوى ليس في صالحه، وخط شروع غير عادل مع النظام المنافس. وهذا ما حصل في سنوات اكتوبر الأولى، حيث أدت سياسات وممارسات مفروضة، ضمن عوامل أخرى، إلى النهاية المعروفة للتجربة الاشتراكية. ومن الضروري الاشارة إلى أن الجذر النظري لهذه الممارسات، وأعني به المركزية الشديدة كانت قائمة في سنوات قيادة لينين للتجربة. وقام ستالين بتوظيفها بشكل سيئ واستبدادي. في ما يخص بعض الآراء التي طرحت بودي ان اشير بسرعة الى بعضها، ومنها السؤال الآتي: هل فعلا استطاعت الرأسمالية ان تحوي المقاومة؟ انا اعتقد ان صياغة السؤال ليست دقيقة بدليل، على الرغم من ان الكفة تميل لصالح الرأسمال. واليسار في العالم يبحث عن اجابات واشكال جديدة كي يخرج من الازمة خصوصا بعد صعود اليمين الشعبوي، لكن الرأسمال لم ينجح في احتواء المقاومة، والدليل ما تشهده بلدان اوربا والعالم وما عشناه خلال سنوات اندلاع الازمة الرأسمالية في عام 2007/ 2008 من حركة احتجاجية وانشطة اجتماعية متنوعة.

إن طبيعة ومفهوم الطبقة العاملة قد تغير. وجوهر ما يناضل من اجله الماركسيون هو تحقيق الاشتراكية والعدالة الاجتماعية لا يزال مطلوبا، ولكن القوى الاجتماعية التي تناضل من اجل هذا البديل وتحقيقه، لا تنحصر بالبروليتاريا الصناعية الموجودة قبل 100 عام. وهذا الموضوع بحاجة الى دراسة وفي العالم حاليا الكثير من الدراسات في هذا الخصوص ونحن في العراق وخصوصا بالنسبة لنا كناشطين يساريين فانه من الضروري جدا الانتباه لهذه القضية؛ فالصراع لا يزال قائما ويتمحور على قضيتين اساسيتين: توظيف فائض القيمة وتوزيع الثروات في المجتمع وسلوك الرأسمال هنا لم يتغير، فهو يعتمد نفس الطريقة القائمة على الاستغلال وعلى ادامة سلطته، لذلك يطالب اليسار بإعادة توزيع الثروة، وتوظيف فائض القيمة لصالح اوسع الاوساط الاجتماعية وهذه القضية لا تزال مستمرة. لقد غير التطور العلمي والتكنولوجي من طبيعة الطبقة العاملة، لذلك المطلوب منّا كيسار الا نتخاذل من جهة، ولا ان نبالغ من جهة اخرى خصوصا عندما يشار الى ان الطبقة العاملة كانت تمثل 80% من المجتمع، والان اصبحت 20% ... الخ، فالحديث اليوم يدور حول العاملين، ولا ينحصر بالعمال الصناعيين. والعاملون بمفهوم اليوم هم الطبقة العاملة، بالمفهوم الكلاسيكي.

هناك مسائل مهمة وضرورية ايضا برزت من خلال الحوار الذي جرى ومنها نحن فعلا بحاجة الى تعريف الشباب وتثقيفهم ـ نساء ورجالا ـ وهذه المهمة هي مهمة الجميع فكل عراقي يدعي انه من انصار اليسار والبديل الاشتراكي هو مسؤول عن هذه المهمة.

ثورة اكتوبر الروسية وهج دائم...

د.عبد جاسم الساعدي
رئيس جمعية الثقافة للجميع

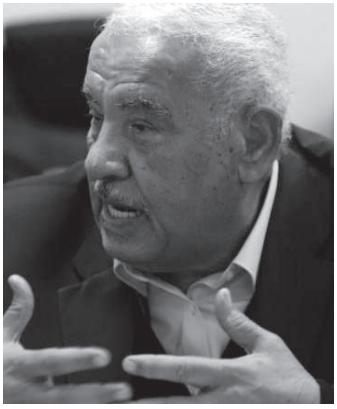

أقصد بالوهج/ الحضور والتفاعل والحياة الدائمة والانفتاح على الفكر الماركسي اللينيني، بمعنى ان هذا الوهج، لم يخفت بانكسار وتراجع روسيا ودول اوروبا الشرقية.

اشير أولاً، الى ان ثورة اكتوبر الروسية، كانت ثورة طبيعية أتت بعد صراعات ونضالات جماهيرية ووعي طبقي، اهتداء بالفكر الماركسي ونضج حركات وانتفاضات الفلاحين العام 1905.

والإشارة الثانية المهمة، ان ثورة اكتوبر تمثل الامتداد والتحول والانتقال في الوقت ذاته من الثورة الفرنسية العام 1789، فنقلت البشرية الى مرحلة جديدة، اضافة الى كومونة باريس العام 1781 يعلمنا التاريخ بان الانتقال من ثورة الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية ونشأة منظمات وحركات سياسية وثقافية وأدبية وفلسفية ذات سمات تنويرية ونهضة فكرية على الاقطاع والاستبداد الى ثورة اكتوبر الاشتراكية بمفاصل ورؤية فكرية وثقافية ومعرفية جديدة اقتربت من الهم الإنساني، وبسطت المعاني الجديدة للثورة والفكر والتنظيم السياسي. فالثورة خرجت من حدودها المحلية الى العالم في المنهج والرؤية والتحليل؛ إذ اشتغلت منذ بدايتها على بناء الثقة مع شعوب العالم وتواصلت مع الحركات والقوى المدنية والاجتماعية، كان منها: نداءات لينين، الارض لمن يحرثها، وكشف وثائق وأسرار الحرب العالمية الاولى منها: معاهدة سايكس بيكو ووعد بلفور. كما كان المؤتمر الاول لشعوب الشرق، اصدر في ختام اجتماعه "موضوعات في المسألة الزراعية"، واخيراً، "نداء مؤتمر شعوب الشرق الى عمال أوروبا وأمريكا واليابان...".

أضاء وهج الثورة وفتح آفاق المعرفة الثقافية والفكر برؤية طبقية، يمكن أن نجد لمساتها في المنهج والكتابة والدرس الاكاديمي والإبداع والتشكيل والسينما.

كما لمعت اسماء مهمة في التأريخ الفكري والسياسي واحتلت مساحة كبيرة في حركة التنوير والثقافة والوعي الاجتماعي، كما المفكر جان جاك روسو واينشتاين والمفكر

الانكليزي برتراند راسل Bertrand Ru-sell، وجد ماركس سلسلة من الابداعات الفلسفية والفكرية في التاريخ الحديث، كانت خلاصة ابحاث ورؤى ثقافية إذ رأى ماركس: بان الفلاسفة المتقدمين عليه، اشتراكيين وغير اشتراكيين، بأنهم قاموا بتفسير العالم فقط، ولكنهم اغفلوا المهمة الحقيقية، وهي تغيير العالم، هذا هو جوهر التربية الاشتراكية. وطور لينين، مفهوم التربية والتعليم لدى "توماس مور" و"ديمستانلي" حينما رأى استحالة تخيل المثل الأعلى لمجتمع المستقبل، من دون الربط بين التربية وبين العمل المنتج.

فوضع لينين بذور "التربية البولتيكنيكية" polytechnical education ، الذي تمت بلورته في المؤتمر للتربية لعموم روسيا، الذي عقد في 5 آب/ اغسطس 1931.

تشكلت عبر العالم، قوى وجماعات فكرية جديدة، يمكن أن نجد صداها وتأثيراتها من خلال منجزاتها الثقافية والنقدية، التي دخلت البيت والمدرسة والجامعة والمصنع، وصارت فضاء للجدل والحوار وحرية الرأي.

لا يمكننا الآن، الاستغناء عنها بعد مضي مئة عام من حضورها الفكري، ويمكننا الاستدلال بواحد من مئات النماذج الفكرية والثقافية والفلسفية التي تعمقت في استيعاب النظرية ووحداتها المنهجية. واشتغلت على تغيير العالم ومنهم المفكر الماركسي الجريء جورج لوكاتش György Lukács ، الذي ولد في بودابست العام 1885 وتوفي عن ستة وثمانين عاما في الخامس من تموز العام 1971، أسس مع زملاء له مجموعة "تاليا" للمسرح.

انتسب الى الحزب الشيوعي المجري، وصار مسؤولا سياسيا في الجيش الأحمر، خلال مدة ما كان يسمى، الجمهورية النيابية او جمهورية المجالس في المجر.

أشرف ابتداء من العام 1926 على معهد ماركس - انجلز - لينين. دار جدل بين المعنيين سمي "جدل لوكاتش"، تركزت مناقشاته حول نظرة جورج لوكاتش للديمقراطية. عين العام 1956 وزيراً للفنون الشعبية.

حققت اعماله الفكرية والأدبية صدى واسعاً في العالم، وبخاصة في الجامعة والدرس الاكاديمي. كان منها:

- طريقي الى ماركس – الفن والمجتمع - التاريخ والوعي الطبقي
- فلسفة الفن والجمال - نظرية الرواية - هيغل الشاب
- تاريخ تطور الدراما المعاصرة - البلشفية كقضية اخلاقية
- الاساس الاخلاقي للشيوعية - الحزب والطبقة
- في مسائل العمل الثقافي

كما برزت أسماء روسية قبل الثورة وبعدها... نجدها في اعمال:

- تولستوي وتشايكوفسكي ومكسيم غوركي وانطون تشيخوف والكسندر بوشكين وغوغول صاحب رواية "النفوس الميتة" وقصة "المعطف".

وفي الموسيقى تشايكوفسكي، وحصل العالم بافلوف ولادته 1849 – 1936، على جائزة نوبل في الطب العام 1940.

- ما المؤثرات الثقافية والفكرية والسياسية على بلدان عربية في الشرق الاوسط...

- ظهرت طاقات فكرية ونقدية في مصر كما نجدها لدى سلامة موسى وطه حسين

ونجيب محفوظ والروائية نوال السعداوي و"عبد الرحمن الكواكبي" إذ يعد من الجيل الاول الذي تفاعل مع الافكار الجديدة، أصدر كتابين هما "طبائع الاستبداد" و"ام القرى" استمد آراءه من فلاسفة ومفكري القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر.

استنكر الكواكبي حال التعصب الديني، ودعا الى حكم الشعب والى تكوين دولة عربية واحدة، ووضع الوطن فوق الدين، والوطنية فوق الخلافات الدينية.

• التفاعل والامتداد مع ثورة اكتوبر في البلدان العربية نجدها:

- بتلك الركائز النقابية والمدنية والثورية التي تأسس من خلالها الحزب الشيوعي المصري العام 1921، وكان سلامة موسى وأنطون مارون وعلي العتابي من المؤسسين، وكانت ولادة الحزب الشيوعي السوري العام 1924، وكذلك الحزب الشيوعي اللبناني...

- وظهر الرعيل الاول في العراق مستلهما ثورة اكتوبر/ الفكر الماركسي، كما نجدها لدى: حسين الرحال والكاتب محمود احمد السيد وعبد الله جدوع، وتواصلت مع المبدعين: ذو النون ايوب ومعروف عبد الغني الرصافي وجميل صدقي الزهاوي، وحركة الصحافة والترجمة كما لدى روفائيل بطي، وعبد الله كوران ومحمد مهدي الجواهري...

- يذكر ان تأسيس الحزب الشيوعي العراقي كان العام 1934.

الثورة واللغة والانتماء الى الجماهير

اللغة هذا الكائن الحيوي الاكثر تفاعلاً وحيوية وتغييراً، يجد نفسه في خضم الصراعات، يجد نفسه مع مفردات ومفاهيم الثورة، وتداخل قضايا الصراع الطبقي والوعي الثوري والنقابي وحقوق الانسان والطبقة العاملة والمرأة في الحياة اليومية وتأخذ شكلا من اشكال العمل الجمعي والتنظيمي.

وتفاعلت لغة القصة والرواية والمسرحية وحتى الشعر، مع لغة الحداثة والثورة والانتماء الى الكادحين، كما نجدها في مؤلفات المفكر جورج لوكاتش ودوستوفسكي واريك فروم وألتوسير، وتسري اللغة نفسها في مفاهيمها الجديدة على الرواية والسرد القصصي في البلدان العربية، فاقتربت المعاني من القراء، وشكلت وحدات ثقافية ومعرفية في الصراع والانتماء الى جماهير الشعب والكادحين، والى الحوارات بين الكتاب وقرائهم...

فشكلت منظومة لغوية بدلالاتها الفكرية وعمق التداول بها، في مستوى الكتابة والقراءة والحوار، حتى بات "المصطلح" يعبر عن نفسه بمقدار حضوره اليومي...

ولمناسبة الذكرى المئوية للثورة، يجدر بنا ان نستفيد من المنهج الماركسي في قراءة حال العراق، وتفكيك ازماته والسعي للاشتغال على ضوء نظرية المفكر الاميركي هنري جيرو في موضوعة الثقافة النقدية وإمكانات تفعيلها لخلق وعي جديد، يدخل في عمق الازمات بخاصة التربية النقدية.

وسيظل هذا المفكر الماركسي حيويا ان استطعنا قراءته والحوار في مدى استيعاب نظريته النقدية التي تشتغل على النقد والاحتجاج وخلق بيئة ثقافية جديدة...

2017/ 12/ 19

ثورة اكتوبر 1917 وتأثيرها على العراق

د .سيف عدنان ارحيم القيسي
الجامعة العراقية - كلية الآداب

مقدمة

قد يصح أن نعد الحرب العالمية الاولى بأنها حدث يفصل بين عهدين متمايزين في العالم هما عهد التغير البطيء وعهد التغير السريع. وهناك فرق كبير جداً بين العهدين من الايام، فلا يظهر فيه صراع عنيف أو تناقض بين القديم والجديد، خلاف ما يحدثه التغير السريع. وان يصح ذلك عد ثورة اكتوبر ضمن التغير السريع الذي غير ميزان القوى في العالم وأحدث تصدعا لم تألفه المجتمعات من قبل، فهل تأثر المجتمع العراقي بهذا التحول؟

وما يؤكد ذلك انه ما من مؤرخ او سياسي مطلع بوسعه الا يعترف بان ثورة اكتوبر هي اهم حدث سياسي واجتماعي في العصر الحديث، وأنها كانت بداية تبدل تاريخي في جميع انحاء العالم، وقد كتب في هذا الشأن غاندي ونهرو وعبد الناصر ومئات غيرهم.

لم تقتصر اجراءات البلاشفة على تغيير الوضع الداخلي بل توجهوا هذه المرة لنقل تجربتهم للمجتمعات الاخرى. فعندما وجه قادة ثورة اكتوبر نداء في 3 كانون الاول 1917 الى جماهير الشغيلة المسلمين في روسيا والشرق، محاولين ان يعطوا ثورتهم بعداً أممياً جاء فيه: ”ايها الرفاق الإخوان، ان احداثاً عظيمة قد حصلت في روسيا. ان الحرب البربرية التي ابتدأت لتقسيم الاقطار الخارجية قد اوشكت على الانتهاء، لا تضيعوا اوقاتكم تخلصوا من نير المستعبدين لا تدعوهم بعد الآن ينهبون بيوتكم، يجب ان تكونوا انتم انفسكم أسياد بلادكم“.

وفي محاولة من البلاشفة، للفت انظار شعوب العالم الى ثورتهم الجديدة، وأنها تعارض السياسة الاستعمارية التي رسختها الاتفاقيات السرية ومنها اتفاقية سايكس - بيكو 1916، عندما عثروا على الاتفاقيات السرية في سجلات وزارة الخارجية القيصرية، فأوصلوها الى السلطات التركية التي بدورها ارسلتها بيد رُسل سريين الى الشريف حسين بن علي، لتبين خيانة بريطانيا لقضيتهم.

وبدأت خطوات البلاشفة تطبيق النظرية الشاملة ذات البعد الاشتراكي من خلال توحيدها في دول العالم. ولهذا دعا (لينين) الى

عقد الأممية الثالثة في آذار 1919 في موسكو بقصد توحيد الحركات العمالية والإسراع في عجلة التاريخ نحو الثورة الشاملة وقد ترتب على ذلك تشكيل الكومنترن في 1919 الذي كان له دور في نقل التجربة الشيوعية والتبشير بها الى دول العالم.

بدأت أولى المحاولات من اجل انشاء الاحزاب الشيوعية في بلدان الشرق والمنطقة العربية بعد تأسيس الأممية الثالثة (الكومنترن) وظهر أول نشاط للأممية الثالثة في أعقاب مؤتمرها الثاني الذي عقد في موسكو (19 تموز - 2 آب 1920) والذي ناقش قضية المستعمرات والقضايا الوطنية، ما دفع اللجنة التنفيذية للأممية الثالثة الى اصدار نداءات الى فلاحي الاناضول (تركيا) وعمال وفلاحي إيران وأرمينيا تحرض على الثورة. وقررت الأممية الثالثة، في مجال نشاطها لنشر المبادئ الشيوعية، الدعوة إلى عقد مؤتمر لشعوب الشرق في باكو - اذربيجان استمر من (1 - 8 ايلول 1920) وكانت نسبة تمثيل العرب ثلاثة فقط. ويعتبر انعقاد مؤتمر باكو والنداءات التي أصدرها الى فلاحي العراق وسوريا والجزيرة العربية للثورة على البريطانيين والفرنسيين بداية توجه الأممية الشيوعية إلى الوطن العربي.

البدايات الاولى

كان العراق من ضمن الاهتمامات الروسية قبل قيام ثورة أكتوبر، فقد ارادت روسيا القيصرية استغلال الظروف التي استجدت بسبب الحرب العالمية الاولى، للاقتراب اكثر ما يمكن من العراق وتحويله الى اداة جديدة في سياساتها إزاء المنطقة. وعلى غرار الإنكليز، حاول الروس استغلال العتبات المقدسة العراقية في الحملة الدعائية للحلفاء ضد المانيا والدولة العثمانية، وهو ما كان فعلاً من ضمن نشاطات وزير الخارجية الروسية (سازانوف) الذي كان يؤكد في احدى مراسلاته مع الدبلوماسيين الروس والتي تعود الى 11 ايلول 1915 على ضرورة "الاهتمام بمدينتي النجف وكربلاء، وتحريرهما من ايدي الاتراك، لما لهاتين المدينتين من تأثير مباشر في نفوس العراقيين".

ان الاهتمام الروسي بالعراق لم يكن حديث عهد، ولكن هذه المرة ان من بدأ يتأثر بما حدث في روسيا هم العراقيون، لما احدثته ثورة اكتوبر الاشتراكية من تأثير مباشر في اماكن اشتعالها، في حين كان تأثيرها غير مباشر وواضحا في الشعوب المضطهدة التي كانت تصلها اخبار ثورة البولشفيك، ثورة العمال والفلاحين الفقراء، بشكل منتظم ودائمي.

فكان العراق من ضمن الدول التي تأثرت بشكل غير مباشر بتلك الثورة، وهذا يعود الى جملة امور من بينها، ان العراق محاط بمناطق قلقة خلال فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى؛ فالعراق دولة محتلة من قبل بريطانيا، بعدها بدأت بريطانيا تأسيس الإدارة على أسس جديدة، رغم أنها لم تلغ الإدارة القديمة بكل امتداداتها، إنما على بعضها إيماناً منها بالتغيير التدريجي لتركة قرون طويلة. والعراق محاط بمناطق غير مستقرة، فإيران كانت ضمن الصراع البريطاني - الروسي القيصري، وتركيا كانت أيضاً ضمن صراعين؛ صراع داخلي بين حكومة الأناضول وحكومة الأستانة.

وصراع خارجي مع الحلفاء، وسوريا احتلها الفرنسيون على وفق اتفاقية سايكس - بيكو، وحتى السياسة البريطانية في العراق كان يتجاذبها طرفان من المؤسسة البريطانية، حكومة الهند من جهة، والمكتب العربي في القاهرة من جهة اخرى، ليحسم الموقف أخيراً للمكتب العربي بفضل تأثير ثورة العشرين، والتي أربكت السياسة البريطانية في المنطقة.

مما لا شك فيه، ان التسلسل المنطقي لمعرفة أعمق التأثيرات لثورة اكتوبر على العراق ستقودنا في الحقيقة الى البحث عن البدايات الاولى لمعرفة العراقيين بتلك الثورة، والتي زاملت في الوقت ذاته الاحتلال البريطاني للعراق (1914 - 1918) حيث أصبح الجو بعد اعداد المقدمات، مهيئاً لتقبل الأفكار التي بشرت بها ثورة اكتوبر. لا سيما ان فضح البلاشفة للاتفاقيات السرية بين (بريطانيا وفرنسا) وصدور وعد بلفور في 2 من تشرين الثاني 1917 من قبل بريطانيا قد دفع بريطانيا وفرنسا الى الغاء اتفاقية سايكس - بيكو، والبحث عن بديل يطمئن العرب؛ فعملت بريطانيا على اصدار بيان وصفت فيه فضح اتفاقية سايكس - بيكو من قبل البلاشفة بانه "تلفيق صادر من البلاشفة".

مهما يكن من أمر، تعود بدايات معرفة العراقيين بأخبار ثورة اكتوبر الى روافد عديدة، فيذكر عبد القادر اسماعيل البستاني، وهو من رواد الفكر الاشتراكي الاوائل في العراق، عن مدى تأثير الثورة وهو لازال طفلاً صغيراً: "مرة جاء والدي حزيناً، بعد الحاح قال ان البولشفيك في روسيا ثاروا على الاغنياء وقسموا أموالهم على الفقراء، هذه اول مرة سمعت بها عن البولشفيك فأثر في نفسي النبأ، وذهبت الى جارتنا الخبازة المعدمة، التي كانت مهمة لي ولزملائي الاطفال فهي تمنحنا اقراص الخبز الصغيرة المحمصة مجاناً. نقلت لها الخبر ففرحت بشكل بيّن، وتركت التنور لتستجلي الخبر وصحته من ابي". ويروي البستاني قصة اقرب ما تكون اكثر قرباً من احداث الثورة فيذكر ان "ابن خالة أبي اسير عاد من قفقاسيا، اكد اعتزاز الروس بالإنسان، وقال لقد خيرنا البلاشفة بالبقاء مع اعطائنا ارضاً نزرعها، فالأملاك هناك صارت للبسطاء من فقراء الناس، منحتهم اياها الدولة التي هيمنت على الاراضي، وهذه الاخبار كانت تصادف هوى عند اوساط كادحة اذتها الحرب".

من بين روافد معرفة العراقيين عن احداث ثورة اكتوبر جاءت بشكل مباشر هذه المرة من القوات الروسية المتواجدة في جبال حمرين في شمالي العراق قبل ثورة أكتوبر، التي احدثت بدورها تحولا جوهريا في الإستراتيجية الروسية من الحرب؛ فعّبر الجنود الروس من جانبهم عن فرحتهم بقيام الثورة عندما عبر احد الجنود الروس نهر ديالى سباحة في 2 حزيران 1917 واخبر القطاعات التركية الموجودة في موقع (قلعة شيروان) على نهر ديالى، بأن الوحدات الروسية تلقت أمرا بوقف إطلاق النار. وقبل أن تعلن روسيا السوفيتية انسحابها من الحرب على اثر قيام الثورة، لتترجم القوات الروسية، من جانبها دعوات قادة الثورة لسحب قواتهم من جبهات القتال والدعوة الى السلام، وهو ما تناقله الجنود الروس بان ثورة شيوعية قادها العمال والفلاحون، قامت في بلادهم ما اثار ذلك الحدث في سكان المناطق التي تتواجد فيها تلك القوات.

وكان هناك رافد من روافد معرفة العراقيين بالثورة، وهذا الأمر يعد مستغرباً لأنه جاء مع القوات البريطانية هذه المرة، لا سيما من الجنود الهنود المجندين في القوات البريطانية الذين التقوا بالمواطنين السوفييت وبقطعات الجيش الاحمر، وتبادلوا الرأي معهم، ما ادى الى رفع وعي اولئك الجنود، ونقل هؤلاء الجنود معرفتهم بأحداث ثورة اكتوبر للعراقيين، الذين عملوا لدى القوات البريطانية، ومن خلال احتكاكهم بالناس الذين هم الاخرون يجمعهم التذمر ذاته من البريطانيين.

بدأت انباء الثورة تشيع بشكل مباشر بين اكراد العراق، من عدة طرق، اهمها ان الجنود والضباط العراقيين الذين اسروا من قبل الروس ورؤساء القبائل، الاكراد الذين كان الجيش القيصري اخذهم كرهائن، فك اسرهم بعد الثورة مباشرة، وهم يحملون أخبار تلك الثورة، اضافة الى ذلك ان الالوف من فقراء المناطق الايرانية والتركية المتاخمة لروسيا، كانوا يعبرون الحدود بحثاً عن العمل، وكان هؤلاء يرون بأعينهم التغيرات الاساسية التي كانت تحدث في روسيا، والتي بدأت تتناقل بشكل سريع بين العراقيين، بل وفي تقرير للميجر سون، حاكم لواء السليمانية العسكري في عام 1919 أي بعد عامين على الثورة، اشار في تقرير سري الى الحاكم العام في العراق (ارنولد ولسن) يذكر: "بأسف ان الناس هنا أخذوا لسوء الحظ يتفهمون افكار البلاشفة".

ان من بين أسباب تعلق العراقيين بأخبار ثورة اكتوبر يعود بالدرجة الاساس، الى ان بريطانيا عملت على وضع حكم اداري مشابه للحكم الذي وضعته في الهند، محاولة من خلاله ترسيخ بقائها في العراق، هذا من جانب. ومن جانب اخر عملت على استغلال رجال العشائر الاقطاعيين لترسيخ قوتهم وإقرار قانون (دعاوي العشائر العراقية) الذي بدوره اصبح قوة حقيقية مكبلة للفلاحين، يقابله تحطيم لنظام الاقطاع شهدته روسيا.

وبعد ان تحولت الخيبة التي دبت في نفوس المثقفين بسبب تبني بريطانيا سياسة تخالف تصريحاتهم بأنهم "جاءوا محررين وليس فاتحين" إلى عامل محرك جديد من نوع آخر بالنسبة للعراقيين الذين بدأوا يدركون بالتدريج حنث وعود الاستعماريين، ووعودهم لهم، فبدأوا يفقدون ثقتهم بهم وتحركاتهم. وفي خضم هذه التطورات بدأ مثقفو العراق يطلعون على أخبار ثورة اكتوبر عن طريق جرائد "العرب" و"الأوقات البصرية" و"تيكه يشتي راستي" الكردية، وغيرها من الصحف الموالية للاحتلال البريطاني التي حاولت ان تشوه أخبار الثورة، فتحدثت صحيفة "العرب" عن مبدأ الاشتراكية الذي تقوم الحكومة في ظله بحل "جميع المسائل الاجتماعية"، بل ان الحكومة تصبح "كعبة الامال الجديدة التي يحج لها الاشتراكيون على اختلاف مشاربهم". كما أن هذه الجريدة أظهرت في ثنايا بعض مقالاتها وبصورة غير مقصودة عجز الديمقراطية الغربية عن التصدي للفكر الاشتراكي؛ ففي أحد أعدادها ذكرت مثلاً أن "المبدأ الاشتراكي شرع بسحر النفوس بمواعيده الذهبية، وهذا مقدار يكفي للمذهب سواء كان فجر تلك المواعيد صادقاً أو كاذباً؛ فالمنطق مهما جاد، والضغط مهما عظم لا يقدر على كبح جماح البلشفية، ومما له مغزاه أن شكري الفضلي أحد مثقفي بغداد قاس صدى الثورة الروسية

بالثورة الفرنسية، من حيث سعة الانتشار في أوربا. وذكرت صحيفة العرب بهذا الصدد أن أوضاع روسيا ليست "بالأمر الخفي على الناس".

وفي خضم هذا الوضع الذي يحاط به العراق، الذي بدأت اخبار الثورة تتوارد بسرعة عليه فكان للأجانب القادمين او العاملين في العراق تأثير مناسب هو الآخر برغم محدوديته على الشباب العراقي المتعطش للفكر الجديد، وان من جملة المؤثرات الأجنبية: ان بعض الأجانب ممن يحملون الأفكار الاشتراكية قد جاؤوا الى العراق يبذرون هذه الأفكار، بمن يتصلون بهم كالمعلمة الامريكية المس (كير) وناظر المعارف (رايلي) بالإضافة الى (دونون مكنزي) صاحب مكتبة مكنزي، وكان الأخير يقوم باستيراد العديد من الكتب الماركسية باللغة الانكليزية لبيعها في مكتبته.

اضف الى ذلك ما يحمله زوار العتبات الدينية القادمين من ايران وهم يحملون اخبار تلك الثورة، باعتبارهم على خط التماس مع احداث الثورة. ففي تقرير للبريطانيين في العراق ذكر فيه "ان اخبار البلاشفة ومنشوراتهم متداولة في العتبات المقدسة من بينها كتاب (مبادئ الثورة) وهي تلقى لدى الناس عطفاً وتأييداً".

إن الامر لم يقتصر على وصول أخبار الثورة من الصحف والمجلات التي بدورها تناقلت النداء الذي وجهه المؤتمر الثاني للحزب الشيوعي الروسي عام 1920 حيث خاطب الشعب العراقي: "يا فلاحي بلاد ما بين النهرين ان الانكليز قد أعلنوا عن استقلال بلادكم إلا انه يوجد ثمانون الفا من جنود الاحتلال يعملون فيكم سلباً وقتلاً ويستبيحون اعراضكم".

رافق هذا النداء التهيئة لثورة 1920 في العراق ومحاولات البلاشفة الاتصال بالعراقيين. فقد احس الانكليز بوجود تحرك مؤيد للبولشفيك في العراق، وسجلوا في كتبهم ومذكراتهم التي الفوها عن العراق بعد فترة من الاحتلال. وهو ما اكده الحاكم العسكري الملكي في العراق (ارنولد ولسن) حين اشار الى "كان دعاة الحركة البلشفية يدخلون العراق في زي زوار وطلبة علم إيرانيين، ويعمدون الى توزيع المنشورات البلشفية التي سرعان ما باتت متداولة في العتبات المقدسة في العراق، وان هناك معلومات تشير الى تأسيس جمعية في العراق باسم الجمعية البلشفية".

ان ما ذهب اليه (هالدين) قائد الجيش البريطاني في العراق يناقض ما جاء به (ولسن). ويعتقد انها مجرد تكهنات عندما بيّن "أمن العسير ان يقرر المرء الدرجة التي تأثر الدعاة المرسلون الى كربلاء والنجف والكاظمية بالدعوة البلشفية، ويلاحظ ان احتلال انزيلي من قبل البلاشفة قبل اندلاع الثورة بقليل، يؤيد الى حد ما الاعتقاد القائل أن مكائدهم كانت سبباً من أسباب المشكلات التي جوبهنا بها".

وهو ما تؤكده (المس بيل) في رسالة لها الى والدتها في 12 - 1 - 1920: "والدتي العزيزة تقولين ان العالم يبدو عاصفاً كلما فتحت صفحات الجرائد للإطلاع على ما يدور من أحداث، أما هنا فأن المرء منا لا يضطر الى اللجوء الى الصحف لاكتشاف ما في هذا العراق، فالى الشمال منا يقف الأتراك ساخطين وهو لا يألون جهداً في ترويج الدعاية البلشفية المحرجة والتشجيع على نشر المبادئ الهدامة لهذه الحركة وهو

ما يقومون به بالعقل بل وما يقوم به الروس أنفسهم كذلك في الوقت الحاضر".

وحاولت جريدة "العراق" القريبة من البريطانيين ومن خلال صفحاتها مواجهة تأثيرات ثورة اكتوبر بعدما ايقنت ان هناك اتصالاً يجري في السر لتلعب بدورها على وتر حساس وهو الشعور الديني، عندما بدأت تربط الثورة بالدين الاسلامي فكتبت الجريدة عن "غاية البولشفيك في آسيا الوسطى والشرق الأدنى والأقصى، مبينة أن سمعة البولشفيك سيئة وان البلشفية لا تلائم الاسلام".

ومهما تكن صيغ التفاعل بين مثقفي المرحلة وطروحات العهد الجديد في روسيا فإنهم نبهوا السلطات البريطانية إلى ان عليها ان تعيد النظر في سياستها لأن هناك قوة اخرى كبيرة في العالم، بل وان اهالي بغداد طلبوا من الحكومة المحتلة الحرية التامة في طبع المنشورات والجرائد وهددوهم بالاتفاق مع الحزب البلشفي ان لم تمنح البلاد الاستقلال التام.

وسخّرت سلطة الاحتلال البريطاني من جانبها كل ما لديها من اعلام لتشويه مفهوم الاشتراكية ونشر اخبار كاذبة أو مبالغ فيها عن روسيا بعد ثورة 1917، ومع ذلك فأن هذه الدعاية السيئة ضد الاشتراكية، كانت لا تخلو من معلومات عن محاسنها وكشف بعض الحقائق عن طبيعتها مما يولد لدى القارئ انطباعاً عن اهميتها.

ففي تقرير بريطاني خاص بقسم التحريات التابعة لجهاز شرطة الاحتلال البريطاني يعود لعام 1919 اشار هذا التقرير الى "استغلت بعض العناصر المتنورة اسم البلشفية لإذكاء روح العداء للوجود البريطاني بأن هناك شخصين هما مهدي المدرس من باب الشيخ وعلي الطائي يعملان على اثارة المشاعر المعادية لبريطانيا والثناء على البلشفية في مقهى خضر في منطقة الباب الشرقي ببغداد، وان السلطة وضعتها تحت المراقبة".

وورد في تقرير اخر للشرطة يزامن التحضير لثورة العشرين، يعود الى 17 كانون الثاني 1920 جاء فيه: "إن حديث البلشفية في بغداد يتزايد"، وفي تقرير آخر ارفق البيان الذي وزع في أيار 1920 بأنه تم توزيع بيان تحت مسمى (منفستو) بلشفي، مكتوب بالعربية في انحاء الشرق الاوسط، يحث العرب على الانتفاض باسم الاسلام جاء فيه: "إن روسيا قد ساعدت الشرق بكل ما لديها من قوة على استعادة تقاليده وحريته وأمكنته الدينية كما يشاء سكانه، والآن وكما ساعدتكم روسيا، فإن عليكم يا أيها المسلمون في الشرق، سواء منكم الاتراك او العرب، الهنود او الايرانيين، أن تساعدوها كذلك بكل ما لديكم من وسائل لعلها تستطيع ان تخرج حقوقكم الى النور".

ويحاول بعض الباحثين ان يربط بين هذا النداء، وبين ثورة 1920 في العراق حيث كانت الاخيرة محل اهتمام السوفيت من خلال الرسائل المتبادلة بين بعض قادة الثورة وبين البلاشفة في حين حسمت بريطانيا في تقرير لها عن الاسباب الخارجية لثورة العشرين، فيذكر أحد التقارير "بأن ما حدث في العراق هو شأن داخلي وأن تأثير البلاشفة يأتي في الدرجة الثالثة"، في حين اشار التقرير الى حصولهم على برقية "لاسلكية بلشفية من الرشت تذكر أن ميرزاخان (محمد تقي الشيرازي) الذي يعمل في كربلاء هو

الذي سيرأس حركة تحرير العراق من البريطانيين".

ان ما ذهبت اليه مجلة (الثقافة الجديدة) في عددها (67) عندما نشرت جواب رئيس الأممية الشيوعية على الرسالة التي بعث بها ممثلو شعب بلاد الرافدين الى الكومنترن مع بعض الحقائق التاريخية الاخرى، والجواب هذا كان ردا على رسالة قادة ثورة العشرين في كتاب "الحقائق الناصعة" لمؤلفه مزهر الفرعون، وهو ليس كذلك. ان الوثيقة التي نشرتها (الثقافة الجديدة) تخص الرسالة الموجهة الى الاممية الشيوعية حصراً من القادة الذين ابعدتهم بريطانيا عن العراق، وهم محمد الصدر ومحمد مهدي الخالصي، وحلمي العمر وآخرون، الذين رفعوا مذكرة الى الحكومة السوفيتية جاء فيها: "نحن الموقعين ادناه كبار زعماء ميزوبوتاميا الممثلين في لجنة الدفاع الوطني، مقدرين الموقف الصادق لدولتكم، تجاه الشعوب الصغيرة. نرفع لكم المذكرة التالية لترفعوها بدوركم الى مؤتمر لوزان. ان شعب ميزوبوتاميا (ما بين النهرين - المحرر) بأسره قلق بسبب خرق استقلاله، جراء التدخل في شؤون ميزوبوتاميا، وانه لا يوافق ابداً على معاهدة التحالف المعقودة في 10 تشرين الاول 1922 والتي هي لذلك مجردة من المفعول القانوني".

وحاولت (الثقافة الجديدة) بدورها في عدد (69) الصادر في الاول من كانون الثاني 1975 ان تفند ما جاء في ما ذكره فريق مزهر الفرعون في كتاب "الحقائق الناصعة". وان ما نشره كان مذكرة احتجاج الى حكومات (الولايات المتحدة الامريكية، فرنسا، روسيا، تركيا، هولندا). في 16 - 10 - 1920 غير انها لم تصل الى الكومنترن إلا في 21 - 12 - 1922، معللاً سبب تأخير وصولها "فنسخ حكومات تركيا وروسيا وإيران ارسلت بيد معتمد الامام شيخ الشريعة وهو الشيخ محمد رضا الايرواني، وفي حدود ايران خبأها في مكان هناك، خوفاً من العثور عليها من قبل موظفي الحكومة المحتلة (بريطانيا) او الحكومة الإيرانية، وبقي حتى تلاشت الثورة، وهاجر بعض زعمائها من العراق، واتجهوا لمختلف الأماكن، فكان السيد كاطع العوادي ممن ذهب الى ايران، وسأل عن الشيخ الايرواني، ولما اتصل به سأله عن الاحتجاجات، فقال له اودعتها عند عباس بن داود رئيس عشائر كولهور من عشائر ايران، في قصر شيرين، خوفاً من العثور عليها، ومجازاتي من اجل حملها، فجلب الاوراق بأجرة من قصر شيرين فوزعها السيد كاظم بيده، وبقيت نسخة الحكومة الروسية حيث ان السفير الروسي يتكتم كثيراً في مواجهة العراقيين، مخافة من السفير البريطاني، فكان الوسيط بين السيد كاطع وسفير الاتحاد السوفيتي هو السفير الافغاني الذي اخذه وأوصله لهم".

فيشير الشيخ محمد مهدي الخالصي في مذكراته، وهو من بين من تبادل الرسائل من لينين فيذكر خلاف ما ذكره البعض بأن الرسائل تعود الى عام 1920 في حين ان هناك مراسلات اخرى تعود الى ايام نفيه من العراق في ايران عام 1922 حيث يذكر "كنت منفياً في ايران زمن حكم لينين في الاتحاد السوفيتي، فاتصل بي وكتب الي كتاباً يقول فيه إن السوفيت لا طمع لهم في البلاد الاسلامية وغاية ما يطلبونه استخلاصها من أيدي المستعمرين، وأنهم مستعدون لمعاونة

البلاد الإسلامية بكل ما يستطيعون لإنقاذها من يد المستعمرين الانكليز، ومما قاله لينين في رسالته إنهم لا يمانعون من نشر التعاليم الاسلامية في الجمهوريات السوفيتية المسلمة. ودامت المذكرات بيننا وبين لينين بواسطة سفيره في طهران (شومياتسكي) ومعاونه (ابرسوف) والملحق العسكري (والدين) وجرى الحديث حول معاونة العراقيين عسكرياً لاستنقاذهم من الاحتلال الانكليزي بمعونة سوفيتية، وقبل ان يصل المدد ويشرع العراق بالثورة، مات لينين وأعقبه ستالين فجرى خلاف ما كان قرره لينين وسلك نهجاً مغايراً".

ان المراسلات لم تقتصر على قادة ثورة العشرين بل ان الشيخ محمود الحفيد البرزنجي هو الآخر كان له نصيب منها؛ ففي رسالة له في العشرين من كانون الثاني 1923 الى الحكومة السوفيتية والتي ارسلها بواسطة القنصل السوفيتي في تبريز جاء فيها: "فعندما دوى صوت الحرية الحقيقية في عام 1917 وسمع العالم ان الشعب الروسي تخلص من الظلم والطغيان استقبلت جميع الشعوب المظلومة على وجه الارض هذا الصوت بحرارة وبدأت النضال في سبيل الحرية".

على الرغم من تلك المراسلات، فأنها لا تعدو ان تكون محاولات لإقامة قنوات اتصال وتقارب مع السوفيت، ليس إلا بعد ان ايقنوا حنث بريطانيا ووعودها لهم ولاسيما مع وصول جوزيف ستالين الى راس الحزب الشيوعي السوفيتي الذي كان له موقف اخر من التقارب على ما يبدو. ان موقف ستالين المغاير عن موقف لينين لبناء تنظيمات شيوعية في بلدان الشرق ومنها العراق، له من المبررات. ومن بين ما ذكره ستالين عن اسباب وتقدم وتطور التجربة الشيوعية في روسيا عن سواها، قوله: "نجد في الميدان الاقتصادي ان اكتشاف وتطبيق قانون جديد يمس مصالح قوى المجتمع الصائرة الى الزوال يلاقيان من هذه القوى اعنف مقاومة، فلا بد اذن من قوة اجتماعية في وسعها التغلب على هذه المقاومة وقد وجدت هذه القوة في بلادنا بشكل تحالف الطبقة والفلاحين الذين يؤلفون معاً اكثرية المجتمع، وهذه القوى لم توجد بعد في البلدان الاخرى".

بالرغم من ان ثورة العشرين قد دفعت الحكومة البريطانية الى البحث عن نظام حكم بديل لحكمهم المباشر، يخفف على كاهلهم التبعات المالية والسخط الشعبي تجاههم، لكن في حقيقة الامر ان سياستهم تلك لم تلق قبولاً في نفوس العراقيين، بعدما عملت بريطانيا على القيام بإجراءات عديدة ومتشابكة، من أجل تأمين مصالحها في العراق، وفرض معاهدة جديدة على العراق في عام 1922 لتكون صورة من صور صك الانتداب. ونتيجة تلك السياسة زادت من تقبل الافكار الاشتراكية بشكل اوسع من قبل، بعد نكث بريطانيا وعودها للعراقيين بحق تقرير مصيرهم.

مهما يكن من أمر، فان ما ذكرته المصادر التاريخية هي اقرب ما تكون لتكهنات عن بدايات الاتصال الرسمي بين الكومنترن والعراق، وإنما اخبار داولتها الصحف والمجلات وزوار العتبات الدينية القادمين من إيران. وهذا التأخير في حقيقة الامر يعود الى هيمنة بريطانيا على وسائل الاعلام، اضافة الى دور جهاز الشرطة السري الذي اخذ يتعقب من تشم منه رائحة المعارضة،

والاهم انشغال قادة ثورة اكتوبر بتوطيد جبتهم الداخلية.

وعلى الرغم من تشدد سلطات الانتداب البريطاني على العراق في استيراد أي مطبوع يطبع في الاتحاد السوفيتي، فقد تعددت طرق دخول الافكار الماركسية في العراق؛ فقد مثلت المطبوعات التي بدأت تدخل الى العراق بداية عشرينيات القرن العشرين، مثل مجلة الحزب الشيوعي البريطاني والمطبوعات المصرية ذات التوجه الاشتراكي، مثل مجلة ''المقتطف''، أي ان روافد التأثير الاشتراكي كانت مقتصرة على الادبيات والمنشورات الماركسية ليس إلا.

يبدو انه كان لهذه الادبيات دور في خلق جيل واع من الشباب المثقف، الذين بدأوا يفندون ما تحمله الصحف الموالية للبريطانيين، والتي تشكك بالتجربة البلشفية؛ فعندما كانت مناهج كتب القراءة المدرسية تحتوي على هجوم على الشيوعية، بدأ بعض المتنورين من المعلمين يتصدون لها، فعلى سبيل المثال كان الشيخ عبد المجيد راغب معلماً في مدرسة المأمونية، كان ينبه طلبته الى الشيوعية والبلشفية. ويذكر مصطفى علي، احد رواد الفكر الاشتراكي ''كان في القراءة هجوم على الشيوعية إلا ان معلمنا نبهنا قائلاً هذا الكلام لا تصدقوه''.

مهما يكن من أمر، يمكن اعتبار ان حسين الرحال، هو اول من شكل حلقة اشتراكية فعلية في العراق في عام 1922، وتأثر الرحال يعود لدراسته في المانيا، خلال الحرب العالمية الاولى (1914 - 1918) وهناك تأثر بمبادئ الحزب الديمقراطي الاشتراكي الالماني، وبعصبة سبارتاكوس العمالية. لم يدرس حسين الرحال المذهب الاشتراكي دراسة اكاديمية منظمة، وإنما اطلع على كتابات كارل ماركس. وما كانت تنشره بعض الصحف مثل جريدة ''اللومانتيه'' الفرنسية، اضافة الى ذلك اطلاعه على الادبيات ذات الطابع الماركسي الاخرى، ساعده في ذلك اجادته لغات متعددة، عمقت من وعيه المعرفي، وقرأ ما حدث في روسيا القيصرية من ثورة مشابهة الى ما حدث في المانيا من ثورة عمالية الى حد ما.

وعندما عاد الرحال الى بغداد واصل اتصاله بالفكر الاشتراكي العالمي، وقد استطاع ان يقنع صاحب المكتبة العصرية محمود حلمي، بان يقوم باستيراد النشريات الاشتراكية عن طريق وكلائه في الخارج. وعن طريقه قرأ اول كتاب للينين ''الاستعمار اعلى مراحل الرأسمالية'' و''الدولة والثورة''. وبدأ حسين الرحال يتردد على محمود احمد السيد، وكان والد محمود احمد امام جامع الحيدرخانة، وكان الرحال والسيد وأعضاء جدد للحلقة، يجتمعون في احدى غرف الجامع، وكانت الحلقة تحمل شعارا باسم ''الرب والشعب''، وهو شعار للثوار الايطاليين وهو يعني تحرير الشعب من الشعوذة والإيمان بالشعب. وفي عام 1923 وضعت الشلة تقريراً مفصلاً عن الوضع في العراق، شرحت فيه الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والطبيعية، كما اكدت فيه على ظروف الاستغلال الاستعماري. وقد رفع هذا التقرير هو الآخر الى لينين بعد ان تمت ترجمته للغة الفرنسية، وقد سافر كمال ـ احد اعضاء الحلقة ـ الى طهران وتسليمه للسفارة السوفيتية، وأصدروا جريدة عرفت بـ ''الصحيفة'' في عام 1924 وصدر منها اربعة (ستة) أعداد، اغلب مواضيعها، كانت ذات طبيعة اجتماعية، تتناول تخلف المجتمع

بالدرجة الأساس، بالرغم من ان الرحال يعد هو من بدأ طرح الفكر الاشتراكي واقعياً، إلا انه لم يستمر طويلاً في هذا الطريق الشاق، لبناء تنظيم ماركسي في العراق؛ اذ سرعان ما تفرق شمل المجموعة مع ظهور اولى الصعوبات أمامها. لم يكن لدى جماعة الرحال الخبرة السياسية والنظرية الثورية والممارسة التنظيمية، وبالأخص في التنظيم الحزبي السري، وبالأحرى الاستعداد لاحتراف العمل السياسي، ونبذ اساليب الهواية. ولم تبرز مثل هذه المؤهلات والتي هي شروط ضرورية ومستلزمات التنظيم الشيوعي في بلد متخلف جداً، إلا بعد ذلك ببضع سنوات.

بدأ اهتمام الكومنترن بشكل رسمي، بالعمل على ايجاد كادر، يأخذ على عاتقه دراسة الفلسفة الماركسية ـ اللينينية، ترعاهم مدرسة خاصة لتدريبهم، فأنشأ الكومنترن عدداً من المدارس الحزبية بعد اعداد الكوادر. ومن هذه المدارس ''الجامعة الشيوعية لشعوب الشرق'' التي تأسست في 1921.

وبدأ الكومنترن على عاتقه ارسال ممثليه لدول الشرق، ومنها العراق، لإيجاد موطئ قدم لهم وإيجاد كادر من العراقيين، يأخذ على عاتقه العمل لإقامة التنظيمات الشيوعية. وفي عام 1922 عندما ارسلت (بيتر فاسيلي) مندوباً عن الكومنترن، وهو بلشفي ولد في ''تفليس'' عاصمة جورجيا، وهو ضابط سابق في الجيش الروسي، عاش متنقلاً بين البصرة وبغداد وبعقوبة والسليمانية، ليستقر به المقام في الناصرية، ليفتتح محلاً للخياطة، ويبث من خلاله الفكر الاشتراكي. وكان يوسف سلمان يوسف من المترددين على محله.

وجدت القضايا العراقية مكاناً لها على صفحات الصحافة الشيوعية التابعة للسوفيت، منها ''الشرق الجديد''، ''الشرق الثائر''، ''الاممية الشيوعية''، ''الانبريكور''. كما أن النشرة الاسبوعية للكومنترن أخذت تنشر المقالات والتحليلات حول ما يدور في العراق. فقد نشرت ''الانبريكور'' مثلاً مقالاً في عام 1931 بعنوان ''الاضراب السياسي الجماهيري في بغداد'' تناولت الاضرابات العمالية التي جرت في صيف 1931.

حيث نظم يوسف سلمان يوسف (فهد) اولى الخلايا الشيوعية في الجنوب، في عام 1932 في وقت زامن ظهور جماعة ''الاهالي''. وفي 31 اذار 1934 عقد اجتماع سري لشيوعيي العراق في بيت من بيوت بغداد، لتتوحد الحلقات الماركسية تحت مسمى ''لجنة مكافحة الاستعمار والاستثمار''، وانتخاب عاصم فليح سكرتيراً للحزب، وكان عائداً من موسكو حديثاً، بعد ان درس في مدرسة شيوعيي الشرق، زهاء ثلاث سنوات، أي ان الخطوات لبناء تنظيم ماركسي في العراق، يعود لبداية الثلاثينيات. وقد سددت الاممية الشيوعية الخطوة الاولى للحزب الشيوعي العراقي، ورعته رعاية خاصة. وحضر قاسم حسن ممثلا عن الحزب كرقيب اجتماع المؤتمر السابع العالمي للأممية الشيوعية المنعقد في موسكو في تموز - اب 1935 وشارك في اعماله فهد الذي كان يدرس في مدرسة كادي الشرق، لكن الحزب تعرض للانقسام والملاحقة، ولم يستمر طويلاً إلا بعد عودة فهد من الدراسة في عام 1938 وهو يحمل ثقافة ماركسية خاصة جعلته يحترف العمل الحزبي، ليعمل على اعادة وبناء الحزب من جديد.

المصادر والمراجع

- (الثقافة الجديدة)، العدد 69، كانون الثاني 1975.
- أ. ن خيفيتس، ثورة اكتوبر وشعوب الشرق المضطهدة، موسكو، 1959.
- أرشد الكاظمي، بواكير الفكر الاشتراكي في العراق، (الثقافة الجديدة)، العدد 4، نيسان 1975.
- الفريق س. المر هولدين، ثورة العراق 1920، ترجمة: فؤاد جميل، دار الرافدين، بيروت،2010.
- أليزابيث بيرغوين، جيرترود بيل (من أوراقها الشخصية 1914 - 1926)، ترجمة: نمير عباس مظفر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2002.
- جورج لنشوفسكي، الشرق الأوسط في الشؤون العالمية، ترجمة: جعفر خياط، جزأن، مكتبة دار المتنبي، بغداد، 1964.
- حسن علوان ياسين، الثورة الروسية وأثرها على المشرق العربي والإسلامي 1917 - 1924، دار الجواهري، بغداد، 2012.
- حمدان يوسف، شيء عن الكومنترن وحركة التحرر العربي، (الثقافة الجديدة)، العدد 76 - 77، 1975.
- حنا بطاطو، العراق، 3 اجزاء، منشورات دار القبس، الكويت، 1992، ج2.
- زكي خيري، الحزب الشيوعي العراقي نضال متواصل، (الثقافة الجديدة)، العدد 4، نيسان 1975.
- ستالين، القضايا الاقتصادية للاشتراكية في الاتحاد السوفيتي، مكتبة المطبوعات الشعبية، دمشق، 1953.
- سمير عبد الكريم، اضواء على الحركة الشيوعية في العراق، ج اجزاء، دار المرصاد، بيروت، ج1.
- صفاء الحافظ وسالم المندلاوي، ذكريات من ادب العشرينات (حوار مع الاستاذ مصطفى علي)، (الثقافة الجديدة)، العدد (76 - 77)، اب 1975.
- صلاح الخرسان، صفحات من تاريخ الحركة الشيوعية في العراق، دار الفرات، ص17.
- عبد الرحمن صالح إدريس، سياسة بريطانيا تجاه كُرد العراق، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد، كلية التربية (ابن رشد).
-عبد العزيز سليمان نوار وعبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر أوربا، دار النهضة العربية، 2009.
- عبد الرزاق مطلك الفهد، بدايات الفكر الاشتراكي في العراق 1917 - 1936، مكتبة احمد الدباغ، بغداد، 2002.
- عبد اللطيف عبد الرحمن الراوي، الفكر الاشتراكي في النقد والأدب العراقي المعاصر 1918 - 1958، اطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الاداب، 1975.
- علي التلعفري، ملاحظات على الرسائل المتبادلة بين قادة ثورة العشرين والأممية الشيوعية، (الثقافة الجديدة)، العدد 69، كانون الثاني 1975.
- علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، 6 أجزاء، دار الراشد، بيروت، ط 2، 2005.
- غضبان السعد، ملاحظات حول تاريخ سنوات الاحتلال البريطاني للعراق 1914 - 1918، (الثقافة الجديدة)، العدد11، 1975.
- فاروق صالح العمر، ثورة أكتوبر البلشفية 1917 وتأثيراتها في أوربا – تركيا - العراق في ضوء الوثائق البريطانية، دار ومكتبة البصائر، بيروت، 2013، ص93.
- فاضل حسين، الفكر السياسي في العراق المعاصر 1914 - 1958، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1984.
-كمال مظهر أحمد، العراق وإيران بين سازانوف وغراي (وثائق)، مجلة "افاق عربية"، العدد 2، السنة الثامنة، 1982.
- محمد مهدي الخالصي، مهدي الخالصي في سبيل الله "سيرة ذاتية ومذكرات جهادية" للفقيه المجاهد الامام الشيخ محمد الخالصي 1891 - 1963، دار المحجة البيضاء، بيروت، 2016.
- مؤيد شاكر كاظم الطائي، الحزب الشيوعي العراقي 1935 - 1949(دراسة تأريخية)، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية، الجامعة المستنصرية، 2007.

الرأسمالية والماركسية.. بعضٌ من احتمالات المستقبل

سعد محمد رحيم
كاتب وروائي

أريقت آلاف الأطنان من الحبر للحديث عن ثورة أكتوبر، قيامها وصعودها ومن ثمّ تقهقرها وانتكاستها الأخيرة.. وقد قيل كلام كثير عن أسباب ذلك، بدءاً من التصلب الآيديولوجي، وقصور في النظرية الاشتراكية، والبيروقراطية الإدارية والحزبية، ولأن نفوذ الدولة السوفيتية امتد إلى آفاق مكلفة ومستنزفة، ناهيك عن أن تلك الدولة بقيت محاصرة من قبل المراكز الرأسمالية الكبرى دعائيا وإعلاميا واستخباراتيا واقتصاديا، مما ترك السلطة الشيوعية في حالة انكماش وحذر ودفاع مرهق وباهظ الثمن.

وقد أشرّ مفكرون كبار، مبكّراً، الانحرافات الكبرى التي ستقود في ما بعد إلى تهشّم كامل المنظومة الاشتراكية الأوروبية في نهاية ثمانينيات القرن الماضي. وشخصياً أرى في نقد هربرت ماركوز للتجربة تلك في كتابه الماركسية السوفياتية خلاصة دقيقة لأهم وأخطر ما تفتق عنه التأويل الستاليني. وأقصد: إمكانية إقامة الاشتراكية في بلد متخلف صناعياً، وإمكانية قيامها في بلد واحد.. وعلى النقيض تماماً مما قال به ماركس. فحتى لينين حكى عن ثورة برجوازية أولية للنهوض بالاقتصاد الصناعي قبل الولوج في المرحلة الاشتراكية.

خذلت الثورة تنبؤات ماركس، وأثبتت تعثراتها، ومن ثم إخفاقها في صحة التحليل الماركسي وضرورة تحقق الشروط الذاتية والموضوعية التي حدّدها لقيام ثورة اشتراكية ناجحة، وحتى كاوتسكي الذي عُدّ تحريفياً يومها قال بأن الثورة الروسية إذا ما نجحت فإن هذا يعني أن ماركس كان على خطأ.

هل نستطيع القول اليوم بأن ثورة أكتوبر حالت بطريقة أو بأخرى دون انفجار ثورات اشتراكية في البلدان التي امتلكت

شروط الثورة الناجحة كإنكلترا وألمانيا (صناعة متقدمة، وطبقة عاملة واسعة منظّمة إلى حدٍ معقول وناضجة) وأنها نبهت البرجوازية الغربية إلى خطورة الحركات العمالية وجعلتها تتخذ سياسات وقائية فعالة ما كان لها أن تفكّر بها لولا الانطلاقة غير المتوقعة، وفي غير أوانها، لثورة أكتوبر؟

نعلم اليوم، وبحس تأريخي، أنه لم يعد ممكناً تكرار ما حدث في أكتوبر 1917 بحذافيرها مرّة أخرى سواء في روسيا نفسها، أو في أية بقعة أخرى من العالم بسبب اختلاف الظروف والعوامل الفاعلة، حيث أننا نعيش الآن سياقا تاريخيا مختلفا تماماً عما كان في ذلك الحين.. فطبيعة الاقتصاديات تغيّرت ومعها الخريطة الطبقية للمجتمعات وكذلك البيئات الجيو سياسية. غير أن هذا باعتقادي لا يعني أن الرأسمالية قدر العالم الأخير ونهاية التاريخ، وأنها غير قابلة للهزيمة أبداً.

حاول مفكرو الغرب إقناعنا دوماً بأن لا بديل للرأسمالية على الرغم من اختلالاتها وجوانبها القاصرة. ومع سقوط "جدار برلين" بات من الصعب الحديث عن نظام آخر يمكن أن يخلّف شكل النظام الاقتصادي الاجتماعي الذي ترسخت قواعده منذ أكثر من قرنين بعلاقاته الإنتاجية وطبيعة مؤسساته العابرة للحدود القومية، وفلسفته النفعية القائمة على مبدأ الربح والملكية الخاصة لوسائل الإنتاج والمنافسة وحرية الأسواق وانفتاحها. وقد أثبتت الرأسمالية طوال الوقت قدرتها على المناورة وتخطي أزماتها وتأجيل لحظة انهيارها إلى نقطة بعيدة، لا يمكن التكهن بموضعها على مسار الزمان. ولا ندري اليوم إن كان هذا النظام سيتفتت تلقائياً وببطء بتأثير عوامل تاريخية ضاغطة تتصل بتطور القوى المنتجة وتبدل شبكة علاقات السلطة ونمط علاقات الإنتاج، أم بفعل ثوري عارم تقوده نخب أو تيار سياسي أو حركة اجتماعية لا نعلم عن طبيعتها الآن شيئاً. فلا علامات تلوح في الأفق وتدلنا على شكل الخلاص. إن الرأسمالية بما راحت تمتلك من مرونة وإمكانيات وقدرات في المناورة راحت تروِّض قوى الإنتاج التي طرأت عليها تغيرات عميقة، سالبةً إياها كثيراً من طاقتها الثورية أو استطاعت تجميدها إلى أجل غير مسمّى.

ما نعرفه هو أن النظام الرأسمالي ليس عادلاً، وجوهره الاستغلال، ولا يمتلك حلولاً حاسمة لمعضلات البشر السياسية والاقتصادية والاجتماعية والوجودية. وأنه يستمر لا بفضل دأبه على حل الأزمات وإنما بخلق الأزمات غالباً، وإدامة زخمها. وأنه لا يستطيع السيطرة على ما ينعكس عن فعله من مشكلات لا أول لها ولا آخر. فالحلول دائماً تقتضي تقليل أرباح الرأسماليين، والقضاء على الفقر، وإيقاف تدهور البيئة الحيوية للسكان، ونزع الأسلحة، وتأكيد السلم الأهلي والسلام بين الشعوب في كل مكان. وهذا كله بعيد عن تفكير النظام واستراتيجياته ومصالحه.

إذن، هل نجرأ على القول بالمقابل؛ بأن الاشتراكية ما زالت ممكنة؟

نعم، ولكن بصورة تختلف قطعاً عمّا كانت عليه في مخيّلات الاشتراكيين العظام منذ القرن التاسع عشر.

هل بالمقدور التنبؤ اليوم بصورة مجتمع

في المستقبل خال من الفقر والاستغلال والتفاوت الطبقي الواسع؟ وما القوى الاجتماعية التي يمكن التعويل عليها بهذا الخصوص؟ وهل علينا أن نضع ثقتنا بالتقدم العلمي التكنولوجي الذي لا بد من أن يوفر ما يلبي حاجات السكان المتزايدة، ويقضي على البؤس الاجتماعي؟

هل علينا انتظار تلك اللحظة التاريخية الفارقة التي عندها ستتفجر تناقضات الرأسمالية وأزماتها بحيث تعجز بوسائلها المتاحة كلها من السيطرة عليها؟ وما سيعقب ذلك أهو فوضى عنيفة ستجتاح العالم وتنذر بسقوط حضارتنا، أم شكل جديد من نظام سياسي اجتماعي أكثر عدالة، يضمن الوفرة الاقتصادية والحرية والسعادة يمكن أن نطلق عليه تسمية الاشتراكية أو أية تسمية بديلة؟

لست مع فكرة الحتمية التاريخية، غير أنني لا أنكر حقيقة المسار التقدّمي للتاريخ المنطوي على احتمالات عديدة.. والاحتمال مناط بالفعل والإرادة البشريين.. بمعنى أن اتجاهات المستقبل تُرسم على وفق خيارات القوى الفاعلة. وخريطة هذه القوى تبدلت إلى حدٍ كبير خلال القرن العشرين. ومع ما سمي بعصر العولمة منذ التسعينيات، وخلال العقدين الأولين من القرن الحادي والعشرين صرنا أمام خريطة طبقية اجتماعية مغايرة تماماً، فلا البروليتاريا هي ذاتها، ولا الرأسمالية هي ذاتها، على الرغم من أن جوهر التناقضات واحد.

أما بشأن المستقبل فأعتقد أن بمستطاعنا طرح الأسئلة أكثر من قدرتنا على تقديم إجابات قاطعة. والأسئلة الصحيحة يمكن أن تكون محفِّزاً دائما لارتياد آفاق فكرية جديدة. وفي هذا الخضم تحضر الماركسية منهجاً وفكراً ورؤى.

أيمكن أن نفهم عالمنا ومشكلات عصرنا من غير الاستعانة بفكر ماركس والماركسية؟

أظن أن الإجابة ها هنا هي لا. لا، يمكن تجاوز ماركس، ولكن إلى أي مدى وكيف يمكن للماركسية أن تساهم في عملية الفهم تلك، وفي تصوّر الحلول الناجعة للخروج من المشكلات الكبرى الآخذة بالتفاقم منذ عقود. وهي مركّبة ومتشابكة ومصدرها، أو علتها واحدة: الرأسمالية بسياساتها وآليات عملها.

إن مشكلات البطالة والفقر والحروب الأهلية والإقليمية والهجرات والانسدادات السياسية والاقتصادية في بلدان كثيرة، والجريمة المنظّمة والإرهاب، وانهيار القيم الإنسانية، وتدمير البيئة الحيوية وتغيّرات المناخ، كلها تحصيل حاصل، بهذه الدرجة أو تلك، للطرق والإجراءات التي بها يواجه النظام الرأسمالي أزماته التقليدية والمستحدثة فتنعكس سلباً على توازنات الطبيعة والمجتمعات في العالم أجمع.

وإذاً علامَ علينا التعويل اليوم؟

- أن نسقط فكرة خلود الرأسمالية ونهاية التاريخ.

- أن نذكِّر بأن الصراع الطبقي ما زال محرِّكاً أساسياً للتاريخ وإن لم يكن محرِّكه الوحيد. إن التمويه على الصراع الطبقي، وإثارة تناقضات ثانوية وزائفة لتأجيل عمل التناقض الطبقي هو إحدى الاستراتيجيات الكبرى للرأسمالية والذي يجب فضحه.

1- وصول الأزمات الدورية للنظام الرأسمالي إلى نقطة اللاحل. النقطة التي عندها يعجز النظام عن وقف الانهيار.

والسؤال هنا هو: ما الذي سيحصل عندئذٍ؟ وما شكل النظام الاقتصادي الاجتماعي الذي سيخلّف ما انهار وانتهى، وما هي القوى الجديدة التي ستتسيد الساحة، وهل حقاً سينتهي بانهيار الرأسمالية الاستغلال وتتحقق مملكة الحرية والسعادة للبشر؟ أم أن شكلا آخر أسوأ من الأنظمة الاستبدادية ستنبثق على الشاكلة التي رسمها (جورج أورويل) في روايته 1948.

2- النشاط المدني المحلي والإقليمي والمعولم الفعال الذي سيحد من تغول الرأسمالية. وهنا نتساءل: إلى أي مدى يمكن أن يصل تأثير هذا النشاط، وهل سيقترح استراتيجيات عملية تبدِّل من طبيعة العلاقات الاقتصادية الاجتماعية مستقبلاً؟ وهل يمكن عدّ الأحزاب والحركات اليسارية من ضمن حلقة هذا النشاط؟

3- أن لا بديل، أو، في الأقل، لا غنى عن الفضاء اليساري العلماني المدني من أجل عالم أفضل.

4- إن الاستغلال الرأسمالي عبر مناطق العالم، وانتشار الفقر، واستمرار الحروب الأهلية بتشجيع ظاهر أو خفي من قبل المراكز الإمبريالية، واستبداد الديكتاتوريات. هذا كله خلق قوى عاتية من التعساء الذين بثورتهم لن يخسروا شيئا سوى أغلالهم وهم فضلاً عن البروليتاريا التقليدية:

- جيوش جرارة من العاطلين عن العمل.
- عشرات ومئات الملايين من المهمّشين والبروليتاريا الرثة في العشوائيات وضواحي المدن الكبرى.
- عشرات ومئات الملايين من القرويين الذين تدمرت بيئتهم الحيوية نتيجة الجشع الرأسمالي، وانتشار ظاهرة التصحّر وتقلبات المناخ.
- عشرات ومئات الملايين من المنفيين والنازحين عن ديارهم والمهاجرين الذين لا يجد معظمهم البيئة التي تحتضنهم وتمنحهم الأمان والكرامة ولقمة العيش.

5- الإبقاء على قوة المعارضة للنظام الرأسمالي وتغذية هذه القوة بالفكر النقدي العلمي والنشاط المدني والسياسي برؤى وأساليب مبتكرة تتساوق وطبيعة عالمنا المعقد. والسؤال الذي يبرز أمامنا بهذا الصدد هو:

هل بالمقدور خلق معارضة للنظام الرأسمالي غير قابلة للاحتواء من قبل النظام نفسه. أي إيجاد شكل من المعارضة لا يستطيع النظام جعلها جزءاً من ضرورات نشاطه من النمط الذي لا يغيّر من واقع الأمر شيئاً. وما هي القوى الاجتماعية التي يمكن الاعتماد عليها بهذا الخصوص؟

وأخيراً، ستبقى الماركسية هي المنهج الفكري والأداة النظرية اللذين سيعيناننا في تحليل أوضاعنا القائمة، ومحاولتنا في تحليل النظام الرأسمالي، وفضح تناقضاته وجوهره اللا إنساني. وإذاً علينا الإبقاء على زخم الطاقة النقدية للماركسية وتطعيمها بآخر الكشوفات المعرفية. فالماركسية بحدودها النظرية كما صاغها مفكراها العظيمان ماركس وأنجلس في القرن التاسع عشر، لن تكون كافية لنا، ما لم نثرِها بما أنتجت العقول من مناهج ورؤى في حقول العلوم الإنسانية والاجتماعية المختلفة، خلال أكثر من قرن بعد ماركس وأنجلس، بشرط ألا نخلّ بجوهر الماركسية العلمي الجدلي، النقدي.

على هامش الاحتفال بمئوية ثورة أكتوبر - رؤية في النظرية والتطبيق

فرحان قاسم
كاتب وباحث

مقدمة

لكي لا نفقد البوصلة او نضيع بين التفاصيل، وجدت نفسي منقادا الى ما توصل اليه الاقتصادي الفرنسي (توماس بيكيتي) في كتابه "رأس المال في القرن الحادي والعشرين" الصادر عام 2014 من خلال معادلته (r > g)، وهو ان عائد راس المال اكبر من النمو الاقتصادي. وهو من حيث الجوهر يعيد انتاج ما توصل اليه ماركس في قانون التراكم الرأسمالي "تراكم راس المال يؤدي الى تراكم الطبقة العاملة ويؤدي الى تراكم الفقر". ان بيكيتي يقول عن نفسه في مقدمة كتابه ذاك: "انا انتمي لجيل لم يشعر ابدا بأقل تعاطف او حنين لأنظمة الدكتاتورية الشيوعية او الاتحاد السوفييتي. لقد تم تطعيمي مدى الحياة ضد الرطانة التقليدية والكسولة الخاصة بمعاداة الرأسمالية وتجاهل الفشل التاريخي للشيوعية". وهنا يبرز سؤال كبير وهو كيف يتسنى لمفكر رأسمالي حد النخاع ان يتوصل بعد (164) عاما لنفس ما توصل اليه ماركس في قانون التراكم الرأسمالي؟ بينما نجد مفكرا اشتراكيا مثل برنشتاين عاصر ماركس وهو احد قادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني، يتنكر لهذا القانون ويعتقد ان تطور الرأسمالية تجاوزه وتجاوز الماركسية نفسها ودعا الى تنقيحها؟ والسبب كما أرى يعود الى ان بيكيتي استند الى قاعدة معلومات واسعة ممتدة بين عام 1770 - 2010 تشمل عشرين بلدا من قارات مختلفة اشترك معه حوالي عشرين باحثا من حملة شهادة الدكتوراه او من طلبة الدكتوراه في العلوم الاقتصادية والاجتماعية، بينما قصر برنشتاين نفسه على قاعدة معلومات محصورة ضمن فترة زمنية محدودة ودول رأسمالية اوربية معدودة وهي المتغيرات التي شهدتها الرأسمالية بعد 1870 - 1890 تقريبا والتي شهدت ازدهار واستقرار الرأسمالية وتحولها من رأسمالية المنافسة

الحرة الى الامبريالية. أي ان السبب وراء استنتاجات برنشتاين الخاطئة هو ضيق الأفق، لمحدودية المعطيات أولا والفترة الزمنية القصيرة التي اعتمدها، وهو نفس السبب الذي طبع الصراعات الفكرية بين الاجنحة المختلفة للفكر الاشتراكي قبل وبعد ظهور الماركسية.

التعددية الفكرية والاختلافات في التحليل ليست ظاهرة جديدة في الفكر الاشتراكي او الحركة العمالية. وهي سلاح ذو حدين؛ إذ انها من جهة تحفز الفكر على تحليل المتغيرات واستنباط الحلول التي تواجه الحركة العمالية، ومن جهة أخرى تكون عائقا امام تطور حركة الطبقة العاملة. ولم تكن امام حركة الطبقة العاملة من وسيلة لمعرفة أي من تلك النظريات والأفكار تمتلك الحقيقة سوى الممارسة والنضال اليومي وما تفرزه الصراعات وعمليات التطور الاجتماعي المتواصلة وما تكلفه من خسائر جسيمة في الوقت والجهد والتضحيات. فالباكونينية الفوضوية والبرودونية الإصلاحية واللاسالية النقابية هي الاجنحة المتصارعة ضمن عصبة الشيوعيين بعد 1848 إضافة الى جناح ماركس وانجلز الذي كان الجناح الأضعف تأثيرا على حركة الطبقة العاملة في اوربا في تلك الفترة، ولكن تطور الاحداث وفشل كومونة باريس اثبت خطل باكونين وبرودون ولاسال وأكدت الممارسة ونضال الطبقة العاملة ضد هيمنة البرجوازية صحة طروحات ماركس وانجلز فانقلب ميزان القوى والمزاج الجماهيري العمالي لصالح الماركسية، ثم جاء برنشتاين ليدق اسفينا جديدا هو في الحقيقة اخطر بكثير من سابقاته، لأنه طعن بالأسس النظرية التي بنيت عليها الماركسية في حقلها الفلسفي والاقتصادي، ودفعت حركة الطبقة العاملة وما زالت ثمنا غاليا لتلك الطروحات، وهي الجذر الفكري الذي أدى الى انقسام الاشتراكية الديمقراطية على نفسها قبيل الحرب العالمية الأولى، وما تلاها من نتائج وخيمة على الطبقة العاملة وشعوب اوربا وحركة التحرر الوطني.

ثورة أكتوبر ليست لحظة روسية فحسب، وإنما هي تعبير عن بلوغ الصراعات التناحرية في ظل تحول رأسمالية المنافسة الحرة الى الامبريالية ذروتها، في الحلقة الأضعف في تلك المنظومة، وهي أيضا بنفس الوقت حلقة في سلسلة متواصلة من تطور الماركسية. ولا يمكن فهم مجريات تلك الثورة، سواء في نجاحاتها الكبرى او في نهايتها المفجعة او المناظرات المتباينة بين المفكرين عموما والماركسيين بشكل خاص، قبلها وبعدها، أو الاستفادة من دروسها، دون تحليل عميق للتطورات التي حصلت على الرأسمالية والماركسية في النظرية والممارسة.

الماركسية، فضلا عن كونها تستند الى رؤية مادية للتاريخ، فهي "فلسفة الطبقة العاملة" في ابسط وأعمق تعريفات لينين لها، وكرسها ماركس وانجلز منهجا لنقد الرأسمالية، ونفيا لها في الحقلين النظري والتطبيقي. وهي كما وصفها المنظر الالماني كارل كورش "بأنها نظرية نقدية توفر ادوات نقد النظرية والمجتمع البرجوازيين وتهيئ القوة القادرة على التغيير، وان وحدة النظرية والتطبيق هي معيار اصالة الماركسية". وبسبب تلك النقدية واجهت الكثير من العنف

والتشويه، وأكاد اجزم ان اهم محطات التحول والتطور في الدراسات الماركسية و"نسخها المتعددة"، هي انعكاس وتفاعل مباشر مع التطورات والتحولات الكبرى النظرية والتطبيقية التي شهدتها وتشهدها الرأسمالية. وكان للمفكرين الفضل الكبير في توصيف وتحليل ملامح تلك التحولات الكبرى.

أولا: العلاقة بين مرحلة رأسمالية المنافسة الحرة والماركسية وصولا الى ثورة أكتوبر

امتدت هذه المرحلة الى الربع الأخير من القرن التاسع عشر. وحدد (ادم سميث) ملامحها الأساسية بعدم تدخل الدولة في الحياة الاقتصادية واعتبره مضرا، ودعا الى حرية حركة رأس المال وان انتاج السلع وتبادلها يقود الى "التوازن الموجه"، ودعا الى تقسيم العمل وشجع التخصص.
شهدت هذه المرحلة (الثورة الصناعية، الثورة الأمريكية، الثورة الفرنسية، ثورات 1838، 1848، ظهور الماركسية، البيان الشيوعي، الأممية الأولى، كومونة باريس، الأممية الثانية ومن ابرز الفلاسفة والمفكرين فيها (ادم سميث، جان جاك روسو، بركلي، ديكارت، ديدرو، فولتير، جون لوك بيكون، مونتيسيكيو، هيوم، كانط، هيجل، فويرباخ، شتراوس، ماركس، انجلز، داروين). ويمكن تحقيب هذه المرحلة على انها مرحلة ادم سميث من وجهة نظر التنظير الرأسمالي ومرحلة ماركس، انجلز من وجهة نظر التحقيب الماركسي.
كشف ماركس قوانين التطور الرأسمالي وعلى رأسها قانون فائض القيمة وقانون التراكم الرأسمالي إضافة الى التناقض التناحري الأساسي بين العمل ورأس المال والتناقض الرئيسي بين البرجوازية والطبقة العاملة اللتين تتجسدان في التناقض بين الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج وبين الطبيعة الاجتماعية للعمل وهو أس الاستغلال في التشكيلة الرأسمالية. وبعد انقسام عالمنا الى عالمين مسيطر وتابع، اضيف التناقض التناحري بين بلدان المركز الرأسمالية المتقدمة وبين بلدان الأطراف المتخلفة. وأصبح الهدف هو الانقضاض على الرأسمالية وإحلال الاشتراكية بديلا أوليا لها، كخطوة أولى لإنهاء استغلال الانسان للإنسان. ووضعت حركة الطبقة العاملة آليتين لتحقيق هذا الهدف:
- الآلية الأولى هي اصدار (البيان الشيوعي)؛
- والثانية تأسيس اول حزب شيوعي "عصبة الشيوعيين" ليقود عملية تحقيق الطبقة العاملة لأهدافها.
غير أن فشل ثورات 1848 وما تلاها من نكسات على حركة الطبقة العاملة اثبتت قضيتين: الأولى لم يعد (البيان الشيوعي) وما سبقه من جهد نظري كبير من قبل ماركس وانجلز كافيا ليكون معينا ثرا للطبقة العاملة في كفاحها ضد الرأسمالية. ولا بد من جهد نوعي آخر، فكان تفرغ ماركس لدراسة الظاهرة الرأسمالية ضروريا لملء ذلك الفراغ.
الثانية هي لجوء ماركس الى حل "عصبة الشيوعيين" بعد خمس سنوات من ثورات 1848 ليس بسبب الحملة الفاشية ضد قادة عصبة الشيوعيين فقط، وإنما هي جزء

من إعادة تحليل شامل للجانب النظري والتطبيقي في مواجهة الرأسمالية التي أصبحت طبقة مهيمنة تمتلك أسلحة متعددة لإدامة سطوتها وهيمنتها ليس على اوربا فقط وإنما على العالم اجمع.

ترك فشل الكومونة آثارا كبيرة؛ اذ دخلت الرأسمالية مرحلة تطورها السلمي وازدهارها منذ 1871 - 1914 وحققت قفزات كبرى في تطور قوى الإنتاج، ومدت قبضتها على مختلف القارات وغيرت الكثير من أساليب ادارتها لمجتمعات المركز الرأسمالي، من خلال دمقرطة مؤسساتها المختلفة، يقابل ذلك تشديد قبضة الاستبداد والإتباع والاستعمار على البلدان الطرفية. مقابل ذلك لم تعد الأساليب التي استخدمتها حركة الطبقة العاملة قبل الكومونة مناسبة في ظل أجواء الديمقراطية البرجوازية التي طغت على المجتمعات الرأسمالية، وبدأ نجم الباكونينية الفوضوية يأفل، وسنحت الفرصة لماركس وانجلز لقيادة حركة الطبقة العاملة بعد فشل البرودونية واللاسالية والفوضوية في تحليلاتها. تم حل الأممية الأولى، وبدا التوجه لتأسيس الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية، وهذه التسمية التي قرنت بين الاشتراكية والديمقراطية لها دلالتها على المستوى النظري والفكري ولكن للأسف، بعد ثورة أكتوبر تم التعامل مع هذا المفهوم بطريقة خاطئة سببت ضررا كبيرا لحركة الطبقة العاملة - وخصوصا بعد سيطرة ستالين على السلطة والحزب؛ اذ فصلوا بين مفهومي الاشتراكية والديمقراطية وكأنهما مفهومان متقاطعان. وبعد تأسيس الاممية الثانية 1889 التي اشرف عليها انجلز حققت الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية انتصارات كبيرة في الانتخابات، واحتل بعضها مواقع مهمة في البرلمانات الاوربية.

في هذه المرحلة تكاملت أدوات الماركسية في التحليل من خلال انجاز كتاب ''الرأسمال'' وأصبحت الطبقة العاملة، كما قال ماركس، تجد في الماركسية سلاحها الروحي ووجدت الماركسية قي الطبقة العاملة قاعدتها الاجتماعية، وتنوع نضال الطبقة العاملة بين النضال المطلبي والنضال السياسي، وأصبحت النقابات تمتلك قدرات كبيرة في التأثير على الحياة السياسية في الكثير من البلدان الرأسمالية.

ثانيا: العلاقة بين مرحلة الرأسمالية الاحتكارية 1893 - 1933 وبين تطور الماركسية

وهي الفترة الأولى من مرحلة الامبريالية التي كانت فترة مخاض عسير بين بقايا تأثير آليات نظرية ادم سميث التي لم تعد قادرة على الاشتغال في ظل نشوء الاحتكارات وبين ظهور واشتغال آليات الاقتصادي البريطاني كينز الذي دشن مفهوم رأسمالية الدولة الاحتكارية. ويمكن تحقيب هذه المرحلة من وجهة نظر ماركسية على انها مرحلة لينين الذي كشف عن قوانين تطور الامبريالية.

في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر تطورت الرأسمالية نحو مرحلة سيطرة الاحتكارات محل حرية المنافسة. في هذه اللحظة التاريخية حصل ارتباك بين صفوف مفكري قادة الأممية الثانية حيث اعتبر بعضهم ظهور الاحتكارات بداية عهد انتهاء أزمات الرأسمالية وانتهاء

طابعها المعادي للطبقات المسحوقة، وروّج كاوتسكي وهلفردينغ لفكرة إزالة فوضى الإنتاج والحروب عن طريق التفاهم بين قادة الاحتكارات الرأسمالية في مختلف البلدان الرأسمالية، وطرح برنشتاين فكرة تنقيح ومراجعة الماركسية لأن قسما من قوانينها قد عفا عليه الزمن مثل قانون التراكم المطلق للرأسمال. وتوصلوا الى فكرة التوافق الطبقي بدلا من الصراع الطبقي، ورغم رفض مؤتمر الحزب الاشتراكي الألماني لطروحات برنشتاين وتصدي لينين وآخرين لما طرحه بعض قادة الأممية الثانية، إلا ان آراءهم وتأثيرها ظل يفعل فعله الخفي في قيادات تلك الأحزاب الى ان انفجر الموقف عشية الحرب العالمية الأولى، واتضح الموقف الحقيقي لهم اثناء مناقشة الاعتمادات المالية للحرب المحتملة الوقوع، وما هو موقف الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية منها، اذ انقسم قادة الأممية الثانية بين موقف قومي ضيق يساند كل حزب حكومته في حربها ضد الحكومات الأخرى وبين موقف اممي يدين هذه الحرب ويرفض التصويت لصالح تلك الاعتمادات، ويدعو الى اضراب عام لجميع العمال في تلك البلدان لمنع حدوث الكارثة المحدقة التي سيكون العمال والفقراء حطبها الأساسي ولن تخدم سوى مصالح الدول الرأسمالية المتقدمة. وكان الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي جزءا من هذا المشهد.

إن انتقال الرأسمالية من مرحلة رأسمالية المنافسة الحرة الى مرحلة الامبريالية وضع الحركة الشيوعية امام اسئلة جديدة وكبيرة للإجابة عليها سواء في الحقل النظري او التطبيقي. ووضعها موضوعيا إمام ضرورة اعادة انتاج الماركسية وجهازها المفاهيمي لكي تحلل المتغيرات الهائلة التي جرت على الرأسمالية والعالم تبعا لذلك. وكان هذا ما فعله لينين في تحديده الميزات الخمس للإمبريالية: ''تمركز الإنتاج والرأسمال أدى الى نشوء الاحتكارات. اندماج الرأسمال البنكي بالرأسمال الصناعي. نشوء الطغمة المالية. تصدير راس المال إضافة الى تصدير البضائع. اقتسام العالم بين اتحادات رأسماليين احتكارية عالمية وهو التقسيم الدولي المعاصر. استمرار التقسيم الدولي الكلاسيكي''.

ومن الجدير بالذكر ان الرأسمالية ومنظومتها الآيديولوجية كانت في قلب تلك المتغيرات، وهي كما اكد د. فؤاد مرسي: ''اقدر على البقاء مما كانت وأنها في تغير مستمر وتحول لا ينقطع، واستطاعت ان تجدد قواها وتكيفت مع الاوضاع الجديدة بفضل الثورة العلمية والتكنولوجية''، لاحقا، كما انها انفقت وتنفق الاموال الطائلة ليس في مجال البحوث التطبيقية والعلوم الطبيعية فحسب وإنما في مجال البحوث النظرية في حقول العلوم الاجتماعية والإنسانية بشكل عام.

في ظل تلك الظروف المعقدة انبثقت ثورة أكتوبر وانقسم المشهد الفكري الى:

1- مشهد قسم من قادة الأممية الثانية ومن سار معهم في دعم حكوماتهم في حربهم الامبريالية وأسسوا ما اطلقوا عليه ''الأممية الثانية والنصف''، وأصبحوا بعد الحرب جزءا من تركيبة الحكومات الرأسمالية التي أعقبت الحرب العالمية الأولى وتأقلموا مع صعود الفاشية في إيطاليا والنازية في المانيا.

2- المشهد الفكري السوفييتي ويضم مجموعة من القادة والمفكرين الذين اتفقوا على قضايا واختلفوا على أخرى (لينين، ستالين، تروتسكي، بوخارين، زينوفيف، بليخانوف، كاوتسكي). ومن تلك القضايا والاشكاليات: (هل توفر العامل الذاتي للثورة يبرر تجاوز القاعدة الاقتصادية المتخلفة، العلاقة بين الاشتراكية والديمقراطية، وقضية الحزب الواحد والتعددية والموقف من دكتاتورية البروليتاريا، هل يتم اعتماد آليات البرلمانية البرجوازية في إدارة البلاد أو البحث عن آليات جديدة، وتكريس مجالس العمال والجنود أساسا لتلك التجربة، إمكانية قيام الاشتراكية في بلد واحد من دون امتدادها الى دولة أو دول رأسمالية متقدمة صناعيا، قضية صلح بريست ووقف الحرب، الموقف من الحريات الأساسية. الموقف من السياسات الاقتصادية التي اتبعتها ثورة أكتوبر سواء شيوعية الحرب او النيب او حرق المراحل).

3- المشهد الفكري الاشتراكي الأوربي الذي ظهر فيه مجموعة مفكرين حللوا ما تعرضت له الحركة العمالية في اوربا وأجنحة الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية اليسارية من هجمة فاشية، سببت انحسار المد الثوري الذي كان طاغيا على المشهد الأوربي قبيل الحرب العالمية الأولى، والذي كان مرشحا للانفجار قبل او بعد ثورة أكتوبر كما تابعوا التطورات الجارية في روسيا بعد الثورة، (غرامشي، روزا لوكسمبورغ، لوكاتش، ألتوسير والرعيل الأول من مفكري مدرسة فرانكفورت).

4- المشهد الفكري الاشتراكي في بلدان حركة التحرر الوطني: لعب انتصار ثورة أكتوبر وقيام اول حكومة عمالية في التاريخ دورا موضوعيا كبيرا في نشر الفكر الاشتراكي في كافة القارات وتأسست الكثير من الأحزاب الشيوعية فيها، وأصبحت جزءا من الأممية الثالثة، وكان قسم من قادة تلك الأحزاب في الكومنترن، وكان للمدارس والكليات والدورات التي أقامها الحزب الشيوعي السوفييتي والأحزاب الشيوعية في بلدان المعسكر الاشتراكي لاحقا دور كبير في خلق الكثير من القادة والباحثين والمفكرين في تلك البلدان، إلا ان الطابع العام لمنجزاتهم الفكرية هو الدوران في فلك الستالينية.

5- المشهد الفكري الرأسمالي الذي كرس جهده لتبرير الفاشية والنازية، وتجميل وجه الإمبريالية، والوقوف بحزم ضد الشيوعية وثورتها الوليدة، واشتغل على جبهتين: الأولى تشويه الشيوعية والوقوف ضدها. والثانية بذل جهود كبيرة لدراسة ما هو جديد من المتغيرات سواء في روسيا السوفييتية او في البلدان الرأسمالية، ووضع باستمرار آليات لتعزيز الرأسمالية واحتواء الحركة العمالية فيها من جهة، وإضعاف روسيا والتقليل من تأثيراتها على حركة الطبقة العاملة أو حركة التحرر الوطني.

ثالثا: العلاقة بين مرحلة رأسمالية الدولة الاحتكارية 1933 - 1970 و بين الماركسية

وهي الفترة الثانية من مرحلة الامبريالية أي فترة اشتغال آليات كينز التي قال عنها الاقتصادي (جوزيف ستيغليتس) الحائز على جائزة نوبل عام 2008 "لقد علمتنا

ازمة الكساد الكبير ان السوق غير قادرة على تسوية الأمر، ولم يكن هناك من بد من ان تختفي هذه الحقيقة من الذاكرة"، وأعطى كنز للدولة دورا كبيرا في رسم السياسة الاقتصادية. وقد حققت نظرية كنز نجاحا كبيرا بعد الحرب العالمية الثانية 1950 - 1980 إذ اطلق عليها الاقتصاديون فترة الثلاثين المزدهرة. ويمكن تحقيب هذه الفترة من وجهة نظر ماركسية بالفترة الستالينية، وفترة غرامشي ومدرسة فرانكفورت.

في هذه الفترة تبدو اللوحة العالمية ممتلئة بما يبدو متنافرا (سيطرة ستالين على مقاليد السلطة وشؤون الحزب بعد حملة تصفيات معروفة، صعود هتلر وعودة أجواء التسلح والاستعداد للحرب واشتداد الصراع بين البلدان الرأسمالية لإعادة تقسيم العالم الذي مهد الطريق لاندلاع الحرب العالمية الثانية، رافقها تشديد العنف والاستبداد ضد الفكر الاشتراكي في أوربا، هروب رواد مدرسة فرانكفورت الى أمريكا ازدهار، هزيمة الفاشية والنازية وبروز المعسكر الاشتراكي وانطلاق الحرب الباردة بين المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي، وتقدم علمي وتكنولوجي متسارع الخطى، ظهور حركة عدم الانحياز وتحرر واستقلال الكثير من البلدان الطرفية التابعة، ميل جماهيري عالمي لليسار، يقابله انشقاق كبير في الحركة الشيوعية بين الاتجاه "السوفييتي" والاتجاه "الصيني". تعزز الدور الأمريكي وانحسار تدريجي للدور البريطاني).

لا بدّ من التطرق الى دور أنطونيو غرامشي في هذه الحقبة لانه كما قال هوبسباوم تجسد في "ريادته نظرية ماركسية في السياسة"، وقدم "استراتيجية ماركسية لحركات اشتراكية في بيئات غير ثورية"، فالمشكلة الرئيسية التي واجهت قادة ثورة أكتوبر والمنظرين الماركسيين بشكل عام هي "ماذا بعد الثورة؟ كيف تستطيع الاشتراكية أن تكون نفيا فعليا للرأسمالية كنظام يبني مجتمعا جديدا فعلا قائما على الديمقراطية والعدل والمساواة الحقيقية؟ كيف تواجه الحركات الثورية النظام الرأسمالي الذي قويت شوكته وتسيد العالم وامتلك أسلحة عنف متطورة وأسلحة اقناع عملاقة، تصنع وتوجه السياسات الدولية بكفاءة عالية، ورصدت مبالغ هائلة لصناعة الثقافة المعادية للفكر الاشتراكي الثوري. ولذلك لجأ غرامشي الى منظومة مفاهيمية جديدة مثل مفهوم الحزب والطبقة و المثقف العضوي والدولة وعلاقتها بمفهومي الهيمنة والعنف، الكتلة التاريخية، المجتمع المدني".

ان غرامشي وكثيرا من المفكرين الماركسيين أدركوا ان حجم الهوة بين الرأسماليين واعدائهم قد اتسعت كثيرا فلم تعد الطبقة العاملة والفلاحون الفقراء وحدهم يناضلون ضد الراسمالية، وانما اصبحت قضية تجاوز الرأسمالية عالمية البعد وجماهيرية القاعدة، وأصبح الوعي بهذه الحقيقة "ملهما لكثير من الشرائح الاجتماعية للدخول في هذا المعترك ." لذلك نقل غرامشي مركز ثقل النضال ضد الرأسمالية من البناء التحتي الى البناء الفوقي وأعطى لمنظمات المجتمع المدني والكتلة التاريخية الدور الأهم في عملية الصراع ضد الرأسمالية في كل مكان . فلكي تقضي على سيطرة الرأسمالية كطبقة مهيمنة تحتاج الطبقة العاملة وحلفاؤها

"المجتمع المدني الحقيقي"، الى قدرة على تحقيق هيمنتهم على المجتمع، قبل الانقضاض على الرأسمالية. فالرأسمالية تسعى الى تحويل المجتمع المدني الى اداة لهيمنة تأبيد سلطتها والطبقة العاملة تسعى لتحويل المجتمع المدني الى اداة لتغيير النظام الرأسمالي .

لعبت "مدرسة فرانكفورت" دورا كبيرا في هذه الفترة، فالحيز الزماني الذي تحركت به هذه المدرسة يتجاوز الثمانين عاما، وان حجم المتغيرات السياسية والاقتصادية والعلمية والثقافية والفكرية كثيرة جدا، وهذا يفسر تعدد المرجعيات لرواد هذه المدرسة، وانعدام وحدة المنهج في التحليل، وعدم بروز مفكر منهم يحدد الاطر الفكرية والمنهجية لهذه المدرسة.

وهي "كتيار فلسفي اجتماعي نقدي معاصر" اعتمد رؤية ونظرة اختلفت بهذه الدرجة أو تلك عن المصدر الذي نهلت منه وهو الماركسية، لان قسما من روادها يعتقدون ان الماركسية "التقليدية" كما يطلقونها على ماركسية ماركس وانجلز "لم تعد قادرة بجهازها المفاهيمي على معالجة مشكلات العصر والإجابة على جميع الاسئلة التي تواجه انسان القرن العشرين" لذلك بحثوا وتأملوا لتحقيق منظومة جديدة من المفاهيم تساعدهم على تحليل الواقع الجديد المتجدد ولجأوا الى توليفة من منجزات العصر، سواء في العلوم الطبيعية او الانسانية.

(ماكس هورهايمر) مؤسس النظرية النقدية أوجد "منهجا نقديا جدليا يهدف الى توحيد النظرية بالممارسة العملية للتصدي الى فكرة التسلط والاستلاب لتحقيق سلطة الانسان على حياته وعلى الطبيعة معا".

(هربرت ماركوز) طرح، مفهومي "الهيمنة" و"الانسان ذو البعد الواحد" لتوضيح كيفية استعباد واستلاب الانسان في مجتمع التقنية "ليس عن طريق القمع البوليسي او بطرق بدائية سافرة"، وإنما من خلال الماكنة الاعلامية الضخمة، و"توظيف النسق الايديولوجي والثقافي لتزييف الوعي بإقرار الوضع القائم كوضع لا بديل له، بحيث تبدو الديمقراطية البرجوازية" قمعا مموها لصنع الانسان ذي البعد الواحد بحيث لا يسمح له بالتطلع الى تغيير الواقع.

كما طرح (ادورنو) مفاهيم ابتعدت كثيرا عن الماركسية، وخصوصا نظريته المتعلقة بعلم الجمال الذي "نفى فيه ان الجمال انعكاس للعالم"، وأكد ان المجتمع الرأسمالي يطمس الفرد تماما وان البشرية في طريقها الى "شكل جديد من البربرية" وان "الفاشية هي النتاج الطبيعي للرأسمالية". ولم يقتصر تقاطعه مع الماركسية على مفهوم علم الجمال وإنما أهمل "تحليل ماركس الاقتصادي ونظريته عن الطبقات".

كما نجد مفهوم "المجال العام" لهابرماس الذي حولته الرأسمالية من حقل للتحاور العقلاني الى "مجال للتحكم السياسي والهيمنة"، عبر تحويل المواطن من مشارك ايجابي الى مشاهد سلبي. وقسّم المجال العام الى مجال الدولة من جهة، والمجال الخاص من الاسرة والمجتمع المدني من جهة اخرى. و"نقد تحول العلم الآيديولوجيا الى وسائل للقمع والهيمنة".

أما (أرنست بلوخ) فقد طرح رؤية عميقة في تحليله للموروث الديني والثقافي من حكايات وأساطير وثقافة شعبية، وركز

على اهمية اعتبارها "منتجا ثقافيا يحتوي على مضمون تقدمي تحرري" يجسد جنوح الانسانية نحو بناء مجتمع المساواة والعدل ولم ينظر اليها فقط من زاوية "كونها منتجات ايديولوجية تعموية لتزييف الواقع"، واستند بلوخ في هذه الرؤية الى تحليلات ماركس بصدد ازدواجية وجود العناصر الطوباوية الاصلاحية في الموروث الثقافي دون ان يهمل عناصر التعمية والتمويه فيها، ويمكن التنويه الى تجربة ناجحة لليسار في امريكا اللاتينية مع لاهوت التحرير، وتجربة فاشلة اكدها بلوخ وهي "ان جزءا من هزيمة اليسار في جمهورية فايمار في المانيا يعود الى ان اليسار ركز على النقد والإدانة السلبية بينما قدمت النازية رؤية ايجابية وبدائل جذابة للجماهير الالمانية اليائسة".

(جورج لوكاتش) طرح مفهومي "التشيؤ" و"الوعي الطبقي" للتأكيد على ان المجتمع الرأسمالي يحول البشر الى "أشياء" ارتباطا "باتساع صنمية السلع لتشمل الوعي الانساني والمجتمع"، ورغم استناد لوكاتش الى مقولات ماركس وانجلز وخصوصا علاقة الوعي بالوجود الاجتماعي "إلا انه اعطى لوعي الطبقة العاملة اهمية خاصة لأن الرأسمالية حولتها الى بضاعة"، ولا يمكنها ان تحقق حريتها إلا بتحررها من كونها بضاعة، وهي بهذا الكفاح "تنقذ جميع الشرائح الاجتماعية في المجتمع البرجوازي من هذا الاستلاب والاغتراب و(التشيؤ)، وبهذا يربط لوكاتش الانعتاق من الضرورة في ظل الرأسمالية عبر تفعيل وعي الطبقة العاملة بجوهر الرأسمالية من جهة ودورها التاريخي من جهة اخرى".

رابعا: العلاقة بين فترة اللبرالية الجديدة 1980 وما بعدها

وهي الفترة الثالثة من مرحلة الامبريالية؛ اذ شهدت هذه الفترة توقف آليات نظرية كينز عن الاشتغال وعودة محمومة الى آليات السوق من جديد في ظل مفاهيم فريدمان وصعود المحافظين عرابي اللبرالية الجديدة ريغان وتاتشر وفي ظل سيطرة الشركات المتعدية الجنسية والمنظمات الاقتصادية الدولية الثلاث على قيادة ورسم السياسات الاقتصادية ولم يعد للدولة الوطنية بشكل عام الدور الأول في ذلك ودخلنا في إيقاع العولمة المتسارع وتسيد أسواق المال على الأنشطة الاقتصادية الأخرى. ويمكن اطلاق تحقيب هذه المرحلة من وجهة نظر ماركسية بمرحلة هوبسباوم ورالف ميليبلاند وتيرير ايغلتون.

شهدت هذه الفترة انهيار تجربة الاتحاد السوفييتي وأوربا الشرقية، والعودة الى النظام الدولي القائم على القطبية الأحادية، وترك ذلك الانهيار آثارا سلبية كبيرة على الحركة الشيوعية والعمالية وحركة التحرر الوطني، وفتح الباب امام التطرف الديني والنزعات القومية الشوفينية، ولكنه في الوقت نفسه "حرر الماركسية " من الجمود الذي كبلها وافقدها جوهرها النقدي.

من اهم المتغيرات على المستوى الدولي وفي البلدان الرأسمالية بشكل خاص هو التحول العمودي والأفقي في القطاعات الاقتصادية؛ اذ كان تسلسل القطاعات الاقتصادية في البلدان الرأسمالية من حيث حجم العمالة خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر على الوجه الآتي: القطاع

الزراعي يليه القطاع الصناعي ثم قطاع الخدمات. بينما نراه عام 2010 كما ورد في جداول الاقتصادي الفرنسي بيكيتي، يصبح على الشكل الاتي: قطاع الخدمات يحتل 80% من حجم العمالة في أمريكا و17% للقطاع الصناعي، وأخيرا 3% للقطاع الزراعي. وهذا التحول في القطاعات الاقتصادية ينطبق تقريبا على جميع البلدان الرأسمالية المتقدمة وقسم كبير من الدول الأخرى. وإذا اخذنا بنظر الاعتبار التطور العلمي والتكنولوجي وثورة المعلومات فان هذا التحول سيمتد الى كافة بلدان العالم، إضافة الى عامل اخر وهو النمو السكاني الكبير على الكرة الأرضية؛ اذ زاد سكان الكرة الأرضية من 600 مليون نسمة عام 1700 الى 7 مليار نسمة عام 2012.

والمتغير الثاني الذي لا يقل أهمية عن تحول القطاعات الاقتصادية في عصرنا الراهن، هو ما يجري من اعادة "تقسيم العمل الدولي لصالح الطغمة المالية" الذي عمق "التمايز الاجتماعي على المستوى الدولي"، بدرجات تجاوزت جميع المراحل التاريخية التي مرّ بها الانسان على الكرة الأرضية، ما يشير بما لا يقبل الشك الى الطبيعة الاستغلالية الأكثر شراسة التي تميز بها النظام الرأسمالي، "فالأوضاع المعيشية لغالبية السكان تتدهور وتتسع مساحة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية"، إذ يوجد في العالم 800 مليون فقير، ويموت يوميا 100 ألف انسان بسبب الجوع برغم توفر غذاء يكفي لإشباع 12 مليار انسان حاليا، اي يكفي لإشباع ضعف سكان الارض تقريبا، وان 20% من السكان يهيمنون على 83% من الدخل العالمي، وبلغ مجموع الفقراء في العالم عام 1998 مليار ومئة وتسعة وثمانين انسانا. وما بين عامي 1987 و2013 زاد عدد المليارديرات بالدولار من (140) مليارديرا الى (1400) مليارديرا وزادت ثرواتهم من (300) مليار دولار الى (5400) مليار دولار. وفي عام 1987 نجد (5) مليارديرات الى كل مئة مليون نسمة، وفي عام 2013 اصبحوا (13) مليارديرا لكل مئة مليون نسمة. وبتقسيم الدخل العالمي على عدد السكان الراهن يصبح معدل حصة الفرد (760) يورو شهريا، ولكننا نجد حصة الفرد في بعض البلدان مثل الهند تبلغ 200 يورو شهريا، تقريبا، يقابلها 2500 يورو في البلدان الرأسمالية المتقدمة.

ان المشهد الراهن للوحة الاجتماعية في عالمنا المعاصر يضعنا وجها لوجه امام الهدف الأول الذي انطلقت منه حركة الطبقة العاملة وفلسفتها منذ 1848 عبورا بكومونة باريس، وثورة أكتوبر، وهو ضرورة تجاوز الرأسمالية الذي اتسعت قاعدته الاجتماعية، ليشمل جميع الطبقات والشرائح الاجتماعية المتضررة، سواء في بلدان المركز الرأسمالي او البلدان الطرفية، ويوما بعد اخر، تتجلى عبقرية ماركس الذي كشف جوهر النظام الرأسمالي وعبقرية غرامشي الذي رسم خارطة تجاوز ذلك النظام.

صعود ثورة أكتوبر وانهيارها، الأسباب والنتائج

عبد الحسين شايع
باحث أكاديمي
كلية الآداب – جامعة بغداد

مقدمة

مثلت ثورة اكتوبر أحد المنعطفات التاريخية والتقدمية الكبرى في تاريخ البشرية. وأخذت كلَّ تلك الابعاد المؤثرة رغم عمرها القصير.

هناك مجموعة من الأسئلة ما انفكت تتناولها التحليلات حول انهيار ثورة اكتوبر وأسبابها. بيد أن الإجابات تختلف ليس تبعاً لاختلاف منظوراتها فحسب، بل تبعاً لقصديات الافتراضات التي يتم السعي لإثباتها. ولعل أهم ما يشغل هذه الورقة هو التفريق بين المنهجيات المختلفة، وموقع الشخص نسبة إلى موقفه من الصراع الاجتماعي القائم في المجتمع الرأسمالي. من دون هذا ربما ينتهي البحث إلى ترديد مجموعة من المقولات المكررة التي ينتمي أغلبها إلى الدعاية المضادة لثورة أكتوبر وقيمها وأهدافها التي أقلقت قوى الطبقات المالكة والحاكمة، أو الانسياق مع حملات الدعاية المتواصلة والضارية في نظام الثنائية القطبية وحربه الباردة، وما تلاها بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، التي استغلت فشل نظام رأسمالية الدولة لمهاجمة ثورة أكتوبر ومُثلَها والشيوعية وإعلان النظام الرأسمالي المتفسخ نظاماً منتصراً وخالداً. تلك الدعاية التي تحولت إلى صناعة تهدف إلى سيطرة الأقلية ذهنياً على الأكثرية المحكومة وضمان انقيادها لها. يقول (نعوم تشومسكي) عن هذه الصناعة: "إنّ الوسائل الأخرى للسيطرة هي السيطرة على المعتقدات والمواقف. ومن هذا نشأ قطاع صناعة العلاقات العامة، الذي يصف نفسه، هذه الأيام صادقاً، بأنّه قطاع صناعة البروباغندا"[1]. ولعله ليس من باب الصدفة المحضة أن ينشأ وينمو ويتطور هذا القطاع، تحديداً، في العشرينات من القرن الماضي صعوداً. فبالنسبة لشخص

يعدُّ نفسه ماركسياً لا يكون ممكناً له أن يتخلى عن موقعه إلى جانب الطبقة العاملة، ويلقي بأدوات المادية التاريخية بوصفها منهجاً في تحليلاته ويبقى منسجماً في إدعائه. وعليه فإنّ البحث يتخذ من المادية التاريخية منهجاً في تحليله للموضوع.

الانتقادات الشائعة

من أكثر التحليلات التي انتشرت في أوساط اليسار حول انهيار ثورة أكتوبر، ذلك الرأي القائل بثنائية النظرية والتطبيق. والذي ينطلق من موقف دفاعي عن الماركسية والشيوعية ويلقي باللوم على الاخفاق في تطبيقها. وهذه مقاربة تبتعد بمسافة شاسعة عن النظر العلمي للأحداث والتطورات التاريخية، وتجعل من الطبقة العاملة والماركسية والاشتراكية والشيوعية مجموعة مفاهيم مجردة ومنقطعة عن سياقها الاجتماعي التاريخي. فهي تنظر للشيوعية على أنها نظرية محضة ومجردة يسعى مجموعة من الأفراد المخلصين إلى مطابقة العالم معها. ولذلك يعزى الاخفاق هنا إلى مجرد فشل في صياغة العالم طبقاً لصورة ذهنية. وهي لا ترى حقيقة أن الشيوعية ليست سوى حركة الاحتجاج الاجتماعية للطبقة العاملة التي يتوقف الانتاج الرأسمالي على قوة عملها. وهي في صراع مع قوى الرأسمال السياسية والاقتصادية حتى بعد استلام السلطة، وإنّ مآل هذا الصراع ومدى القدرة على الانتصار فيه من عدمه هو الذي يحدد الانتصار أو الهزيمة النهائية للثورة. فمثل ذلك التصور يخرج عملية مواجهة اجتماعية محتدمة من ميدان الواقع الاجتماعي إلى ما يشبه إجراء تجربة مختبرية معزولة وفي ظروف قياسية.

من التفسيرات الأكثر رواجاً حتى في أوساط اليسار الذي عمل طوال عقود تحت اسم الشيوعية، وخصوصاً الأوروشيوعية واليسار الجديد هو طرح مسألة غياب أو ضعف الممارسة الديمقراطية في النظام السياسي للدولة. وواضح أنّ الديمقراطية في نظام رأسمالية الدولة في الاتحاد السوفيتي، الذي قام نتيجة لهزيمة الثورة، كانت غائبة تماماً وأصبحت المؤسسات الأكثر رقياً من ناحية الممارسة الفعلية للديمقراطية كالسوفيتات واللجان هياكل فارغة في ظل نظام الدولة الشمولية. ولكن بعيداً عن ركام الدعاية المناهضة للشيوعية، التي يحلو لها ويخدم أغراضها أن تخلط الأمور وتصور النظام الذي قام طوال عقود إثر انتكاس ثورة أكتوبر على أنه الاشتراكية والشيوعية، تكشف المراجعة التاريخية أن مسار النضال الثوري لشهور قبل استلام السلطة في أكتوبر والسني الأولى من عمرها القصير كان نموذجاً للتدخل المباشر للجماهير في صنع القرار والإشراف الدائم على تنفيذه في أطر متقدمة لم تعهد البشرية مثيلاً لها قبل ذلك إلا في ثورة 1905 وكومونة باريس. وقد كانت السوفيتات ميداناً للتعددية الحزبية كذلك. وعلى هذا الأساس فإنّ غياب الديمقراطية كان من نواتج هزيمة الثورة وليس من أسبابها.

على أنّ أهم المؤاخذات، التي توجه للثورة، هي ذلك الموقف الذي يعدّ الثورة في روسيا في غير أوانها وفي غير مكانها! وأكثر التوجيهات رواجاً التي تساق لتبرير هذا الموقف هو التأخر الاقتصادي لروسيا،

ودعوى عدم نضوج قوى الانتاج لقيام الاشتراكية. ومع أنّ القول بتأخر روسيا صناعياً في ذلك الوقت صحيح قياساً إلى ألمانيا وبريطانيا، فإن هذا الواقع لا يعني الاستنتاج، من وجهة نظر وموقف ماركسيين وشيوعيين بأيّ شكل من الأشكال، على وجه الصحة والقطع، أنّ الثورة يجب أن تنتظر، في روسيا، في وقت تضافرت شروط تاريخية غير قابلة للتكرار بسهولة لاندلاعها. وهي حجة مردودة لعدة أسباب؛ أولاً، إنّ هذا التأخر بالمقارنة مع بعض بلدان أوربا يبقى نسبياً. ففي زمن صدور (البيان الشيوعي) 1848 - كُتب في 1847 - لم تكن أيّ من بلدان أوربا الغربية أكثر تطوراً بكثير من روسيا في عام 1917، أي بعد سبعين عاماً. ثانياً، عندما تحدث (البيان الشيوعي)، قبل سبعين عاماً من قيام ثورة أكتوبر، عن شبح الشيوعية فقد تحدث عنه، يجول في أنحاء أوربا، ولم يقصر (ضرورة ردّ خرافة الشبح ببيان من الشيوعيين أنفسهم) على ألمانيا وبريطانيا مثلاً، رغم التفاوت الكبير صناعياً واقتصادياً بين هذين البلدين من ناحية وبين بقية أقطار أوربا الغربية كاسبانيا مثلاً من ناحية ثانية. ثالثاً، إنّ نشاط ماركس وأنجلز الثوري السياسي والتنظيمي ودعوتهما من أجل الثورة العمالية لم تقتصر على البلدين الأكثر تطوراً في أوربا، إنما شاركا بنشاط منقطع النظير في تشجيع وتنظيم فروع الأممية في مختلف أقطار أوربا. ورابعاً، رغم أن ماركس قد حذر الاشتراكيين وعمال فرنسا من الانجرار إلى مواجهة في غير أوانها، فإنه وفور اندلاع كومونة باريس لم يتخذ أيّ موقف غير مناصرتها بكلّ قوة وتمجيدها وتمجيد بطولات الكومونيين والمضحين دفاعاً عنها. ذلك أنّ ماركس يدرك أنّ الثورة لا تُصنع بقرار إرادوي، بل يجد العمال والشيوعيون أنفسهم في مسار نضالهم أمام وضع ثوري لا يمكن معه الانسحاب من خوض المواجهة دون التعرض للتنكيل والقهر. ففي هذه اللحظات تكون الخسارة الناتجة عن التخلي عن خوض النضال أكبر بكثير من خسارة مواجهة واقعة بالفعل. وكان لينين قد أدان بشدة وعن حقّ موقف بليخانوف القائل: (ما كان على الثورة أن تحمل السلاح)، مذكراً ومعارضاً إياه بموقف ماركس من الكومونة ذاك.

على هذا المنوال تجري كافة الانتقادات والتفسيرات الأخرى في إيرادها لعوامل أخرى متنوعة، منفردة أو مجتمعة في تفسير الاخفاق أو نقد التجربة. مثل انحراف الحزب البلشفي أو ضعفه، أو الخلل والأخطاء في النواحي الفكرية والنظرية، أو التركيبة البيروقراطية للدولة ومؤسساتها المختلفة. ولكن هذه كلها من نتائج هزيمة الثورة وإرساء نظام رأسمالية الدولة باسم الاشتراكية. ولا يمكن أن تكون النتائج سبباً في المسبب. يمكن الاستدلال بالنتائج على وجود مشكلة ما ولكن من الخاطئ أن نعدّ نتائج الظاهرة سبباً في بروزها. وفي حالة ثورة أكتوبر للإجابة على أسباب انهيارها، علينا أن نسوق وجهة البحث وسؤاله نحو الشروط المادية المحيطة بتبلورها وصعودها ثم هزيمتها في المجتمع الروسي نفسه في ذلك الوقت، قبل وأثناء اندلاعها وبعد كسبها للسلطة.

الحركات الاجتماعية وبدائلها قبيل الثورة وبعدها

منذ أواخر القرن التاسع عشر كانت تنمو بوضوح في روسيا علاقات الانتاج الرأسمالية إلى جانب علاقات ما قبل الرأسمالية. وتبرز طبقتان متقابلتان في العلاقات الرأسمالية هما الطبقة البرجوازية والطبقة العاملة. وبدورهما تقابلان طبقة ملاكي الأرض الاقطاعية ونظامها القيصري بنظمه الاقتصادية والسياسية والقانونية المعيقة لتطور الرأسمال. ومع التقدم النظري والسياسي والتنظيمي الذي اكتسبته الطبقة العاملة والحركة الاشتراكية في أوربا أصبحت الطبقة العاملة والحركة الاشتراكية في روسيا على حظ من امتلاك التنظيم والأفق السياسيين في نضالها، مما مكنها أن تمتلك بديلاً سياسياً واجتماعياً مختلفاً مثلها مثل الطبقة البرجوازية في مجابهة الحكم القيصري. ولكن طابع التخلف السياسي والاقتصادي والصناعي في روسيا نصف الإقطاعية، حسب وصف لينين، جعل كلاً من بديلي البرجوازية والطبقة العاملة ممثلة بالحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي رغم تقابلهما يلتقيان في نقد ذلك التخلف. وبناءً على هذا الواقع أصبح الحزب الاشتراكي الديمقراطي مجالاً لأن ترى فيه فئات من البرجوازية الصغيرة القومية ممثلاً لبعض تطلعاتها الاصلاحية الديمقراطية والتحديثية الصناعية والاقتصادية، فضلاً عن كونه الحاضنة الرئيسة لتطلعات الطبقة العاملة وبديلها الاشتراكي. وهكذا كان الحزب يضمّ أجنحة في صفوفه متفاوتة في آفاقها السياسية وبدائلها الاقتصادية. الأمر الذي جعل من تاريخ الحزب تاريخاً للصراع بين تلك الأجنحة وانفصال الحزب عنها في خضم نضاله منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى الثورة. وقد دارت تلك الاختلافات والانشقاقات حول مسائل محددة وجوهرية في مختلف المراحل. بدءاً بالانفصال عن الاشتراكيين الشعبيين (الناردونيك)، مروراً بالصراع مع المناشفة والانفصال عنهم حول مسائل عديدة خلال ثورة 1905، مثل علاقة الطبقة العاملة بالسلطة في الثورة البرجوازية وموقفها من البرجوازية الليبرالية، وحول المسألة الزراعية، وأهمها الموقف الأممي للبلشفية في إدانة وفضح الحرب العالمية الأولى ونقدها الشديد للنزعة الوطنية والقومية المتواطئة في الأممية الثانية مع برجوازية بلدانها بتأييدها للحرب. كانت مواقف البلشفية في فصل صفوف حزب العمال عن صفوف البرجوازية في تلك المنعطفات تمثل الوجه اللينيني المميز لجوهر الشيوعية والماركسية[2]. بيد أنّ هذا الجناح الثوري داخل الحزب كان عاجزاً عن الصمود بوجه بديل الجناح القومي الاصلاحي بعد الثورة، وتحديداً حول البديل الاقتصادي للثورة، ولم يطرح بديل الطبقة العاملة في التحويل الاشتراكي للاقتصاد ولم يكافح من أجل ترسيخه.

إن الفشل الرئيس الذي واجهته الطبقة العاملة وحزبها بعد الثورة هو عدم القدرة على فصل صفها وبديلها مرة أخرى عن البديل البرجوازي، حول قضية التحويل الاقتصادي لعلاقات الإنتاج، أو بعبارة أخرى إجراء الثورة الاقتصادية بإحلال

الاشتراكية عبر هدم علاقات الإنتاج الرأسمالية. أي إلغاء الملكية البرجوازية لوسائل الإنتاج وإلغاء العمل المأجور، وتحديداً في عام 1924. إذ تمّ حسم المواجهة إزاء مقاومة البرجوازية في الحرب الأهلية وتآمر القوى الإمبريالية. ففي هذا الوقت أصبحت قضية التحويل الاقتصادي مطروحة بوصفها المهمة الجوهرية والمصيرية للثورة. فقبل هذا التاريخ كانت ظروف الحرب العالمية الأولى قبل انسحاب الحكومة العمالية منها. وتمّ تسيير الاقتصاد في ظروف الحرب وفقاً لسياسة شيوعية الحرب. ثمّ بسبب الدمار الهائل الناتج عن الحرب العالمية والحرب الأهلية التي أصابت البنية التحتية بالدمار في بلد شاسع، واستهلكت الموارد، أفضى الأمر إلى تبني سياسة الـ (NEP) السياسة الاقتصادية الجديدة، لتنشيط الاقتصاد في البلاد وتطوير قوى الإنتاج وتحديث الصناعة وتأمين حاجات المجتمع الأساسية في ظروف أزمة اقتصادية خانقة. ومنذ العام 1924 كانت الثورة أمام خيار انجاز مهمتها التاريخية في الثورة الاقتصادية. بيد أن الحزب البلشفي والجناح الذي كان يمثل الرؤية والبديل الطبقيين في المنعطفات الحاسمة لم يكن مستعداً. ولم يتمكن من خوض صراع حول هذه القضية الأساسية ولم يسعَ إلى تعبئة العمال وأقسامهم الطليعية كما في القضايا السابقة الآنفة الذكر حول البديل الاقتصادي الاشتراكي.

ربما يردّ شخص ما بالقول: أليس هذا مشكلة في الفهم النظري أو انحرافاً من قبل الحزب؟ إن المشكلة ليست في القدرة النظرية بالأساس. إن ما يبدو خللاً على صعيد الطرح النظري هو نابع بالأساس من طابع التاريخ المادي لتقابل الحركات الاجتماعية والطبقية وأحزابها في المجتمع الروسي آنذاك، وتقاطع وإلتقاء بدائلها المطروحة في معرض الصراع الاجتماعي والسياسي. بهذا الشكل يمكن فهم الأسس المادية لما يحدث على الصُعد الفوقية بما فيها الفكرية الآيديولوجية. فهذه الأعراض تعكس خلفها صراعاً اجتماعياً وتمثل درجة من الاستعداد وانسجام الصف في ذلك الصراع. فالطبقة العاملة تقف إزاء الرأسمال ومؤسساته وسلطته في صراع وكفاح يومي من أجل تأمين معاشها عبر بيع قوة عملها. وهي سابقة في وجودها على ماركس والماركسية. وإن الماركسية هي نتاج تلك الحركة الاجتماعية للطبقة العاملة وتعبيرها النظري وليس العكس، والحزب أداتها السياسية.

على الصعيد السياسي جرت المواجهة بين الطبقة العاملة والبرجوازية منذ 1905 مروراً بثورة شباط البرجوازية وصولاً إلى ثورة أكتوبر، والإطاحة بالسلطة البرجوازية. وفي كلّها لم يكن لدى البلاشفة أدنى قصور في الاستجابة لمتطلبات فصل صفوف العمال عن البرجوازية وتسليحهم بسياسة طبقية مستقلة. منذ الإطاحة بالقيصرية في شباط واجتياز كلّ من البرجوازية والطبقة العاملة للعقبة السياسية القيصرية أمامهما أصبحا في مقابل بعضهما مباشرة. كلّ منهما يسعى للسلطة بهدف إجراء بديله الاقتصادي. وكلا البديلين كانا قابلين للتحقق في المجتمع الروسي آنذاك. إنّ البرجوازية لم تتلاشَ بمجرد فقدانها السلطة السياسية بعد أكتوبر. فقد خاضت

البرجوازية المحلية والعالمية حرباً شعواء ضد الثورة من أجل استعادة سلطتها، وهذا يؤكد وجودها المادي. وهي لم تزل في موقع السيادة في عملية الإنتاج الرأسمالي ما لم يتم التحويل الاقتصادي للمجتمع، وإن كانت السلطة بيد الطبقة العاملة أثناء المرحلة الثورية. يمثل امتلاك السلطة أداة في الصراع الطبقي وليس هدفاً بحد ذاته تكتمل وتقف عنده المهمة. فالحديث عن الثورة الاجتماعية عبر العصور لا يعني سوى انتقال السلطة من طبقة قديمة إلى طبقة أخرى جديدة، ولكن ضمان انتصار الثورة والحفاظ عليها مرهون بقلب علاقات الانتاج والقضاء على السيادة الاقتصادية للطبقات القديمة. لم يضع الحزب البلشفي هذا الهدف موضع التنفيذ في معرض صراع البدائل الطبقية المحتدم آنذاك. لم يكن الأفق السياسي للينينية حاضراً في هذه القضية ليتجسم بوصفه وعياً ومسعى في النشاط والنضال اليومي للعمال والجدال الاجتماعي، كما كان في قضية الموقف من الحرب الإمبريالية، أو سلطة العمال وغيرها.

في المناقشات التي دارت في الحزب البلشفي حول البديل الاقتصادي سنة 1924، في فترة مصيرية بالنسبة للثورة، لم يحسم الأمر لصالح الاقتصاد الاشتراكي، وانتهى إلى تبني السياسة الاقتصادية الجديدة (النيب) التي كانت صالحة لفترة مؤقتة وانتقالية بسبب تبعات الحرب والدمار الاقتصادي. امتدت هذه السياسة حتى 1928 لتعود المناقشات مجدداً بهذا الصدد، ولكن كانت الطبقة العاملة من حيث موقعها في الإنتاج ما زالت تمثل طبقة العمال الأجراء في نظام رأسمالي. وهي أبعد عن زخم ثورتها بأكثر من عقد من السنين. وعليه كانت قدرتها على التدخل عبر مؤسساتها التمثيلية (السوفيتات) أضعف من ذي قبل، وممثلو أفقها أوهن في مواجهة مدّ الرأسمال النامي بقوة في البلاد. كانت سنة 1928 الحدّ الفاصل في الانهيار النهائي لثورة أكتوبر وانتصار بديل الجناح القومي الاصلاحي في الحزب البلشفي بعد الانتهاء من سياسة النيب التي كانت توصف بالمؤقتة حتى ذلك الوقت، وبتثبيت بديل رأسمالية الدولة التي لا تعني سوى سيطرة الدولة على الرأسمال ضمن علاقات إنتاج رأسمالية يخضع فيها العمال للعمل المأجور. إنّ أهم مشخصات النظام الرأسمالي هي الملكية الخاصة البرجوازية لوسائل الإنتاج والعمل المأجور كما كشف عنها ماركس. ولم يتغير في الاتحاد السوفيتي جوهر هذا النظام وركيزتاه، سوى أن الملكية الخاصة البرجوازية لوسائل الانتاج أصبحت ملكية الدولة البرجوازية لوسائل الانتاج مع بقاء العمل المأجور. وإنّ التخطيط ومركزة الانتاج ونموه والتطور التقني والتحديث الصناعي التي شكلت مجمل البرنامج الاقتصادي بعد الثورة ليست من جوهر الاشتراكية في شيء. وتشترك البرجوازية الليبرالية الروسية في هذه الطموحات مع البرنامج القومي الاصلاحي في الحزب البلشفي كجزء من بديليهما مقابل التخلف الاقتصادي والصناعي لروسيا القيصرية. وبالنتيجة فإن هذا البرنامج ليس سوى برنامج الطبقة البرجوازية الروسية الممكن في ظروف الصراع والتوازنات ما بعد الثورة. وقد تحدثنا عن الجذور الاقتصادية

والاجتماعية الطبقية في التاريخ الروسي لهذا الالتقاء حول هذه العناصر في كل من بديلي الطبقة العاملة ممثلة بالاشتراكية الديمقراطية وبدائل القوى البرجوازية المختلفة. وقد أثقل هذا كاهل الطبقة العاملة لاحقاً وأصبح أداة لإجراء البرجوازية لبرنامجها الاقتصادي واستعادة سلطتها تحت اسم الاشتراكية والشيوعية في الاتحاد السوفيتي حتى مطلع العقد الأخير من القرن العشرين.

الثورة السياسية والثورة الاقتصادية

إن الخلاصة والدرس الذي يعطيه التحليل الماركسي لتجربة ثورة أكتوبر هو حول أسباب اخفاقها. ولا شك أن ذلك الاخفاق بعد الصعود المدهش لتلك الثورة يكمن في قضية محددة إن أردنا أن نضع أيدينا على الجانب المهم في مجمل المسألة. والسبب هنا هو اندحارها في أهم قضية في فلسفة وهدف اندلاعها، ألا وهو عدم القدرة على إنجاز الشق الاقتصادي من الثورة. فقد انتصرت الطبقة العاملة في ثورتها السياسية واستطاعت مسك زمام السلطة السياسية، ولكنها لم تستكمل شرط انتصارها النهائي المتمثل بالثورة الاقتصادية. فجوهر الثورة الاشتراكية هو التحويل الاشتراكي للاقتصاد. وليس النضال لاستلام السلطة السياسية والوصول إليها سوى وسيلة لبلوغ هذا الهدف وتنفيذه العملي. كتب فريدريك أنجلز في ذكرى وفاة ماركس: ''...إنّ الطبقة العاملة المنتصرة يمكنها أن توظف سلطتها المكتسبة حديثاً، لكبح أعدائها الرأسماليين وإنجاز تلك الثورة الاقتصادية للمجتمع التي من دونها قطعاً سينتهي النصر بكامله إلى الهزيمة وبمذبحة للطبقة العاملة شبيهة بتلك التي وقعت بعد كومونة باريس''[3].

فلا اشتراكية من دون اقتصاد اشتراكي، ولا اقتصاد اشتراكي من دون إلغاء الملكية البرجوازية الخاصة لوسائل الانتاج وإلغاء العمل المأجور، ولا ثورة منتصرة انتصاراً ناجزاً دون الثورة الاقتصادية.

الهوامش

1 - Noam Chomsky: The Kind of Anarchism I Believe in, and What's Wrong with Libertarians, interview by: Michael S. Wilson, https://www.alternet.org/civil-liberties/noam-chomsky-kind-anarchism-i-believe-and-whats-wrong-libertarians.

2 - انظر: منصور حكمت، تجربة ثورة العمال في الاتحاد السوفيتي خطوط عامة لنقد اشتراكي، المختارات، مركز الشيوعية البروليتارية في العالم العربي، 2012، ص219 - 220.

3 - Engels, Frederick. On the Occasion of Karl Marx's Death, Anarchism & Anarcho-Syndicalism Selected Writings, Marx, Engels, Lenin, New World Paperbacks, 1972, p.172.

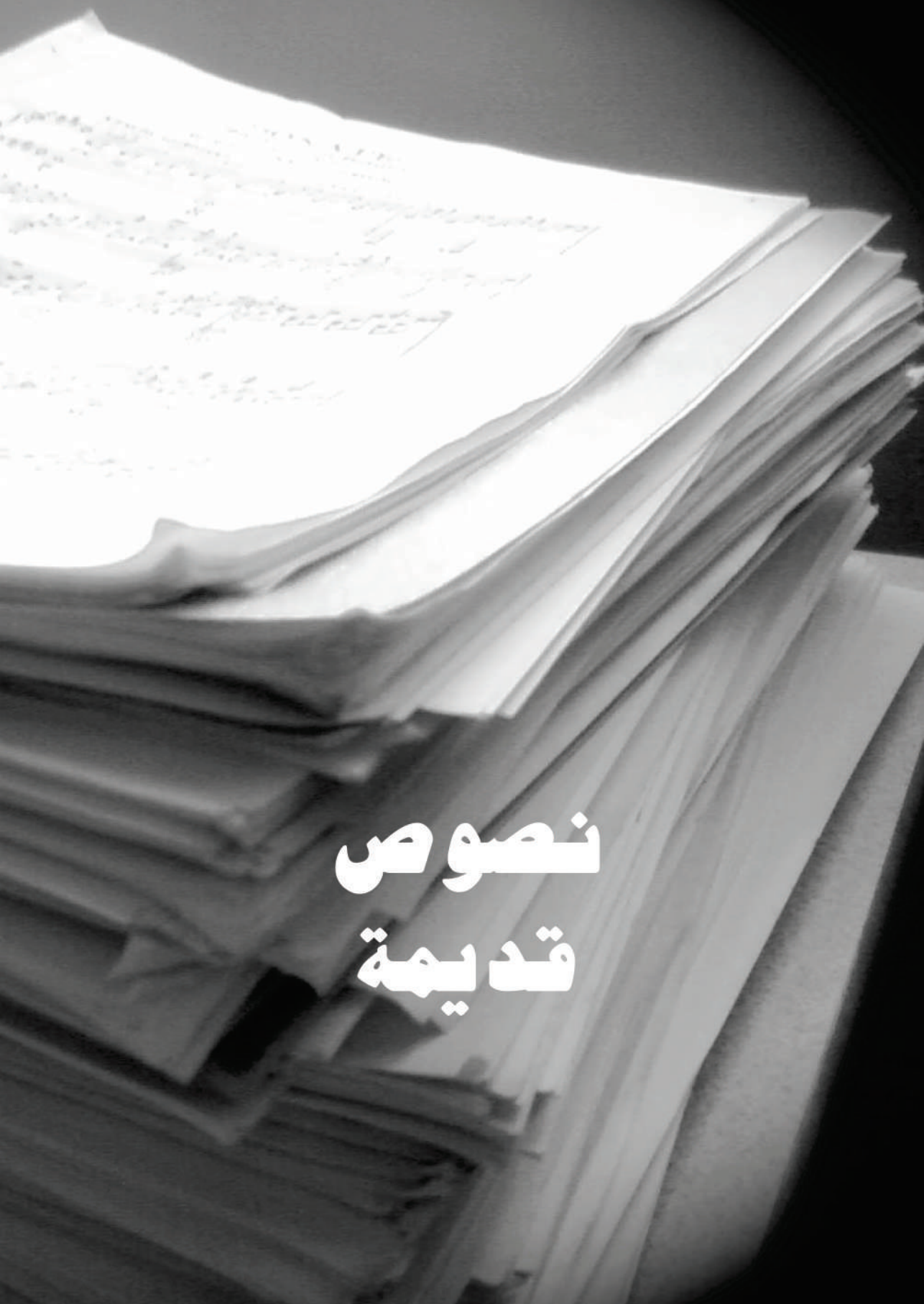

نصوص قديمة

كفاحنا ضد الصهيونية *

عبد الرزاق الصافي

كتابات فهد عن الصهيونية

لقد خاض الحزب الشيوعي العراقي نضالاً لا هوادة فيه ضد الاستعمار والصهيونية ومساندة نضال الشعب العربي الفلسطيني ضد الانتداب البريطاني والغزو الصهيوني لفلسطين، ضمن أبرز الامثلة على ذلك كتابات ومساهمات الرفيق فهد.

أولاً – جوهر الصهيونية:

لعب يوسف سلمان (فهد) مؤسس الحزب الشيوعي العراقي دوراً بارزاً وكبيراً في التعريف بجوهر الصهيونية وكشف صلتها بالاستعمار وخطورتها ليس على فلسطين فحسب، بل وعلى كافة الاقطار العربية، وضرورة التفريق بين الصهيونية واليهودية وأهمية كسب اليهود الى جانب حركة التحرر الوطنية، وجرهم للمساهمة الفعالة فيها. وانطلق (فهد) في كفاحه ضد الصهيونية من مبادئ الماركسية – اللينينية وتراثها في محاربة الصهيونية، ومن تعمقه في دراسة أوضاع حركة التحرر الوطني العربية. وقام بجولة في بعض الاقطار العربية. وأراد زيارة فلسطين، إلا ان سلطات الانتداب البريطاني منعته من القيام بذلك بعدم منحه سمة دخول. ولا تخلو المعالجات السياسية العامة التي كتبها فهد عن الأوضاع في العراق والاقطار العربية من الاشارة الى قضية فلسطين اضافة الى العديد من المقالات الخاصة والملاحظات حول أبعاد المؤامرة الاستعمارية – الصهيونية على فلسطين. وقد تناول ذلك في دراسته عن"الوحدة العربية والاتحاد العربي" عام 1943، وفي نقاط عديدة من الميثاق الوطني للحزب الشيوعي العراقي الذي أقِر عام 1944 وكذلك في تقريره للمؤتمر، وفي مقدمته لكراس الرفيق حسين محمد الشبيبي، عضو المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي والمعنون "الاستقلال والسيادة الوطنية".

ونشر عدة مقالات في "القاعدة" - جريدة الحزب الشيوعي العراقي المركزية، تناولت هذا الموضوع مثل "أعداء ثورة اكتوبر الاشتراكية اعداء قضيتنا الوطنية"، وظل وهو في السجن يتهدده الاعدام يتابع قضية فلسطين ويرسم توجيهاته وتحليلاته للمسؤولين في الحزب.

ومن أبرز مساهمات فهد في النضال ضد الصهيونية عمله في تكوين "عصبة مكافحة الصهيونية" وفضحه النظري للصهيونية في سلسلة مقالات ظهرت في جريدة "العصبة" تحت عنوان "نحن نكافح من أجل من؟ وضد من نكافح؟"، طبعت في ما بعد على شكل كراس، يحمل نفس العنوان. وفي مجموعة مقالاته وكتاباته حول الموضوع تناول كل أوجه القضية: الجذور الطبقية للصهيونية،

طابعها العنصري، العلاقة العنصرية بين الصهيونية والامبريالية ومؤامراتهما على شعب فلسطين وحركة التحرر الوطني العربية، تواطؤ الرجعية الحاكمة مع المؤامرة، ومستلزمات التصدي لها.

عندما حلل (فهد) الجذور الطبقية للصهيونية، كانت طبيعة الصهيونية غير مفهومة بالنسبة لقطاعات واسعة من الجماهير؛ فقد تكشفت مخاطر الصهيونية عندما بدأت الهجرة الى فلسطين تدخل حيز التطبيق على نطاق واسع. وكان ضرورياً للحركة الصهيونية أن تغرز اكذوبة ان كل يهودي هو صهيوني بالفطرة. وقد استرشد (فهد) بالاستنتاجات التي توصل اليها ماركس ولينين حول المسألة اليهودية وشعارات الصهيونية، وحدد جوهرها الطبقي باعتبارها (التعبير الصادق للرغبات والمصالح الطبقية للرأسمال اليهودي في انكلترا وأمريكا وللاحتكارات الاستعمارية الانكليزية والامريكية).

ثانياً – الفاشية والصهيونية

فضحت الحرب العالمية الثانية حقيقة النازية وزيف شعاراتها. وقد استثمرت الصهيونية اندحار النازية وحاولت أن تستثمر المجازر التي ارتكبتها النازية ضد اليهود لاغراضها، مستندة الى التعارض الظاهري الشائع بين النازية والصهيونية لتخفي مقاصدها الحقيقية، في ذلك الوقت. وبعد مضي أقل من عام على دحر الفاشية كتب (فهد) في جريدة ''العصبة'': ''اننا في الحقيقة لا نرى في الفاشية والصهيونية سوى توأمين لبغي واحد، هو العنصرية محظية الاستعمار. ان الفاشية والصهيونية تنهجان خطين منحرفين يلتقي طرفهما وتتشابه أهدافهما، وكل منهما نصبت نفسها منقذة وحامية لعنصرها، فالأولى بذرت الكره العنصري ونشرت الخوف والفوضى في انحاء المعمورة وورطت شعوبها وأولعت بهم نيران حرب عالمية لم تتخلص أمة من شرورها. والثانية الصهيونية التي بذرت الكره العنصري ونشرت الخوف والفتن والارهاب في البلاد العربية وغررت بمئات الالوف من أبناء قومها وجاءت تحرقهم على مذبح اطماعها واطماع أسيادها المستعمرين الانكليزي والامريكان، فتشعل بهم نيران الاضطرابات في البلاد العربية. وقد كان من اعمالها الاجرامية ان حولت فلسطيننا الى جحيم لا ينطفئ سعيره ولا تجف فيه الدموع والدماء وتهددت الاقطار العربية بأخطارها وبأخطار القضاء على كيانها القومي جراء بقاء وتثبيت النفوذ الاستعماري فيها وجراء المشاكل العنصرية التي تحاول اثارتها''.

وقد كانت الأنظمة الرجعية الحاكمة تحاول تبرئة أسيادها الامبرياليين، فتتستر على حمايتهم ورعايتهم للنشاط الصهيوني، وتحاول إظهار ما يجري وكأنه (مؤامرة يهودية بحتة) لا علاقة لبريطانيا بها. وفي نفس الوقت كانت الصهيونية تحاول اظهار نفسها كحركة مستقلة، كامتداد ديني للحلم اليهودي القديم في فلسطين، وتتستر وراء أقنعة دينية (ممثلة شعب الله المختار) أو على انها ''حركة توحيد يهود الشتات في وطن قومي''.

وأحياناً تقدم نفسها بقناع اشتراكي لخداع الشغيلة اليهود، ولذلك ركز يوسف سلمان (فهد) في كتاباته على الربط بين الصهيونية والامبريالية والتنسيق المشترك بينهما في

المنطقة. وكتب يقول: ”وليست الصهيونية سوى رأسمالية استعمارية تعمل لاستغلال واستعباد الجماهير اليهودية سياسياً واقتصادياً وفكرياً وفي نفس الوقت أداة مسخرة بأيدي الاستعمار الانكليزي والامريكي وحارسه الأمين، تعمل لتنفيذ الخطط الاستعمارية في البلاد العربية لغرض تثبيت وبسط السيطرة الاستعمارية. لقد تبناها الاستعمار البريطاني لغرض ايجاد حليف له في قلب البلاد العربية، في فلسطين، لغرض شطر فلسطين عن البلاد العربية الاخرى واتخاذها قاعدة حربية تسهر على مصالحه ضد الحركات التحريرية في البلاد العربية والشرق الأدنى والاوسط، لغرض اشغال الشعوب العربية بصد الهجوم الصهيوني وحرفها عن النضال من أجل استقلالها“[1].

وفي التقرير الذي قدمه للمؤتمر الأول للحزب الشيوعي العراقي، استعرض (فهد) أوضاع المنطقة، وأكد مسؤولية بريطانيا والحلفاء عموماً؛ إذ ذكر ان الحلفاء كانوا قد قطعوا البلاد العربية قطعاً صغيرة، ووزعوها فيما بين انكلترا وفرنسا وفق معاهدات سرية عقدوها فيما بينهم، وكذلك قطعوا عهوداً للصهيونية بتأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين.

وفي مقدمة كراس حسين محمد الشبيبي (الاستقلال والسيادة الوطنية) اشار فهد الى ان ”بريطانيا سلكت ولا تزال تسلك سياسة عدائية تجاه شعبنا الشقيق في فلسطين وبنود المعاهدة وقواعدها العسكرية في العراق وامتيازاتها الاستشارية وغيرها منعتنا، ولا تزال تمنعنا، كما تمنع مثل هذه العوامل مصر وشرق الأردن وغيرها من مساندة فلسطين مساندة ايجابية.

ثالثا- التحالف مع الولايات المتحدة

لاحظ (فهد)، الذي أكد باستمرار مسؤولية بريطانيا، ان الصهيونية قد جعلت نفسها أداة للاستعمار الأقوى. وقد أخذت الولايات المتحدة بعد الحرب تعد نفسها للحلول محل بريطانيا في المنطقة، مستخدمة حصان طروادة الاستعمار الامريكي الجديد، كما وجدت الامبريالية الامريكية تتبنى الاطماع الصهيونية لخدمة نفوذها في المنطقة. وقد شخص (فهد) في تقريره للمؤتمر الأول للحزب قائلاً: ”ان التنافس الاستعماري الامريكي الذي ظهر منذ أكثر من سنة بشكل اقتصادي للاستحواذ مصادر نفطية في البلاد العربية، ثم الدفاع عن القضية الصهيونية يظهر الآن بشكل جديد“. وحلل في مقالته (نحن نكافح من أجل مَن وضد مَن نكافح)، ابعاد التحالف الصهيوني الامريكي: ”ان المصالح الامريكية الناشئة في البلاد العربية ورؤوس أموالها المستثمرة بالاشتراك مع الرأسمال الصهيوني في فلسطين، ووعد الصهاينة بتوظيف رؤوس أموال امريكية كبيرة جداً، وتطلع أمريكا لاستخلاف الامبرياليزم البريطاني في فلسطين واتخاذها قاعدة لحماية مصالحها في البلاد العربية، كل هذه شملت الولايات المتحدة على استخدام نفوذها كاحتياطي للصهيونية“.

رابعا- تواطؤ الحكام العرب

لقد وجد فهد ان الانظمة العربية العميلة كانت واقعة في ورطة كبيرة، بعد اتساع المؤامرة على فلسطين؛ ففي الوقت الذي تساير فيه الغضب الجماهيري العربي، وتتباكى على الحق العربي في فلسطين، نجد هنا لا تحتمل

الصحافة العربية الحرة التي تعالج القضايا العربية، وبالاخص قضية فلسطين، وتكشف مسمياتها وعما يحاك في الخفاء كما أشار في "قضيتنا الوطنية". فباسم الدفاع عن فلسطين كانت تعتقل وتحارب كل المدافعين عن القضية. كما تكشف زيف الوعود البريطانية التي تذرعت بها هذه الأنظمة بعد أن انفضح دور بريطانيا في دعم النشاط الصهيوني. وفي 7 تشرين الثاني 1946 كتب مقالا في جريدة "القاعدة" تحت عنوان (اعداء ثورة اكتوبر اعداء قضيتنا الوطنية) بيّن فيه تواطؤ بريطانيا وعملائها من الحكام العرب مع الصهيونية، وفي نفس العدد من "القاعدة" ظهر مقال يوضح تناقضات الرجعية العربية، جاء فيه: "يرى حزبنا ان مساعي رجال الجامعة العربية وموقفهم الحالي لا يتفق مع الأهداف التي أعلنوا عنها. ان الجامعة تحاشت وتتحاشى القيام بالتزاماتها. انها تهربت من واجب الدفاع عن سوريا ولبنان ويتحاشون الاجتماع والبحث في أهم القضايا العربية كقضية الهجرة الى فلسطين".

وقد عمل (فهد) على فضح الاشكال المباشرة وغير المباشرة من تواطؤ الرجعية العربية مع المؤامرة. وأكد ان وراء نجاح الصهيونية عوامل ذاتية هي في صلب تركيبة الأنظمة الحاكمة وسياستها في شتى المجالات. وعمل على ان يحمّل الانظمة العربية مسؤولية نجاح المؤامرة على فلسطين؛ ففي مقاله (نحن نكافح..)، الذي ذكرناه سابقاً اشارة الى ان "القواعد البريطانية الحربية والمدنية في البلاد العربية وما يتبعها من أرتال خامسة وحكومات لا تقوم على أساس انتخابات ديمقراطية شعبية صحيحة هي من احتياطي الصهيونية". وأشار الى ان سياسة الانظمة الحاكمة كانت من العوامل المشجعة لنجاح الصهيونية: "ومن العوامل المشجعة للصهيونية فقدان الحريات الديمقراطية الصحيحة في البلاد العربية، حرمان الجماهير الشعبية من تأليف أحزابها السياسية وجمعياتها وحرمان الطبقة العاملة من تأليف حزبها السياسي". كذلك "السياسة التقليدية التي نهجها حكام البلاد العربية سياسة المفاوضات والانتظار والاعتماد على النوايا الحسنة لدى الدول الامبريالية المنتدبة على فلسطين".

وقد وجد (فهد) ان طريق مكافحة الصهيونية هو طريق النضال ضد الأنظمة الرجعية القائمة، والاعتماد على الجماهير الشعبية. وكتب يقول "نعم ان للعرب بكل تأكيد قوى كبيرة واحتياطاً هائلاً تفوق قوى واحتياطي الصهيونية ..."، ووجد ان الاحتياطي الحقيقي للأمة العربية هو في جماهيرها الشعبية ".. فيجب ان نعلم جيداً" ان فلسطين لا تتحرر، اذا اقتصر أمر تحريرها على اجراءات الحكومات العربية دون أن تشترك الجماهير، وكما هو الحال في ظروفنا الراهنة، حيث الرجعية تسخر امكاناتها لخدمة اهداف الامبريالية – حليفتها الطبيعية – ومن خلالها خدمة الصهيونية العالمية ومخططاتها"[2].

القسم الخامس
تأسيس مكافحة الصهيونية

لم يكتف (فهد) بالتوجه الى فضح الصهيونية، بل وتوجه الى تنظيم الكفاح ضدها لمجابهة اشتداد النشاط الصهيوني ولالتهاب القضية الفلسطينية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، ومن أجل جذب اليهود الى النشاط ضد الصهيونية، قام بتوجيه عدد من أعضاء

الحزب من اليهود الى تقديم طلب لتأسيس ''عصبة مكافحة الصهيونية'' في أوائل شهر أيلول 1945، وقد ساعد وجود وزير داخلية وطني (سعد صالح) على اجازة العصبة في يوم 16/ آذار 1946، قبل اجازة الأحزاب الوطنية الاخرى بأسبوعين. وكان (فهد) يوجه هذه العصبة ويشرف على نشاطاتها بنفسه.

لقد جاء في العريضة التي رفعها مؤسسو العصبة لطلب الاجازة:

''ان الصهيونية خطر على اليهود مثلما هي خطر على العرب، وعلى وحدتهم القومية. ونحن اذ نتصدى لمكافحتها علانية وعلى رؤوس الاشهاد انما نعمل ذلك لأننا يهود ولأننا عرب بنفس الوقت..''.

''وان الصهيونية شأنها شأن كل حركة استعمارية استغلالية ترمي الى جر المغانم والارباح لنفسها، وان كان في ذلك تضحية بجماهير اليهود. لكن الصهيونية ككل حركة استعمارية رجعية تشعر ببشاعة شكلها وقبح معالمها فتقنع نفسها بأقنعة جذابة وأثواب جميلة فضفاضة. تخفي وراءها بشاعتها وقبحها. ولذلك فنحن بوصفنا يهوداً وطنيين واعين نتقدم بطلبنا هذا لغاية السماح لنا بتمزيق القناع عن وجه الصهيونية الحقيقي أمام الجماهير اليهودية وغير اليهودية''.

''ان الصهيونية يعاونها في ذلك الرجعيون والمستعمرون تعمل دوماً على الخلط بين اليهود والصهيونية، فيذهب ضحية دعايتهم المغرضة هذه كثير من السذج والمخدوعين، وبذلك يحاولون تمزيق وحدة البلاد وضرب الحركة الوطنية التحررية..''.

''ولما كانت قضية فلسطين هي قضية البلاد العربية بأسرها، فلا يمكن اذن أن نقف إلا بجانب عرب فلسطين.. و(الدعوة) لحل قضية فلسطين على أساس منع الهجرة اليهودية وايقاف انتقال الاراضي العربية الى أيدي الصهاينة وتأليف دولة ديمقراطية عربية مستقلة استقلالا تاماً تضمن فيها حقوق كافة المواطنين عرباً ويهوداً''[3] وحدد المنهاج بمادته الثانية أهداف العصبة: ''مكافحة الصهيونية وفضح أعمالها ونواياها بين جماهير الشعب العراقي، ولاسيما بين اليهود وتلك قضية لها خطورتها في حياتنا الوطنية. ولذلك تستهدف العصبة القضاء على نفوذ الصهيونية ودعايتها''.

''ولم تقتصر العصبة في عضويتها على اليهود فقط بل جعلت باب الانضمام مفتوحاً لكل العراقيين، وبعد اجازتها وجهت نداء جاء فيه: ''تدعو الهيئة المؤسسة لعصبة مكافحة الصهيونية بعد ان حصلت على اجازة وزارة الداخلية الشباب اليهودي وجميع المواطنين الآخرين للانضمام اليها والتعاون معها لتحقيق أهدافها الوطنية''[4].

وتأييداً لطلب الهيئة المؤسسة رفع 31 من الشباب اليهودي في البصرة عريضة الى وزير الداخلية يطلبون الموافقة على تأسيس العصبة والتي ''تحول دون تسمم أفكار الشباب اليهودي بالوعود الصهيونية الكاذبة التي تدفع السذج منهم الى الهرب الى فلسطين''(5). ودون أن تنتظر الهيئة المؤسسة الاجازة بدأت نشاطاتها فقابل عدد كبير من وفود الهيئة المؤسسة كثيراً من الساسة الرسميين والشخصيات الاجتماعية للتعريف بأهداف العصبة، وقد أجمعت تلك الشخصيات في حينه على ضرورة وجود مثل هذه المنظمة، مؤكدة على التفريق بين الصهيونية واليهودية، فالصهيونية مبدأ سياسي عنصري، بينما اليهودية دين فقط. وأكدت تلك الشخصيات ان اليهود عاشوا في العراق منذ آلاف السنين وخالطوا العرب.

وبمناسبة ذكرى (وعد بلفور) اصدرت العصبة بياناً تعلن فيه "باسم يهود العراق استنكارها لهذا الوعد واحتجاجها عليه"، وتختمه بهذه الشعارات:

عاش نضال العرب في سبيل حرياتهم واستقلالهم

عاشت فلسطين عربية مستقلة ديمقراطية.

عاش الشعب العراقي متآخياً متضامنا متحداً.

ليسقط وعد بلفور المشؤوم وليسقط الاستعمار.

لتسقط الصهيونية عميلة الاستعمار وعدوة العرب واليهود[6].

وطلب مؤسسو العصبة الى السلطات المختصة السماح لهم باقامة اجتماع شعبي عام، احتجاجاً على وعد بلفور إلا انها رفضت الطلب[7] ولصدور بيان مستر بيفن وزير خارجية بريطانيا وترومان رئيس الولايات المتحدة أصدرت العصبة في 25 /11 /1945 مذكرة استنكارية وجهتها الى رئيس الحكومة العراقية وأمين الجامعة العربية ورؤساء حكومات الدول العربية ورؤساء حكومات الدول الكبرى، جاء فيه: "لما كانت قضية كل بلد عربي يناضل ضد الاستعمار في سبيل حريته واستقلاله هي قضية البلاد العربية بأسرها، فإن قضية فلسطين المجاهدة هي قضية كل عربي وكل مواطن في البلاد العربية، بل انها قضية كل انسان حر في أية بقعة من العالم"، و"ان النضال في سبيل فلسطين لا يمكن أن يكون غير نضال ضد الاستعمار بكل أشكاله. وان الكفاح ضد الصهيونية عميلة الاستعمار لا يمكن أن يكون غير كفاح ضد الاستعمار نفسه، ومن أجل منع الهجرة الصهيونية، وايقاف بيع الأراضي، وحل المنظمات الصهيونية الارهابية واستقلال فلسطين".

"ان عصبتنا التي تتكلم باسم يهود العراق تعادي الصهيونية، لأنها تسعى لجعل اليهود العوبة بيد الاستعمار وقرابين يقدمها على مذبح مطامعه وشهواته واستغلاله متى ما وجد ضرورة لذلك تماشياً مع السياسة الاستعمارية المعروفة "فرق تسُد". أجل ان عصبتنا تستنكر كل سياسة تقصد توجيه الحركات الوطنية العربية توجيهاً "عنصرياً" وتعتبر الاضطرابات التي حدثت في مصر وطرابلس خدمة للصهيونية والاستعمار"[8].

وبمناسبة قدوم لجنة التحقيق الانكليزية – الامريكية الى العراق، أصدرت الهيئة المؤسسة للعصبة بياناً في 14 - 3 - 1946 كشفت فيه الغرض من تأليف وإيفاد اللجان التحقيقية وهو "المماطلة والتسويف واشغال العرب عن قضيتهم بقصد القيام بهجوم جديد لدعم الصهيونية وتثبيت أقدام المستعمرين في فلسطين وفي البلاد العربية". وأكدت العصبة في البيان "ان يهود العراق يرون في الدعوة الصهيونية أداة تهديم وخطر على سلامة الشعوب وعلى الأمن العام لأنها تدعو الى اثارة الحقد العنصري والمذابح كما كانت الفاشية تدعو الى محو العنصر السامي.. تريد الصهيونية حل المشكلة اليهودية بإفناء الشعب العربي الفلسطيني وتريد أكثر من ذلك أن تغزو البلاد العربية بأسرها. ان زعماء الصهيونية لم يستطيعوا إخفاء الصبغة الطبقية الاعتدائية للصهيونية واعتمادهم على مساعدة الاستعمار للبقاء في فلسطين ولاستثمار الجماهير اليهودية والعربية على حد سواء".

"ان عصبتنا تدعو شعبنا العزيز لمقاطعة لجنة التحقيق هذه وترى ان حل قضية فلسطين لا يتم إلا عن طريق توحيد نضال الشعوب العربية واعتمادها بالدرجة الاولى على كفاحها

الوطني المشترك وعلى رفع قضية فلسطين الى مجلس الأمن للأمم المتحدة، (من أجل):
1 - الغاء الانتداب، واستقلال فلسطين استقلالاً تاماً.
2 - تمكين الشعب الفلسطيني من تأليف حكومة وطنية ديمقراطية تضمن مصالح وحقوق جميع سكان فلسطين الحاليين دون تمييز في العنصر والدين"[9].

وتدعي بعض المصادر ان الحكومة العراقية قد اجازت العصبة على طلبها السابق المقدم في أيلول 1945 من أجل أن تظهر العصبة أمام لجنة التحقيق، غير ان العصبة دعت الى مقاطعة اللجنة قبل وصولها، واجيزت العصبة يوم وصول اللجنة في 16 آذار 1946 ولم تقابل اللجنة في الوقت الذي قابلها فيه بعض ساسة العراق وممثلو بعض القوى الوطنية والقومية[10]. واثر صدور قرار لجنة التحقيق أقامت العصبة اجتماعاً شعبياً كبيراً في مقرها العام استنكاراً للقرارات الصادرة عن اللجنة، وصدرت عن المجتمعين عدة قرارات منها: عرض قضية فلسطين حالاً على مجلس الأمن، باعتبار ان الانتداب والصهيونية في فلسطين يهددان السلم العالمي – قطع العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية مع بريطانيا وأمريكا – المطالبة بجلاء الجيوش الاجنبية عن جميع ديار العرب – اعتبار اشتراك الجماهير العربية في الكفاح من أجل فلسطين هو أنجح سلاح بوجه الصهيونية والاستعمار، ولذلك ضرورة الكفاح من أجل اطلاق الحريات الديمقراطية بصورة كاملة وتثبيتها وتوسيعها.

وقد استطاعت العصبة بفضل نشاطها وفهمها لطبيعة الصهيونية والاستعمار تعريف القضية الفلسطينية لعشرات الالوف من المواطنين تعريفاً علمياً، واستطاعت أن تهاجم الصهيونية وتزعزع مركزها في الأوساط اليهودية، وتكشف عن صفتها الاستعمارية الرجعية المعادية لليهود، وعرّت الصهيونية كحركة استعمارية عنصرية.

وبالنظر لما حققته العصبة من نشاط بارز في النضال ضد الصهيونية أخذت الهيئات العربية توجه لها الدعوات للمساهمة في الفعاليات التضامنية مع فلسطين، فتلقت برقية من عميد اللجنة العليا في فلسطين جمال الحسيني، للمشاركة في الاضراب، احتجاجاً على قرارات لجنة التحقيق مؤرخة في 2 - 5 1946- كما واستلمت برقيات تأييد من اللجنة التنفيذية لمؤتمر العمال العرب في يافا، ومن عصبة التحرر الوطني في حيفا، ومن جمعية العمال العربية في غزة. وكانت الصحافة التقدمية في مصر تتابع نشاط العصبة حيث نشأت في مصر أيضاً الرابطة الاسرائيلية لمكافحة الصهيونية.

ولم يرق نشاط العصبة للاستعمار والرجعية والصهيونية، فجرت مضايقة نشاطاتها والتشهير بها، فما أن اجيزت حتى أحيلت الهيئة المؤسسة الى المحاكمة لقيامها باصدار بيان ضد وعد بلفور باسم الهيئة المؤسسة، قبل اجازة العصبة. وبدأت المحاكمة يوم 30 - 3 - 1946 وصدر الحكم يوم 4-6 وتقرر الافراج عن المتهمين "لعدم توفر الادلة، ولأن القصد من تأسيس العصبة هو العمل للصالح العام". غير ان السلطات الرجعية بعد اقالة وزارة (توفيق السويدي – سعد صالح) وتنصيب وزارة أرشد العمري، أغلقت بعد عدة أشهر جريدة العصبة، ثم قدمت مسؤوليها الى المحاكمة وصدر الحكم بحجة ان مكافحة الصهيونية تعني الكفاح عن الصهيونية...!

الفصل الخاص بقضية فلسطين في برنامج الحزب الشيوعي العراقي أقره المؤتمر الوطني الثالث للحزب الذي انعقد في الفترة من 4 - 6 أيار 1976.

خاض حزبنا نضالاً فكرياً وسياسياً مثابراً ضد الصهيونية بوصفها حركة عنصرية وربيبة للاستعمار العالمي.

لقد ظهرت الحركة الصهيونية في أواخر القرن الماضي برعاية وتشجيع الاحتكارات الامبريالية العالمية، التي كانت تتنافس على وضع تلك الحركة العنصرية في خدمتها، لشق وحدة الحركة العمالية والنضال الاجتماعي المشترك.

لقد تبنى الاستعمار العالمي فكرة (الوطن القومي لليهود) لتطمين خططه وأهدافه واستهدفت الامبريالية من وراء العمل على اقامة (الوطن القومي اليهودي) في فلسطين بالذات، محاربة حركة التحرر الوطني العربية، وتطمين وتثبيت المصالح الاستعمارية، ولاسيما البترولية، في هذا الجزء من العالم، وخلق واقامة موقد للتوتر يهدد السلم والأمن في المنطقة، وخلق واقامة دولة خاضعة للاستعمار وقائمة على مساعداتها الاقتصادية والعسكرية. وقد وضعت الحركة الصهيونية نفسها في خدمة مختلف الدوائر الاستعمارية المتصارعة في آن واحد، حتى انتهى بها الأمر الى ان تصبح، قبل كل شيء، أداة بيد الاستعمار الأقوى، الامريكي، بالرغم من استمرارية خدمتها للدول الاستعمارية الاخرى. ان الاستعمار وربيبته الصهيونية هما المسؤولان عن الحيلولة دون تصفية الانتداب البريطاني ودون قيام دولة ديمقراطية موحدة مستقلة في فلسطين، يتعايش فيها العرب واليهود، وهما المسؤولان عن حرمان الشعب العربي الفلسطيني من اقامة دولته الوطنية المستقلة، فيما بعد، وفقاً لقرارات الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة عام 1947.

ان اسرائيل تقوم على اسس شوفينية عنصرية توسعية تحت ستار الدين، ووفق مخطط استعماري واسع، ومن خلال الاعتداء على الشعب العربي الفلسطيني وتشريده من دياره وحرمانه من حق تقرير مصيره بنفسه على أرض وطنه. ان خيانة الملوك والحكام الرجعيين العرب لم تسهل فقط قيام اسرائيل بل ساعدتها على تجاوز الحدود المرسومة لها من قبل هيئة الأمم المتحدة، واحتلال المزيد من الأراضي العربية، وتحدي قرارات الهيئات الدولية، وتزويدها بمئات الالوف من يهود البلدان العربية بتهجيرهم بالتعاون مع الصهاينة. وما انفكت القوى والانظمة الرجعية حتى يومنا هذا، تضعف طاقات البلاد العربية وقدرات جيوشها وتسهل بالتالي أعمال العدوان المتعاقبة التي تمارسها اسرائيل ضد البلاد العربية.

لقد برهنت اسرائيل منذ قيامها على كونها أداة استفزاز وعدوان في أيدي المستعمرين وخصوصاً الامريكان. وعلى انها موقد توتر وحرب، وامتداد للنظام الامبريالي العالمي. وان السياسات التوسعية العدوانية التي مارستها وخصوصاً عدوانها في حزيران 1967 واحتلالها لجميع فلسطين ولأراض سورية ومصرية، قد أدانتها أمام الرأي العام التقدمي العالمي، وفضحت طبيعتها العنصرية العدوانية.

ان النضال ضد عدوانية اسرائيل وضد مطامع الصهيونية جزء لا يتجزأ من النضال ضد الامبريالية العالمية وبالأخص الامريكية،

التي جعلت من اسرائيل قاعدتها الأمامية في الوطن العربي. وان النضال ضد الصهيونية هو نضال تحرري قومي عادل، رغم المحاولات التي بذلها ويبذلها المستعمرون والرجعيون العرب لدفع هذا النضال وجهة عنصرية تعصبية أو دينية. كما تساهم في هذا النضال القوى التقدمية داخل اسرائيل نفسها.

ان أية دعوات وشعارات لفصل النضال ضد الصهيونية عن النضال ضد الاستعمار، وبخاصة الامريكي، ومواقفه في البلاد العربية، وضد احتكاراته البترولية، وبوجه خاص، ليس غير دعوات وشعارات مشبوهة تخدم أعداء الأمة العربية. ان اسرائيل لم تجرؤ يوماً ما على العدوان وعلى تحدي قرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن لولا التشجيع والدعم والتحريض من جانب دول الاستعمار.

وان النضال الظافر ضد عدوان اسرائيل وضمان اقامة سلم عادل في المنطقة يستلزم في الاساس وحدة القوى التقدمية وكل القوى المعادية للإمبريالية في البلدان العربية وتنسيق نضالاتها والتحالف مع قوى التحرر والاشتراكية في العالم.

ان حزبنا الشيوعي العراقي يناضل من اجل عودة الشعب العربي الفلسطيني الى دياره، وتمكينه من تقرير مصيره بنفسه على ارض وطنه، بما في ذلك اقامة دولته الوطنية.

ويدعم حزبنا، بكل الصور، مختلف اشكال النضال والمقاومة الشعبية، بما في ذلك الكفاح المسلح الذي يخوضه الشعب العربي الفلسطيني وحركته الوطنية التحررية، ويدعم وحدة فصائلها.

وفي الظرف الراهن، يكتسب النضال من اجل تحرير كامل الاراضي العربية المحتلة في عدوان حزيران 1967 واقامة الدولة الوطنية الفلسطينية، اهمية عملية ومباشرة، تواجه الشعوب العربية كلها، يتطلب تحقيقها تعبئة طاقات البلاد العربية في النضال، بمختلف اشكاله السياسية والعسكرية والاقتصادية.

لقد عانى الشعب العربي الفلسطيني محناً وويلات دامية، وسوف يأتي اليوم الذي يسترد فيه كامل حقه المشروع في ارض وطنه بفضل ارادته وارادة الجماهير الثورية في العالم العربي، وبالاستناد الى دعم قوى الاشتراكية والتحرر في العالم، وبالتحالف الثابت معها.

***نشرت المادة في عام١٩٧٧**

الهوامش

1 - فهد، (نحن نكافح من أجل من؟ وضد من نكافح).

2 - ''نحن نكافح..''.

3 - المنهج والنظام الداخلي لعصبة مكافحة الصهيونية 1946 (بغداد: مطبعة المعارف 1946)، ص 3 - 7.

4- جريدة الاخبار 21/3/1946، نقلاً عن الاقلية اليهودية ج 1 ص 116 - 117.

5- الاقلية اليهودية، ص 116.

6- في /11 /1945.

7- العصبة في كفاحها ضد الصهيونية (بغداد: دار الحكمة، 1946)، ص223.

8- نفس المصدر السابق، ص 29.

9- نفس المصدر السابق، ص 32-30.

10- عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، الجزء السابع (صيدا: مطبعة الوفاق، 1955)، ص 14.

نصوص مترجمة

في حوار مع دليما روسيف رئيسة جمهورية البرازيل المعزولة *
انقلابيو البرلمان ينفذون سياسات معادية للشعب

حوار: أنا كارولينا شيلر وبيتر شتاينيغر
ترجمة: رشيد غويلب

دليما روسيف رئيسة جمهورية البرازيل المنتخبة ديمقراطيا

ديلما روسيف هي أول رئيسة جمهورية في تاريخ البرازيل، وتنتمي إلى حزب العمل اليساري. أعيد انتخابها لدورة رئاسية ثانية في تشرين الأول 2014. وفي عام 2016 صوتت الأكثرية اليمينية في البرلمان على عزلها من منصبها بحجة ارتكابها مخالفات في إجراء مناقلات في الموازنة. اجري الحوار معها في العاصمة الألمانية برلين التي زارتها في منتصف تشرين الثاني 2017، بدعوة من مؤسسة فردريش ايبرت لإلقاء محاضرات، من ضمنها محاضرة حول تسييس القضاء. القتها في جامعة برلين الحرة في 14 تشرين الثاني، واجراء لقاءات سياسية بضمنها لقاء مع قيادة حزب اليسار الألماني. ونشر الحوار في جريدة "يونغه فيلت" (العالم الشاب) اليسارية الصادرة في العاصمة برلين.

*** السيدة الرئيسة، خلال سنوات الدكتاتورية كنت تنتمين إلى منظمة يسارية راديكالية، مارستِ العمل السري، وقضيتِ سنوات طويلة في السجن، كيف تأثرت ايدولوجيا؟**

ـ لقد اكتسبت تعليما سياسيا شاملا. في البداية كان مصدر معارفي مجموعات ماركسية. ومررت هناك الى حد بعيد بالمدرسة التقليدية الماركسية، وقمنا بدراسة جميع الكلاسيكيين الماركسيين. وحتى توفرت لنا الفرصة في السجن الحصول على اعمال ماركسية مهمة، مثل كتاب "راس المال" بمجلداته الثلاث. وكذلك "المسألة الزراعية" لكارل كاوتسكي، ولكننا لم نطلع على اعمال روزا لوكسمبورغ. وكان عندي كتاب ثوري بالاسبانية، حمل ختم الرقابة العسكرية. ربما لم يدركوا ما يتناوله الكتاب.

*** في العام الفائت تم عزلك من منصب رئيسة الجمهورية، تنعتين ذلك بالانقلاب، ولكن الجيش بقي في الثكنات ...**

ـ كنت شاهدا على انقلابين؛ الأول انتج الدكتاتورية العسكرية في عام 1964، وكان نموذج زمنه. وفي اطار الحرب الباردة تقبل العالم مثل هذه التدخلات التي تدعمها الولايات المتحدة، وهذا ما حدث عندنا. وهذا ما اثبته الكشف عن الارشيف في الولايات المتحدة. وكذلك تورطهم في انقلاب بينوشت (اسقاط حكومة الوحدة الشعبية اليسارية بزعامة سلفادور أليندي في شيلي 1973 - المترجم) والانقلابات الاخرى التي حكمت امريكا اللاتينية. والذي حدث في البرازيل كان انقلابا عسكريا تقليديا، فقد تم قمع حرية التنظيم، والتعبير وحرية الصحافة. وأية محاولة للالتفاف على ذلك تؤدي الى السجن. وخصوصا بعد صدور القانون الدستوري رقم 5 في كانون الأول 1968، إذ اعتمدت السلطة على الإبادة الجسدية للمعارضة، ولعبت ممارسة العنف دورا كبيرا.

الاطاحة بي مثل نوعاً آخر من الانقلاب، في ظل ظروف تاريخية متغيرة. لقد حدث ذلك، على الأقل شكليا، في داخل المؤسسات الديمقراطية، وأدى الى انتصار أولئك الذين يريدون تدمير الديمقراطية، التي فزنا بها، منذ عام 2002، أربع مرات متوالية، وكان آخرها في عام 2014. ومن المثير للانتباه أن هذا الانقلاب البرلماني ـ القانوني يستند على نهج ميلتون فريدمان (منظر الليبرالية الجديدة، 1912 - -2006 المحرر). وفقا لفريدمان، يجب استغلال أزمة ما من أجل تحويل ما هو مستحيل سياسيا إلى حتمية سياسية.

*** ما حجم الدكتاتورية اليوم في البرازيل؟**

ـ اثناء عملية التصويت لعزلي اهدى النائب ميب جاير بولسونارو صوته الى الدكتاتورية وجلاديها. لا يمكن تصور ذلك في الأرجنتين أو تشيلي أو أورغواي؛ ففي هذه البلدان تمت إدانة الجلادين. وفي البرازيل، كانت العودة إلى الديمقراطية مصحوبة باتفاق نخبوي على قانون لعفو شامل. وللعلم فأن التعذيب جريمة لا يمكن للمرء أن يشتري براءته منها بدون ثمن. ولاحقا كانت هناك محاولات لإلغاء هذا الاتفاق، ولكن لم يحالفها النجاح. ومن أجل الانتقال من الديمقراطية "المخففة" إلى ديمقراطية كاملة، ستكون هناك

حاجة لاستفتاء شعبي. ولهذا نناضل للفوز بالانتخابات في عام 2018.

*** منذ الاحتجاجات الجماهيرية في عام 2013، ازداد التوتر في صفوف السكان. أين تكمن الأسباب؟**

ـ استغل خصومنا أزمة سياسية ناجمة عن الأزمة الاقتصادية. والبرازيل، شأنها في ذلك شأن البلدان الصاعدة الأخرى، عانت من عواقب الأزمة المالية في 2008/ 2009، التي بدأت ببطء ثم تصاعدت أكثر فأكثر. وانخفضت أسعار السلع الأساسية وانحدرت أسعار النفط إلى 20 - 30 دولارا للبرميل الواحد، وهبطت أسعار خام الحديد والمواد الغذائية. وهذا يؤثر على السلع المصدرة من البلدان الصاعدة والنامية. وأدى تباطؤ النمو في الصين، الى التأثير بشكل واضح على البرازيل، لأن الصين تعتبر شريكنا التجاري الأكبر. كما انتقلت الولايات المتحدة إلى سياسة نقدية أكثر تقييدا. وفي النهاية تراجع الاقتصاد، متخذا اتجاها معاكسا.

في البرازيل ترافق ذلك مع انتخابات الرئاسة في عام 2014. وعمق ذلك استقطاب شديد للغاية بين مشروعين؛ أحدهما يعتمد على السيادة والتنمية والحد من عدم المساواة، بواسطة توظيف الأموال العامة. والثاني يريد إعادة دمج البرازيل في الليبرالية الجديدة اقتصاديا واجتماعيا وجيوسياسيا. وهذا ما وصلنا إليه الآن.

*** المعارضة استخدمت أكثريتها في الكونغرس للإطاحة بكِ، بعد انتقال ميشيل تامر نائب رئيس الجمهورية من الحزب الديمقراطي الاجتماعي إلى معسكرها. ما مدى شرعية ذلك؟**

ـ لقد تم عزلي عبر عملية احتيال، شكلت خط الشروع لانقلاب لم ينته بعد. ولم يجر الانقلاب لعزلي فقط، وإنما لتنفيذ برنامج ما كان بإمكانه الحصول على موافقة الشعب إطلاقا. ولهذا السبب هو انقلاب ضد الديمقراطية.

لقد استبعدوا الشعب من اتخاذ القرار لمدة 20 سنة قادمة، فالتعديل الدستوري جمد نفقات الدولة، وخفضها في قطاعات التعليم، الصحة، والعلوم والتكنولوجيا. انهم يسرقون المكتسبات الاجتماعية، ويصفرون برنامج "بيتي حياتي" الخاص ببناء المساكن، ويقلصون بشدة الأموال المخصصة للجامعات.

إن هذه الحكومة تقامر بسيادة البرازيل، وتعبث بالاحتياطي النفطي في السواحل البرازيلية، وتلغي المشاركة الإلزامية لمجموعة شركة النفط الوطنية في التنمية وتفتح الاحتياطي النفطي، أمام رأس المال الأجنبي. وتعمل على بيع شركة الطاقة العملاقة في البرازيل، وتقترح بيع جميع الشركات العامة ـ دون مناقصة. ويمكن للأجانب الآن شراء الأراضي.

*** الحكومة الألمانية تصف "اتهامك" بـ"الدستوري". هل يصح ذلك؟**

ـ لم آخذ هذا الموقف على محمل الجد، وليس لدي علم به. ومن سمات الانقلابات أنها لا تحدث تحت هذا الاسم. ويكره المتورطون فيها مصطلح الانقلاب. في البداية كان هناك نقاش في البرازيل بأنه ليس كذلك. واليوم ليس هناك حجر، وليس هناك إنسان، وليس

هناك زهرة لا تعتقد بذلك. ويجب علينا إن نسال أنفسنا: هل يمكن أن يكون مقدمة لأكثر من ذلك؟ يجب علينا فهمه جيدا، فهو يحمل بداخله شيئا خطيرا جدا: انه يهدم الديمقراطية من الداخل.

*** تسيطر جماعات الضغط على الكونغرس. وبإمكانها إسقاط الرئيس. فهل لا تزال امام اليسار فرصة؟**

ـ هذا سؤال جيد. هناك أمران ضروريان، فأولا وقبل كل شيء، جمعية تأسيسية متميزة، عليها مناقشة ما هي الإصلاحات الممكنة والضرورية. ونحن نريد إجراء استفتاء على سحب اجراءات الحكومية الحالية التي لا تمتلك أية شرعية على الإطلاق. مثل بيع البلاد بأسعار بخسة. ولهذا هناك مبادرة يقودها عضو مجلس الشيوخ المحافظ روبرتو ريكياو. ينبغي على الأطراف الراغبة في الشراء ان تدرك، انه من الحكمة عدم القيام بذلك، لعدم وجود ضمانات قانونية لهذه التعاملات. ما نحتاجه أيضا، قانون ضد احتكار وسائل الإعلام في البرازيل. ليس ما يقيد الصحافة، لا شيء من هذا القبيل ـ بل على العكس من ذلك، نريد الصحافة الحرة والديمقراطية.

*** بمناسبة الحديث عن الضمانات القانونية: ما مدى ثقتك بالسلطة القضائية، وخصوصا المحكمة العليا؟**

ـ بعد هذا الانقلاب فأن جميع مؤسسات البرازيل أصبحت مخترقة، وكأنها اصيبت بالعدوى. الصورة التي احملها عن الانقلاب، تشبه دملة متقيحة انفجرت، وأصابت جميع المؤسسات بالعدوى. والآن هناك خلافات داخل المحكمة الاتحادية العليا، التي تعاني من انقسام واضح. في لحظة ما تتخذ قرارا، وفي اللحظة التي تليها تتخذ آخر مختلفا. ويتكرر الحال في النيابة العامة، وفي جميع قطاعات المجتمع.

*** معسكر رئيس الجمهورية الحالي يناقش خططا لتغيير النظام، والعمل على تأجيل الانتخابات، هل تعتقدين ان عام 2018 سيشهد اجراء الانتخابات الرئاسية؟**

ـ انا لست متأكدة، ولكن المسألة هنا لا تتعلق بالاعتقاد. ان القضية اكثر جدية، وسأناضل من اجل اجراء الانتخابات. إن مسألة الديمقراطية هي اليوم القضية الرئيسية في البرازيل. وبها فقط، كان هناك تقدم، واكتسب نضال الشعب البرازيلي قوة في سبيل حقوقه وضد الظلم.

وفي العملية الانتخابية فقط، تدخل البلاد حقا في صراع مع ذاتها. وبدون انتخابات، ليس هناك وسيلة واضحة وفعالة للخروج من الأزمة الاقتصادية والسياسية. ويجب معالجة المشكلة من الأسفل.

*** السياسيون التقليديون يفقدون مصداقيتهم. فهل تواجه البرازيل ايضا خطر صعود رجل مثل ترامب؟**

ـ ان جو دوريا محافظ ساو باولو من الحزب الديمقراطي الاجتماعي (حزب الرئيس الحالي ـ المترجم) رجل من هذا النوع. ولكن لا فرصة له. أو لوتشيانو هوك، مقدم برنامج تلفزيوني في التلفزيون

"غلوبو"، ممتع للجمهور، عندها ستصبح السياسة الاجتماعية لعبة يا نصيب.
الناس يتذمرون، فضلا عن انه اصبح واضحا للجميع من هم الفاسدون. الفساد يأخذ بخناقه (المقصود رئيس الجمهورية الحالي - المترجم). وهم يواجهون مشكلة كبيرة. والتبعات السياسية للانقلاب مدمرة بالنسبة لحزب رئيس الانقلاب. والحزب ليس لديه مستقبل بعد الآن. لقد كان حزب عصرنة المحافظين والآن يمثل الفاسدين والانقلابيين. وبهذا ترك فراغا لقوى اليمين المتطرف.

*** يعتمد حزب العمل البرازيلي على رئيس الجمهورية السابق "لولا دي سلفيا". ولكن "لولا" يواجه العديد من الملفات القضائية، ومهدد بعقوبة السجن. كيف ترين حظوظه؟**

- شعبية "لولا" تنمو وتنمو وهو يتقدم استطلاعات الرأي، لان الناس يتذكرون ما تم انجازه لصالحهم في عهده، والمزيد منهم يعطيه صوته. وفي الوقت نفسه، يتضاءل الموقف السلبي للجمهور تجاه حزب العمل. في حين تصاعد هذا الموقف خلال الحملة لعزلي من الرئاسة. لقد مورس ضغط هائل علينا من خلال اثارة ملفات قضائية. ولم يكن الهدف من ذلك ابعادي. انهم يريدون تدمير حزب العمل، لمنع فوز "لولا" بدورة رئاسية جديدة. ولكن هذا الانقلاب اطلال خربة. لقد غير جذريا الظروف المعيشية، والوضع الاجتماعي للشعب. وفتح عيون السكان، وهم مهتمون بما يحدث، حتى وان لم تظهر وسائل الإعلام ذلك. لقد نظم اضرابا عاما كبيرا (بمشاركة 35 - 40 مليون مواطن – المترجم). وسوف لن تنجح الحكومة في تمرير "اصلاح" الضمان الاجتماعي.
منذ وقت طويل هناك حملة اعلامية ضد "لولا"، وقد وقفنا مكتوفي الأيدي. ولا يزال الأمر معقدا، ولكن ساعة العدالة قادمة. "لولا" يوظف حقه في الدفاع من أجل تفكيك الحجج التي تثار ضده. وهذا يصب في صالحه. وليس لدي ادنى شك، في النهاية ستتم تبرئته. ولكن المشكلة مختلفة. وهم يسعون لإصدار حكم ضده في الفترة آب - تشرين الثاني 2018 لمنع ترشحه لانتخابات الرئاسة، وبهذا يكتمل الانقلاب. ولتحقيق هذا الهدف يتم استخدام جميع الأوراق.

*** ما هي قضية "لولا"؟**

- التهم التي تم تلفيقها لا تسند إلى أساس، إنهم يتهمونه بالفساد. وفق القوانين البرازيلية يجب أن تكون هناك وثائق رسمية – قرار، او عقد - قضية اتخذ بشأنها قرارا وفرت له منافع شخصية. كان على المحققين أن يدركوا أن لا وجود لمثل هذه الوثائق الرسمية، بشأن الشقة السكنية التي يفترض انه حصل عليها. القضية ستنهار بذاتها، وحتى ذلك الحين، يسعون لتحقيق التأثير الذي يهمهم.

*** سياسة البرازيل الخارجية تغيرت، ما الذي تجري المقامرة فيه؟**

- هذا القطع جزء جوهري من عملية الاحتواء الليبرالي الجديد. لقد جعلنا البرازيل بلدا ذا سياسة خارجية متعددة

الأطراف. وقد ركزت حكوماتنا تركيزا كبيرا على تعزيز تكاملنا الإقليمي. لقد أسسنا منتديات كبيرة لإيجاد توافق في الآراء بشأن حلول الصراعات، اتحاد أمم أمريكا الجنوبية، ومجموعة دول أمريكا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبي. ومن خلال الجماعة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبي، يمكن أيضا أن تشارك بلدان أمريكا الوسطى. لقد لعبت هذه المنظمات دورها، لأننا لم نعكس الخلافات الأيديولوجية داخلها. لقد تفاهم سياسيون من اليمين والوسط واليسار.

في السنوات الأخيرة، طورت البرازيل علاقة واسعة مع أفريقيا. لقد حددنا الأولويات، لأننا البلد الذي يملك اكبر مجموعة سكانية من السود خارج هذه القارة. وحتى داخل إفريقيا، فإن نيجيريا فقط تفوقنا. وكان لنا دور في تأسيس مجموعة بلدان البريكس، التي تضم اليوم إلى جانب البرازيل، روسيا، الهند، الصين، وجنوب افريقيا. إن البلدان الصاعدة ذات الكثافة السكانية العالية حظيت بدور في السيناريو الدولي. وتم الحفاظ على الروابط الهامة مع أوروبا والولايات المتحدة.

*** ما هو خطر المسار الجديد بالنسبة للحكومات التقدمية في أمريكا اللاتينية؟**

- في فنزويلا يجري العمل على إسقاط حكومة مادورو، وهكذا اسقاط سيؤدي إلى صراع مسلح داخل أمريكا الجنوبية التي لم تشهد حربا منذ 150 عاما (الحوار اجري قبل النجاحات الانتخابية الأخيرة للحزب الاشتراكي الموحد الحاكم – المترجم)، وعلى المرء أن يكون مع فنزويلا أو ضدها، أقول، إنهم يتصرفون بطريقة غير مسؤولة. انهم لا يعرفون التعبير عن حياة مشتركة مع الآخر. الشيء نفس أقوله عن كوبا. وأعتقد، على سبيل المثال، أن السلام في كولومبيا لم يكن ممكنا بدون كوبا. لقد لعبت كوبا دورا حاسما في ما يتعلق بالقوات المسلحة الثورية الكولومبية. سمعت الرئيس الكولومبي خوان مانويل سانتوس يقول ذلك علنا. كما تعترف الصحافة بمساهمة الحكومة الكوبية في تحقيق السلام في أمريكا اللاتينية، والتي ربما حلت الصراع المسلح المرير الذي كان قائما في قارتنا.

*** لقد تحدثت عن دور الولايات المتحدة في انقلاب 1964. هل شاركت هذه المرة ايضا؟**

- أنا لا أقول إن الولايات المتحدة ليس لها تأثير في الانقلاب. وأود الاجابة بالآتي: النخب البرازيلية قادرة بما يكفي على تنفيذ انقلاب، ولقد نفذوه بمفردهم. ربما تلقوا بعض الدعم بالمعلومات، وبواسطة التجسس. ومن المعروف أنه كان لدي بعض الأخطاء الصغيرة وفي بتروبراس (اكبر شركة نفط برازيلية - المترجم). في بيتروبراس، هناك حالات تسرب معطيات كبيرة ليس هناك وضوح بشأنها. التاريخ وحده سوف يكشف ما حدث بالفعل.

في نهاية حوارنا أود أن أشير إلى أن المقال نشر اليوم في جريدتكم (13 / 11

/2017، لأنه يتعلق بمسألة خطيرة جدا (مناورات عسكرية بمشاركة الولايات المتحدة في منطقة الأمازون - المترجم). ان هذا الحدث مشبوه جدا. وهذا الأمر يختلف عن دعوة أحد الخبراء أو غيرهم. البرازيل لم يقبل في السابق مطلقا وجود قوات اجنبية على اراضيه. ولن يقبل هذا حتى في بعض انشطة الجيش في المناطق الحدودية، ولن يقبل هذا، على الخصوص، في منطقة الأمازون. وهذا ما لا نقبله ابداً. إن القيام بذلك امر سيئ للغاية، خاصة بالقرب من الحدود مع فنزويلا أو على الحدود معها. إن تدخلا عسكريا من قبل أي بلد في فنزويلا سيكون كارثة بالنسبة للعالم، وبالنسبة للبرازيل وأمريكا اللاتينية.

*** نشر الحوار في جريدة junge Welt الالمانية في عددها الصادر بتاريخ 18 / 11 /2017**

أدب
و
فن

نحتاج سجلا وطنيا

باسم عبد الحميد حمودي

أردت في هذه الزاوية التي اقترحها القائمون عليها أن أبتعد عن التنظير في الحقل الثقافي, وأن استعيد مع القارئ الكريم معنى أن نفكر بصوت مرتفع لنبني (ولو عن طريق الاستذكار) ما تبدد من معالم ثقافية وحضارية تشتت الكثير منها هنا وهناك (الآثار العراقية نموذجا حيث مات دوني جورج حسرة عليها) والمواد التوثيقية التي ضاعت ومنها:

- مدونات الاحزاب السياسية في العهود المتتابعة وبياناتها.
- محاضر جلسات المجلس النيابي ومجلس الاعيان في العهد الملكي ومحاضر جلسات اجتماعات الجبهة الوطنية في مختلف العهود.
- بيانات التجديد في الحقول المعرفية (بيان راونكه الثقافي وبيانات الحركات التشكيلية وبيانات المعماريين العراقيين).
- الكتب والكراسات التي صدرت منذ تأسيس الدولة العراقية الحديثة.
- سجلات التسجيل العقاري للبيوت والمنشآت التراثية في كل أجزاء العراق.
- خرائط الجسور والمكتبات.
- ما يصل الى إدارة السجل الوطني المقترح من رسائل شخصية للقيادات السياسية والفكرية الموجهة الى عوائلهم وزملائهم لأي شأن من الشؤون.
- المتبقيات من مسودات الكتب الصادرة وملاحظات الخبراء المدونة سواء في دار الشؤون الثقافية او دار المأمون أو المؤسسة العامة للآثار وسواها ففيها قيم نصية وفكرية مفيدة.
- كل ما يهدى من أسر الشهداء والمفكرين من كتابات ومدونات وحاجيات شخصية مفيدة.
- التخطيطات الاولية لرسوم الفنانين والمعماريين.
- نسخ من الافلام العراقية الروائية والتسجيلية.
- فولدرات المسرحيات والافلام والمعارض التشكيلية في كل العراق.
- تسجيلات للأغاني العراقية بمختلف اللغات مع نصوصها المدونة واسماء الشعراء والملحنين.
- فتح ملفات وثائقية للقضاة والمحامين والاطباء والمهندسين وأسطوات البناء والصناعات الشعبية والشعراء وكتاب المسرح والقصة والرواية والشعراء والنقاد وربابنة البحر والجو ..الخ.
- فتح ملفات للمدن العراقية والقرى (الاماكن الحقيقية - تحولات التسمية - المستوى الاداري - الموقع الجغرافي.. الخ).

ونحن بدعوتنا الى تأسيس السجل الوطني العراقي بإدارة صالحة عارفة لما تريد أن تفعل، نريد الحفاظ على وثائق البناء الثقافي العراقي الكبير وذلك بعمل جاد ومسؤول وبتعاون كل الاطراف المعنية من أفراد وجماعات لتكون مفردات هذا السجل المأمول مفتاحا لأعمال فكرية قابلة تدرس ما جمع (كلٌ حسب اختصاصه)، وتكون صفحات السجل مفتوحة دوما لبناء اضافات جديدة نافعة لخدمة هذا الوطن الذي ضاع منه الكثير.

ترشيح الكبير مظفر النواب رسميا لجائزة نوبل للآداب 2018

فاضل ثامر

ميسون الدملوجي

مفيد الجزائري

طالب عبد الامير

رياض النعماني

هيثم الزبيدي

اعلن الاتحاد العام للادباء والكتاب في العراق، الأربعاء 13 كانون الأول 2017، ترشيحه الشاعر الكبير مظفر النواب لجائزة نوبل للآداب 2018 .

حضر جلسة الاعلان حشد نخبوي من المثقفات والمثقفين، وعدد من الشخصيات السياسية، بينهم السيدة ميسون الدملوجي رئيسة لجنة الثقافة والأعلام البرلمانية، والاستاذ حميد مجيد موسى، وجمع من المهتمين بشؤون الثقافة والإبداع، وبعض من أصدقاء النواب ومحبيه.

أدار الجلسة الشاعر عمر السراي، الناطق الإعلامي باسم الاتحاد، وقد رحب بالحضور مشيرا الى إن الفعالية تأتي تتويجا لعمل ثقافي وطني دؤوب، يعكس حقيقة ان "على هذه الأرض ما يستحق

الحياة"، كما يقول محمود درويش. واضاف ان غاية الجلسة هي اعلان الترشيح الرسمي للشاعر والمناضل والإنسان، الذي مارس الإبداع بتنوعه، فأجاد في الكثير من حقوله: شعرا وتشكيلا وغناءً.

وقدّم السراي عرضا مختصرا لعمل لجنة الترشيح التي شكلها الاتحاد لهذا الغرض، والتي عملت عاما بأكمله لتصل بالمشروع إلى لحظة الإعلان. وأشار إلى ان العراق لم يقدم سابقا على خوض هذه المغامرة والمهمة الصعبة، واعداً الحضور باستمرار الاتحاد ترشيح مبدعين آخرين في المستقبل. واختتم السراي افتتاحه بتوجيه الشكر والتحية الى النواب الكبير "لأنك زرعت فينا الموقف".

الناقد فاضل ثامر ، رئيس لجنة ترشيح النواب، قدم ديباجة الترشيح، بعد ان تحدث عن عمل اللجنة التي ضمّت إلى جانبه مبدعين وأكاديميين وشخصيات ثقافية. وأشار إلى زمالته للنواب في سجني نقرة السلمان والحلة، منوها بالكاريزما وقوة الشخصية التي كان يتمتع بها، ومذكرا بأن سكان القرى المحيطة بـ "سجن النكرة" كانوا يسهرون الليالي لسماع النواب وهو ينشد قصائده ويغنيها.

وقد احتوت الديباجة تعريفا بالنواب ونتاجه الشعري، والأسباب الموجبة لترشيحه لنيل الجائزة، وجاء فيها أن شعر النواب باللغتين المحكية والفصحى اصبح جزءا من التراث الثقافي للشعب العراقي، وان شعره هو الأوسع انتشارا بفضل انتقاله على ألسن الناس بمختلف درجات تطورهم التعليمي والثقافي. واضاف ان انتشاره ارتبط ايضا بمضمونه السياسي والاجتماعي. وجاء في الديباجة ان شعر النواب جمع بين البساطة والحداثة وانشغل بهموم الناس، وابتعد عن الوصف والتكرار، واعتمد نظاما بسيطا من السرد. وان النواب نجح في تحقيق ثورة شعرية كسرت النظام العروضي، وحاول تفكيك سكونية الواقع العربي بقصائده الناقدة والمستفزة.

ووجهت السيدة ميسون الدملوجي في كلمتها الشكر إلى اتحاد الادباء لإقدامه على هذه المبادرة، تكريما لشاعر يشكل ظاهرة ثقافية وقد منحنا لغة عشناها بعشقنا وفي دروب حياتنا بتنوعها. ودعت الدملوجي إلى طبع أعمال النواب، وعبرت عن استعدادها لدعم ترشيحه لجائزة نوبل بكل ما تستطيع.

وزير الثقافة الأسبق وعضو لجنة الترشيح مفيد الجزائري أوضح في كلمته أن النواب يعني الشعر أولا ، لكنه يعني كذلك النضال والوطنية المتوهجة والاباء والشموخ الانساني، والتمرد والثورة على كل ما هو جائر واستبدادي.

وقال ايضا ان النواب هو الشاعر الذي يقرأ كل العراقيين شعره ويحفظونه، المتعلمون منهم وغير المتعلمين، وهذا ما لم يبلغه غيره من الشعراء الكبار الذين كتبوا ويكتبون بالفصحى، كالجواهري والسياب وغيرهما. فهو الاول بين الشعراء في كثرة من يقرأون شعره ويرددونه.

عضو لجنة الترشيح القاص والباحث طالب عبد الأمير المقيم في السويد ركز في كلمته على تبيان الصعوبات التي تكتنف تفسير شروط نوبل لمنح الجائزة، فهو متابع لذلك بفضل اشتغاله ومتابعته الجائزة وما

يرتبط بمنحها طوال عشرين عاما. وقال إن ترشيح النواب للجائزة يعبر عن رمزية كبيرة، وان مجرد ترشيحه يعتبر فوزا.

صديق النواب المقرّب، وعضو لجنة الترشيح الشاعر رياض النعماني أشار إلى وجود لحظات احتفاء كونية نادرة، وان الشعر يوّحد العراق بعد أن قسّمه الطائفيون والفاسدون. واضاف ان مظفر هو ابن العراق الحقيقي، وهو لكل العراقيين، وقد بدأ بالمستقبل وسوف يبقى يرنو ويرمز للمستقبل.

وآخر المتحدثين كان المترجم د.هيثم الزبيدي الذي ترجم "مختارات من شعر مظفر النواب" إلى الانكليزية، فأشاد بترشيح النواب وعدّ الشاعر أكبر من الجائزة. وأضاف أن شعر النواب يحتفظ بشموخه في الترجمة الانكليزية، لاحتوائه على رموز عالمية وبوح انساني. وتمنى وجود مؤسسات عراقية تهتم بترجمة النشاط الابداعي.

وكانت لجنة الترشيح متكونة من الأساتذة: فاضل ثامر رئيسا، جمال جاسم أمين مقررا، د.مالك المطلبي، مفيد الجزائري، رياض النعماني، حسين الجاف، طالب عبد الأمير، د.علي حداد، د.حسين الهنداوي، كاظم غيلان وعمر السراي.

الشاعر كاظم الحجاج : شعرية السخرية والمفارقة

فاضل ثامر

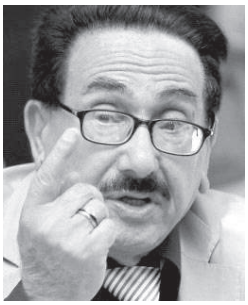

كاظم الحجاج مدرسة شعرية خاصة في الشعر العراقي الحديث، اصبح لها مريدون ومقلدون، فالشاعر يمزج الالم بالحزن بسخرية شفافة، لكنها قاطعة، كما انه يواجه خراب العالم، وكل مظاهر القبح والموت والكراهية بابتسامة امل تطل على المستقبل: فهو شاعر لا يمكن ان ينكسر او أن تهده الفواجع. في ديوانه الشعري الكامل الصادر حديثاً والموسوم بـ "الاعمال الشعرية"[1] والصادر عن دار سطور في بغداد 2017 يضعك الشاعر في مواجهة الهموم الانسانية والاجتماعية والسياسية والذاتية للفرد العراقي، الذي تطحنه الحروب والاوجاع والاحزان والجوع والسياسة والفساد، حيث تتحول هموم الشاعر الذاتية الى جزء من هذه الهموم العامة بما يجعل قصائده جزءاً من ديوان شعر الاحتجاج السياسي العراقي السوسيو ثقافي، المقاوم والرافض لكل مظاهر القبح والاستبداد، بل ويضحي الشاعر بلحظات الصفاء الروحي الذاتية مع الحبيبة التي تظل غائبة لتؤكد غياب كل مظاهر النزعة الرومانسية الغنائية في شعر الشاعر، والتي ما زال الكثير من الشعراء يحتفلون بها ولا يستطيعون مفارقتها بسهولة.

هو إذن شعر موضوعي الى حد كبير، على الرغم من مظهره الذاتي اللساني المتمثل في هيمنة ضمير المتكلم، لانه شعر عن قضية اكبر هي قضية الوطن والانسان والرفض. وكاظم الحجاج يمتلك مقدرة استثنائية على مواجهة الطغاة والقتلة واعداء الانسان عن طريق السخرية الناعمة، فهو جاحظي في منحاه هذا، وهو لا ينكر ذلك، بل يتباهى به. ففي واحدة من مقالاته الاخيرة اعلن صراحة ان الجاحظ جده، وانهما يتشابهان في سخريتهما وظرفهما: "نعم انا اتباهى بكوني احد ورثة جد البصريين الجاحظ، في السخرية، وفي المفارقات اللغوية والبلاغية سواء في الشعر ام في الحياة اليومية[2]، وهو في هذا ربما يلتقي مع الشاعر موفق محمد في هذا الجانب.

فالشاعر موفق محمد[3] يتوسل بالكوميديا السوداء، لكي يتجاوز الاحساس بالفجيعة، بينما يلجأ كاظم الحجاج الى السخرية الجاحظية الناعمة لمواجهة القهر والتمييز والتطرف والاستبداد، وقد يلجا قليلا الى الكوميديا السوداء.

فموفق محمد لا يطيق كظم احزانه، فينفجر

كالبركان، حتى وان اضطره ذلك الى تدمير كل شئ، فيبدو غاضبا، شاتما، لاعنا، اما كاظم الحجاج فيكظم – الى حد بعيد احزانه ومواجعه ويحولها الى ابتسامة ساخرة، هادئة، ولينة، وربما مهموسة، ولكنها ماكرة لانها تبطن المواربة والترميز، بخلاف موفق محمد الذي لا يستطيع ان يختزن داخله كل تلك العذابات فيقذفها حمماً نارية بوجه القبح والموت والاستبداد والفساد.

ومدرسة كاظم الحجاج الشعرية هذه هي مدرسة السخرية الماكرة التي تخفي اكثر مما تظهر، وهو ما يجعلها تختلف عن الكتابات الشعرية الاخرى، ومنها الحداثية، التي تميل الى الجدية والرصانة وتصل احيانا الى حافة الوجوم والتجهم والسوداوية.

لا شك ان ظاهرة السخرية في الشعر العربي، قديماً وحديثاً، ليست بالجديدة، وحتى شعراء الحداثة قدموا نماذج متألقة في هذا الميدان، يكفي ان نتذكر اسماء الشعراء محمد الماغوط، وامل دنقل، واحمد مطر وغيرهم لكن كاظم الحجاج له طريقته الخاصة، وربما شعريته الخاصة في السخرية النابعة من طبع شخصي غير مصطنع في الظرف وسرعة البديهة. فمن المعروف عن الشاعر انه من ظرفاء البصرة المعروفين، وكان يشكل مع المرحوم القاص والروائي محمود عبد الوهاب ثنائيا متميزا في فضاء الثقافة البصرية والعراقية.

وشعرية السخرية عند كاظم الحجاج تتشكل من عناصر لغوية وخارج لغوية، تعتمد على الانزياحات والتناصات وقلب المعنى antiphrase وتحتل الدعابة والتهكم والتلميح، والفكاهة والنقد الذي يصل حد الهجاء والادانة مكانة خاصة في هذه الشعرية. كما يلجأ الشاعر الى الوصف الخارجي، الفيزيقي، او الداخلي، النفسي، كما قد يرسم كاريكاتيراً شعرياً صادماً عن طريق المبالغة والتضخيم والغلو hyperbole يباغت وعي القارئ والمتلقي لانه ينطوي على كسر لافق توقعه. وفضلا عن هذا فالشاعر يوظف عناصر خارج لغوية اثناء الالقاء.

وسخرية الشاعر لا تهدف الى العبث والتلاعب بالمواقف والضحك المجاني، بل تنبعث من دوافع اجتماعية وسوسيو ثقافية بوصفها شكلا من اشكال النقد والرفض والمقاومة والاحتجاج. فالسخرية لدى الشاعر اسلوب بلاغي يكسر هيبة الاستبداد والطغيان ويهدف الى تقزيمه، وكسر حاجز الخوف لدى المواطن العادي ودفعه الى مواجهة مظاهر القبح والاستبداد بشجاعة.

اذ ان تعرية الواقع وتمزيق القناع عنه وخرق الممنوعات والتابوات عن طريق السخرية ستشجع الانسان على الاستهانة بسلطة الطغيان والتسلط.

وتنهض رواية "اسم الوردة" لامبرتو ايكو على فكرة الكتاب المسموم التي وجدنا لنا شبيهاً في حكايات "الف ليلة وليلة"، والتي وظفها ايكو لهدف آخر هو منع الاخرين من الوصول الى كتاب عن الضحك منسوب الى ارسطو يعتقد احد الرهبان الظلاميين ان الاطلاع عليه سوف يشجع الاخرين على التمادي في السخرية من كل شي وبضمنه المقدس، اذ نجد ذلك اللاهوتي الظلامي يكره الضحك لانه يرى فيه الانحلال، كما انه يحرر العاصي من الخوف من الشيطان، وعندما يضحك السوقي، والخمر يقرقر في حلقه، يحس بنفسه سيداً، لانه قلب علاقات

السيادة، ولكن يمكنه ايضا ان يبعد السوقي عن الخوف، والسوقي الذي يضحك لا يهمه في تلك الآونة ان يموت.[4]

هذه هي شعرية السخرية والضحك والتهكم التي تكشف عنها ثيمة رواية "اسم الوردة" بذكاء، وربما هذا هو ما يحاول كاظم الحجاج ان يحققه من خلال شعرية السخرية والتهكم والضحك، ولم يفت النقد الحديث تشخيص ملامح شعرية السخرية، اذ يذهب الناقد الفرنسي جيرار جينيت الى ان السخرية او المحاكاة الساخرة irony هي كتابة ثانية تستحضر كتابة اولى، ثم تعمد الى ابدالها وتحريفها وقلبها، كما يرى فيها شكلا من اشكال التناص، لانها حصيلة تفاعل كيانين نصيين مختلفين: نص غائب مستدعى ونص حاضر يستدعي ملفوظات قديمة او افتراضية فيعيد صياغتها:

"ان المحاكاة الساخرة شكل من اشكال التناص، تقوم على الحوارية بين النصوص، باستدعاء نصوص وملفوظات – قديمة غائبة وتطويعها ثم ابدالها وتحويلها وتجريدها من معانيها الايجابية، وشحنها بالمعاني الساخرة."[5]

ومن الجدير بالذكر ان لمفهوم السخرية دلالات كثيرة ومتنوعة في اللغات الاجنبية، وبشكل خاص في الدراسات النقدية حول مفاهيم الكوميديا في المسرح.

وقد وجدت الكثير من المرادفات المستعملة في اللغة الانكليزية في هذا المجال ومنها irony,sarcasm,mockery,humour,wit,ridicule,parody وغيرها كثير، لكني وجدت ان اكثر المفردات شيوعاً في الدراسات النقدية في هذا الميدان هي كلمة ironyالتي تعني السخرية او المحاكاة الساخرة، كما نجد في المسرح مسميات متنوعة اخرى لمفهوم السخرية والتهكم والضحك، على وفق الحالة الحسية للموقف الكوميدي، وهو امر خارج مدار اهتمامنا، لكننا كما بينت نرجح مصطلح irony في هذا المجال، وان كنا نجد ظلالاً اخرى للمفهوم قريبة ايضاً لروح السخرية عند الشاعر كاظم الحجاج.

فالشاعر أمل دنقل عندما يخاطب بسخرية رجال المباحث وجلاديه، في قصيدته "صلاة "من ديوانه "العهد الاتي":

"ابانا الذي في المباحث، نحن رعاياك
باق لك الجبروت
وباق لنا الملكوت
وباق لمن يحرس الرهبوت"[6]

فهو انما يقيم تناصاً، محرفاً – بالمعنى البلاغي مع نص الكتاب المقدس:

" ابانا الذي في السموات
ليتقدس اسمك
لياتي ملكوتك
لتكن مشيئتك
كما في السماء، كذلك على الارض
أعطنا خبزنا كفاف يومنا".

لكن امل دنقل قلب المعنى، وانزله من عليائه المقدس، الى قاعه الارضي المدنس، من خلال عملية السخرية او المفارقة الساخرة irony، حيث نجد نصين متوازيين او نص حاضر وآخر غائب. وعندما يقول الشاعر محمد الماغوط في واحدة من قصائده الساخرة وهو يخاطب نفسه:

"عكازك الذي تتكئ عليه
يوجع الاسفلت."

فانما يشير الى ابي العلاء المعري القائل في قصيدته "غير مجدٍ في ملتي واعتقادي":

غير مجدٍ في ملتي واعتقادي
نوح باكٍ ولا ترنم شاد
خفف الوطء ما اظن اديم الارض
الا من هذه الاجساد

فثمة استحضار لنص غائب محدد، يحاوره الشاعر ويعيد تقديمه في اطار جديد، في منظور انساني، شبه صوفي:

وهذا ما فعله الشاعر كاظم الحجاج عندما يتحدث عن جسده النحيل الذي يجعله الاخف والاحن على تراب الوطن:

" ولاني نحيل
فأني الاحن على الارضي
يا وطني!
هل تراني ادوس ترابك كالآخرين!
ألست أخف عليك
ألست الأحن".[7]

وكان الشاعر هنا يقدم اعتذاراً الى ابي العلاء. والشاعر يكرر الثيمة الصوفية الانسانوية هذه باشكال ومواصفات مختلفة:

" هذه الارض.
المزار المفتدى
ويحنا...
ندفنكم فيها،
ولا نمشي حفاة!"[8]

وكشكل من اشكال السخرية يقلب الشاعر المثل الشائع، فها هو يتحدث عن نحوله، وقالباً مقولة الابناء على سر الآباء:

"وابي كان نحيلًا مثلي،
فالآباء على سر الابناء
وقليل الاكل.... تعلم هذا مني"[9] ص 283

ويحب الشاعر ان يسخر من نحوله، ويعده صفة للبصريين من خلال لعبة لغوية تقوم على الجناس والتماثل والاختلاف في الاصوات:

" وانا معروف في البصرة منذ صباي،
انا الانحف والانحل بين الفتيان،
والبصرة منذ الجاحظ، فيها الاثنان،
نخيل و... نحيل للان"[10]

• وربما يذكرنا نحول الشاعر شعرياً ايضًا ببيت الشاعر بشار بن برد:

ان في بردي جسداً ناحلاً
لو توكأت عليه لانكسر

لا شك ان القارئ يشعر بخفة الدم والرشاقة والسخرية الهادئة، من خلال هذا التلاعب الواضح بالالفاظ واحيانا من خلال توظيف الجناسات والايقاعات الصوتية الداخلية بين ثنائية "الانحف/ الانحل" وثنائية "نخيل/ نحيل"، ومن خلال قلب المقولات والامثال والمأثورات الشائعة التي "يقرمطها" من القرامطة فقد كان يتحدث عن الجاحظ وهو يعلم أحد تلامذته:

" ويعلمه كيف يقرمط الامثال
" القناعة كنز.. للآخر!"
"من جد..تعب!"
"ومن زرع نهب!"
واذا كان الكلام من فضة، فلا قيمة له!"[11]

واذا ما كان كاظم الحجاج يعترف بجاحظيته في السخرية، فهو ايضا علائي الهوى والمنزع، فهو رقيق تجاه الطبيعة والاشياء ويؤنسنها ويرفض المساس بها ويذكرنا بذلك بنزعة ابي العلاء المعري في هذا المنحى.

فالشاعر يرفض ان يكسر غصنا، او يذبح طيرا، او يقتل غزالا، وحتى وان كان ذلك على خشبة المسرح.

وهذه النزعة تقترن بنزعة الشاعر الانسانية وطبيعته الرقيقة، وروح التسامح والمحبة التي يتحلى بها، ففي قصيدة "كابوس الشاعر" يرفض الشاعر ان يعد شايه بالقتلى

من الاشجار:
" اعدي شاينا الليلي، واختاري
أتختارين غصناً يابساً، بل ميتٌاً للنار؟
أنحرق أي شئ، كي ندفئ شاينا الليلي؟
هل نبقى ندفئ بردنا؟
نبقى نعد الشاي بالقتلى من الاشجار."[12]
ويختتم الشاعر قصيدته هذه بالمقارنة بطريقة شبه صوفية بينه، وبين اخوته "الاغصان":
"أعدي شاينا الليلي
واختاري له ناراً بلا حطب
الا تدرين
باني شاعر كالغصن، بل غصن
فكيف – لأجل شاي الليل –
أكسر اخوتي الاغصان؟" [13]
ويرفض الشاعر، حتى في دور تمثيلي صرف ان يقتل شحاذا "بوصفه سلطانا"، فأفسد الدور والمسرحية:
" لكن
كان عليٌ – انا (السلطان العادل)
ان اشنق شحاذا"
من اجل رغيف مسروق.
سامحت الشحاذ
فأفسدت الدور."[14]
وفي قصيدة "في آخر الليل اهذي لاولادي" ينصح الشاعر اولاده ان لا يذبحوا الحيوان، لانه اخوهم في الرضاع :
" ولا تذبحوا الحيوان اقول لاولادي
كلوا بيضه، وزبدته، واشربوا حليبه
لكي يصير اخاكم في الرضاع.! "[15]
كل قصائد الشاعر تكشف عن انسان رقيق وحساس لا يحب ان يخدش سطح الاشياء، او ان يكسر غصناً، او يذبح طيراً. عشقه للطبيعة وكائناتها يمنحه مكانة خاصة بين الشعراء "العلائيين" – نسبة الى ابي العلاء المعري والشعراء الانسانيين والمتصوفيين منهم بشكل اخص الذين يؤمنون بمبدأ الحلول والتناسخ في الطبيعة. ويخيل لي ان هذا الموقف الشعري ليس مصطنعًا، وانما يكشف عن طبيعة شخصية للشاعر تحقق فيها لون من التماهي بين الشاعر الانسان، والشعر بوصفه ابداعاً لسانياً واجتماعياً وفردياً.
تجربة الشاعر كاظم الحجاج الشعرية بدأت منذ اوائل السبعينات، عندما أصدر ديوانه الاول، "اخيراً تحدث شهريار" الصادر في بغداد عام 1973، لكن الشاعر كما يبدو من "الاعمال الشعرية" التي اصدرها عام 2017 أثر ان يتجاوز هذا الديوان، كما يتجاوز ديوانه الثاني "ايقاعات بصرية" الصادر عام 1987 في بغداد وان يستهل اعماله الشعرية بديوانه الثالث "غزالة الصبا" الصادر عام 1999 في عمان. واحترما لخيار الشاعر فسوف نعتمد كلياً على الطبعة الكاملة لأعماله الشعرية، والتي تضمنت ايضاً قصائد قليلة من ديوانيه الاول والثاني.
ربما يمكن القول ان الشاعر اكتسب من المزاج الشعري السبعيني الاهتمام بالحياة اليومية وتفاصيلها، وتجنب الركض وراء بعض الاساليب الشعرية الستينية التجريبية المفرطة في شكلانيتها، لكنه فعل كل ذلك بمزاج شخصي خالص، تطور لاحقا الى رؤياً شعرية متميزة اتسمت بهيمنة شعرية السخرية والمفارقة في الكتابة الشعرية، عبر لغة شعرية بسيطة تتجنب – في الغالب – التعقيد والابهام والتصنع، لكنها تكتنز بطاقتها الشعرية والايقاعية والدلالية المؤثرة، ويطل من خلالها الشاعر عبر صوته الشعري (او

اناه الثانية) من خلال توظيف ضمير التملك (انا) الذي يخاطب فيه الشاعر (الآخر) مفرداً او جمعاً، واقعياً او افتراضياً في حوارية جدلية متصلة تحقق لونا من الاتصالية الاجتماعية والانسانوية.

معظم قصائد الشاعر تراوح بين قصيدة التفعيلة – وهي الغالبة، وقصيدة النثر، مع مقاطع محدودة ومتفرقة يطل من خلالها العمود الشعري، كما هو الحال في مطلع قصيدته "ما قاله هاني بن مسعود الشيباني في يوم ذي قار"

"دنا صوت الصبا فاستفَّ رملُ
وغاضت واحةٌ
واغتاظ سهلُ
ومن ريب الندا شدت لجاماً
على رمضائها فاقتيد اثلُ."[16]

وهو – كما يتضح من بنية القصيدة ذاتها، اختيار مقصود للتطابق مع القناع الشعري للشاعر وتمثله للحظة تاريخية معينة من خلال قناع هاني بن مسعود الشيباني.

ولغة الشاعر لغة حجاج شعري – وليست لغة حجاج منطقي جاف – ففيها دائما حوار ومساجلة مع الآخر، قد يكون الوعي فيها حاضراً وليس المنطق الصرف او العقل النقدي. لكن الشاعر قد يميل احياناً الى توظيف الوصف والى بناء مشاهد شعرية وورائية نامية، كما نجد اهتماما بتقديم قصائد سيناريو متميزة وقصائد حوارية، فضلاً عن الحضور الدائم للسرد الذي يكاد يشكل العمود الفقري لتجربة الشاعر الغنية، بوصفه النسيج الذي يشد مفاصل البنية الشعرية في معظم قصائد الشاعر. وخلال ذلك جرب الشاعر كتابة القصيدة القصيرة وخاصة في ديوانه الثالث "غزالة الصبا" (1999) التي تقترب في نسيجها من قصيدة الومضة او الهايكو اليابانية، كما جرب القصيدة الطويلة، والمركبة وبشكل خاص في ديوانه " ما لا يشبه الاشياء " الصادر في بغداد عام 2005 والذي يتضمن خمس قصائد وصفها الشاعر في الغلاف الداخلي للديوان بانها "قصائد طوال" لكن القصيدة المتوسطة الطول تظل هي الغالبة والاثيرة لدى الشاعر.

يخيل لي ان مرحلة النضج الشعري للشاعر كاظم الحجاج قد بدأت مع ديوان "غزالة الصبا" 1999 الذي يكشف عن خصوصية الرؤيا الشعرية للشاعر بملامحها المختلفة، وفي مقدمتها منظوره الساخر النقدي للحياة. يستهل الشاعر ديوانه بمجموعة من قصائد الومضة القصيرة المشحونة بشعرية عالية، وتنطوي في الغالب على مفارقة ساخرة. ومعظم هذه القصائد تتكون من جملة شعرية واحدة وتحقق عنصر الصدمة الوامضة فضلاً عن كسر افق توقع المتلقي، وبحس شفاف من شعرية السخرية والمفارقة.

قصيدة "نقد ذاتي" مثلاً جملة شعرية قصيرة واحدة:

"اني
رجل
يخجل
مني"[17]

وقد تنطوي قصيدة الومضة على دعوة الى الرفض والتمرد ومن خلال السخرية :

" ارفض!
يستطيع حتى الكرسي
ان يرفض بديناً – يجلس عليه –
بان،
يكسر نفسه! "[18]

وقد تمثل قصيدة الومضة ادانة صريحة ضد الحرب والقتل والعنف :

" حتى بين رصاصات الجنود
رصاصات محظوظة
تلك التي تخطئ اهدافها
ورصاصات تعيسة :تلك التي ترتكب
أمجاد الحروب "[19]

فبدلا من "حماقات الحروب" او "بشاعات الحروب" يتحدث الشاعر بسخرية عن"امجاد الحروب".

وفي قصيدة "اجزاء المرآة"– وهي قصيدة ومضة ايضا" نجد ما يمكن ان يسمى بقصيدة المرايا التي ستنفتح لاحقاً في ديوانه اللاحق:

" فرحي قليل في المرايا
ولانني احببته
كسرت مراتي
ليكثر في الشظايا "[20]

ومع ان صورة تكسير المرايا لتحقيق مزيد من التكثير و التناسل الصوري في الشظايا، الا ان الصورة هنا مختلفة ولها فرادتها, لانها تنطوي على سخرية كامنة، وهذه القصيدة تمهد لقصيدة لاحقة طويلة من قصائد المرايا هي قصيدة "سفر المرايا" من ديوانه "ما لا يشبه الاشياء" (2005) حيث "في المرايا / ارى كل شي سواي"[21]، وسوف نعود اليها لاحقاً في موطنها.

لكن ما يسترعي انتباه الناقد في هذا الديوان ميل الشاعر لكتابة قصائد سيناريو كما هو الحال في قصيدة "سيناريو موت جندي "[22] و"مساء داخلي – قصيدة سيناريو"[23] فضلاً عن توظيف بنية السيناريو في العديد من قصائد الشاعر المطولة في ديوانه "ما لا يشبه الاشياء"، وبشكل خاص في القصيدة الاولى "ستعود الريشة للطائر" وغيرها.

ففي قصيدة "سيناريو موت جندي" مثلا، والتي سبق لي وان كتبت عنها في التسعينات دراسة ضمنتها كتابي النقدي "شعر الحداثة: من بنية التماسك الى فضاء التشظي" حللت تمفصلات قصيدة السيناريو هذه، واشرت الى انها تمثل نزعة للاقتراب من تقنيات اللغة السينمائية، وبشكل خاص في العناية بالصورة البصرية وعمليات التوليف والقطع والمونتاج وتجاور المشاهد، والاهتمام بتنمية المستويات السردية والحوارية والمشهدية داخل الخطاب الشعري[24]. ومن الواضح ان العنوان عتبة نصية كاشفة ودالة, فالشاعر كاظم الحجاج لم ينكر انتماء قصيدته الى فن السيناريو بنيوياً، كما ان القصيدة بنيت اساساً من مجموعة من المشاهد واللقطات البصرية والدرامية التي يربطها سياق سردي وتتابع زمني محدد، كما ان الشاعر وظف بعض المصطلحات التقنية الخاصة بفن السيناريو منها: لقطة اولى، قطع سريع، مزج، اغنية، لافتة، النهاية، فضلاً عن عنوان القصيدة ذاته. وتعتمد القصيدة، الى حد كبير على بنية التجاور في المشاهد المتباعدة حيث ينتقل الشاعر في لقطة خارجية اولى "الاستهلالية" من مشهد من مشاهد الحرب لخوذة خلفتها هزيمة جيش الغزاة الى لقطة داخلية لام الجندي في مطبخها:

"في مطبخها تتشاءم ام الجندي الغائب
من كرسي فارغ
واناء دون طعام."[25]

وبعد تناوب مدروس للقطات خارجية واخرى داخلية، يختتم الشاعر قصيدته بثيمة مضادة للحرب تنتمي الى رؤيا انسانية شاملة بشكل تعليق commentary صوتي

overvoice يختم سيناريو القصيدة، يذكرنا بصوت الكورس في الدراما الاغريقية، او في المسرح البريختي:

"صوت مع كلمة (النهاية)
ما يدعى نصراً
في كل حروب التاريخ
لا يعدل نصر الام
تحدق في المولود. الخارج تواً"[26]

وفي قصيدة الشاعر الثانية "مساء داخلي قصيدة سيناريو" يعتمد الشاعر كليا على بنية اللقطة السينمائية الصامتة التي تشبه، الى حد كبير اللقطة الساكنة still life في الفن التشكيلي. وتنظم الساعة كرونولوجيا – مثل ساعة جيمز جويس في رواية يولسيس – حركة الاحداث والمشاهد واللقطات، حيث تشير الساعة،بوصفها شاهداً ومنظماً للسرد، الى الواحدة ليلاً:

"ساعة في الجدار
تشير الى الواحدة
وبعض الزمان"[27]

ثم تتوالى اللقطات التي تبلغ ثلاث عشرة لقطة لتنتهي عند الثانية وخمس دقائق:

"العقارب تنأى عن الثانية
وخمس دقائق.. فوق الكتاب"[28]

وخلال هذا الزمان المحدد بساعة واحدة نراقب من خلال عين الساعة موت مثقف امام زجاجة خمر وتفاحة وكتاب واحزان صامتة ربما كلون من الاحتجاج على غياب العدالة في الحياة:

زجاجة خمر على حافة المائدة
" قدحٍ يمتلئ نصفه بالنبيذ
وتفاحاً – نصف تفاحة –
وكتاب" [29]

ومن خلال عملية التلاحق لهذه اللقطات الكولاجية البصرية تتشكل في ذهن المتلقي بنية دلالية كاملة، يسهم فيها بفاعلية في انتاج المعنى بعيداً عن الاسراف اللفظي والمجازي والاطناب.

وتغلب على القصيدة بنية الجملة الاسمية، الا في استثناءات محدودة، تقترن بفاعلية انسانية، وذلك لتعميق الاحساس بحالة السكون – ولخلق بنية مشهدية وبصرية ثابتة تتسم بالموضوعية وتقصي كل ماهو ذاتي او غنائي.

وينطوي ديوان "غزالة الصبا" على تنويعات شعرية مهمة اخرى منها القصيدة الحوارية، وقصيدة السرد، وقصيدة الذاكرة وظهور ملامح قصيدة المرايا، والاشتغال على لعبة الانزياح المكاني للتمويه السياسي.

في قصيدة "لقاء اذاعي مع العريف المتقاعد خطاب" [30] بنية حوارية تتحكم في حركة الحدث وتمفصلاته، وهي أشبه ما تكون بسيناريو اذاعي صوتي يقيم حواراً افتراضياً مع عريف متقاعد شارك في الحرب مرغماً وعاد ليزرع.. والحوارية مليئة بالسخرية الناعمة، والجريئة سياسياً، ويكشف العريف المتقاعد خطاب كراهيته للحرب:

"أدخلت الحرب لاجل ال...؟
انا لم ادخل
دخلت في الحرب..
هل تفهم ما اعني؟"[31]

وعندما يذكر العريف المتقاعد خطاب بان المذيعة لم تذكر اسمه للناس, تجيب المذيعة ساخرة بان لا يذكره :

" بنيتي
ماذا؟
لم اذكر اسمي للناس!
لا تذكره

فجهاز اذاعتنا حساس"[32]
بهذه الشجاعة كان كاظم الحجاج أميناً على قول الحقيقة وادانة حروب الطاغية، وهي شجاعة اخلاقية تحسب له. وهو القائل ايضا، وفي تسعينات القرن الماضي في قصيدة " ومضة قصيرة هي " امجاد" والتي سبقت الاشارة لها:
"حتى بين رصاصات الجنود
رصاصات محظوظة :
تلك التي تخطئ اهدافها
ورصاصات تعيسة :
تلك التي ترتكب..
امجاد الحروب "[33]
في قصيدة "عبور غزة" نجد قصيدة شخصية تعتمد السرد اساسا وتقدم شخصية بطولية هي شخصية سليمان الحلبي الذي قتل القائد الفرنسي كليبر قائد حملة نابليون على مصر. وبناء القصيدة يذكرنا باسلوب شاع في الشعر العربي في السبعينات قد م نماذج منه الشاعر ادونيس، ونماذج اخرى قدمها عدد كبير من الشعراء العرب والعراقيين ومنهم سعدي يوسف :
" غزة البدء
لا ينتهي عندها البحر
لكنها تبتدئ من جميع النهايات "[34]
في "غزالة الصبا" قصائد حنين الى ماضي البصرة الذي تعرض للتآكل والتشويه، وهي تنضح بحب عميق لكل تفاصيل الحياة اليومية في مدينته التي يحاول الشاعر استحضارها عن طريق الذاكرة خالقاً مرثاة شفافة وحزينة لافول الجمال والنقاء والبساطة:
" يازمان الشناشيل دار الزمان
دارنا لم تعد دارنا "[35]
ويعمد الشاعر وهو يستنجد بذاكرته المثقوبة التي لم تعد تسعفه الى توظيف عبارة " ويح ذاكرتي " وهو ينعى على ذاكرته خذلانه :
" ويح ذاكرتي!
أتذكر عين (الغزالة)
كانت تعلق قمصان اخوانها.. "[36]
والغزلة هنا كناية عن حبيبة الصبا وقصة حي رومانسي عذري:
" ويح هذا الزمان!
.. وكبرنا – انا والغزالة – لكننا
ما نقلنا محبتنا للكلام
واصابعنا لم تلامس اصابعنا..
بالسلام"[37].
وقصيدة "حكاية العبد آدم وعين الغزال" التي جنسها الشاعر بوصفها "قصة شعرية" تعتمد بنية مركبة خاصة، ففيها استهلال شبه نثري يمهد للقصيدة :
" يروي زنوج امريكا هذه الطرفة :
اراد زنجي دخول الجنة، فاوقفه ببابها القديس بطرس قائلاً :
"نحن في العادة لا نسمح للملونين بالدخول الى هنا ما لم يكونوا متميزين في حياتهم، فهل كنت متميزاً في حياتك بشئ يابني؟"[38]
ثم ينتقل الشاعر من خلال بنية قصيدة نثر مركبة الى بناء سلسلة من المشاهد الدرامية والسردية التي تتحدث عن بطل القصيدة الزنجي الامريكي آدم الذي اراد ان يدخل الجنة، فيعمد الشاعر الى كتابة سفر التكوبن السري لآدم الافريقي ومعاناته:
"شمس افريقيا..
منذ بدء الخلقة كانت تهئ آدم افريقيا
الى لونه الداكن المستكين "[39]
ويقدم الشاعر خلال ذلك تعليقات comments عن معنى الزنوج ويكشف

آدم الزنجي عن انسانيته وحبه لعين الغزال – التي يعشقها دائما الشاعر كاظم الحجاج ايضاً، ويخسر عمله، خادما، عند ما يرفض طلب سيدة البيت ان يذبح غزالاً:

"بعدما طرد القصر خادمه آدم المتمرد...
للعلم : آدم همّ بذبح الغزال
ولكن سكينه ارتعشت، صار مقبضها بارداً.."[40]

وبدلا من ذبح الغزال قص آدم حبلها واطلقها تماماً كما سبق للشاعر وان قدم مشاهد مماثلة في الكثير من قصائده السابقة. ونلاحق تجارب آدم الزنجي في امريكا في الجيش والعمل. ويلجأ الشاعر الى لعبة سردية طريفة تتمثل في ايقاف السرد الشعري، وتعليقه مؤقتا من باب الاستدراك لكي يستكمل بعض التفصيلات هنا وهناك. وقد شاء الشاعر ان يضع استدراكه هذا في الطبعة الاولى للديوان[41] داخل مستطيل وهو علامة طباعية للتميز، وابقى على طبيعته النثرية:

"سنؤجل قصة آدم في الحرب الاولى، حتى نستكمل بعض التفصيلات هنا وهناك، او بعض النقص حتى نتلافى شك النقاد بصدق النص"[42]

ويختتم الشاعر قصيدته بمزاوجة اخرى، نثرية وسردية، تحت عنوان "اقتباس اخير" ينطوي على التماس من آدم للقديس بطرس بقبول زوجته البيضاء بالسكن مع زوجها في حيه الاسود:

" اقتباس اخير
يزعم السود الامريكيون ان آدم بعدما ضمن بوابتين تقريبا لدخول الجنة، ظل يحاول اقناع القديس بطرس.." [43]

ويعمد الشاعر في قصيدة "من الواح الشاعر السومري (انا هو) الى بناء قصيدة قناع يزاوج فيها بين قناع تاريخي افتراضي لشخصية "انا هو" وقناع الشاعر الحديث نفسه، او ذاته الثانية، ومن خلال المباعدة وترك مسافة تاريخية توهم المتلقي بانه يقرأ نصاً من احد الالواح السومرية، حيث يشير النص الى وجود "خرم هنا" في احد المواضع. ويمكن ان نعد القصيدة من جانب آخر لعبة من لعب التمويه والمراوغة، وتحديداً من خلال تحقيق التغريب المكاني والزماني، لان صوت الشاعر الحديث قوي وحاضر، ومؤثر ايضاً :

" لاني نحيل،
لم اكلف الرّب طينا ليخلقني!
صاح بي : انا هو
ففتحت عيوني
ايما وطن تشتهي؟ قال
قلت : الجنوب "[44]

وتكشف لنا القصيدة عن صفحات من سفر تكوين مدينة الشاعر البصرة.

وتحضر خلال ذلك سيدة الحانة السومرية في ملحمة كلكامش :

" ياصاحبة الحانة..
انكيدو. مات
فلنرفع في صحته
نخب الغائب "[45].

وتنطوي القصيدة على قصة حب بين الفتى"انا هو" و الطفلة "ها هي":

" همسوا ان شفاه الطفلة (ها هي)
تبدو اكبر من كل شفاه الاطفال!
قال انا هو : سنقارن بين الشفتين!"[46]

ويتحرك النص زمنيا بين الماضي وبدء التكوين وبين الحاضر والطائرات التي

كانت تحوم، افتراضياً، فوق الاهوار / منذ خمسة الاف سنة.

في طبعة الديوان الاولى يشكل المقطع الاخير "في قاموس انا هو" جزءاً مكملاً وعضوياً من القصيدة، لكن الشاعر شاء في "الاعمال الشعرية" ان يمنحه استقلالاً في قصيدة لاحقة، ويبدو لي ان الخيار الاول كان اكثر ملاءمة ومقبولية:

"وعرف (انا هو) اخيراً ن كلمة الرب:
تبصر" تعني: كن بصريا"[47]

قصيدة كاظم الحجاج هذه مشبعة بحس ميثولوجي، لكنها تمد جذورها في طين البصرة وواقعها اليومي بكل تفاصيله ومرئياته ورموزه.

ويشكل ديوان "ما لا يشبه الاشياء"[48] الصادر عام 2005 نقلة فنية مهمة في تجربة الشاعر، حيث نجد خمس قصائد مطولة، وغياب لقصيدة الومضة القصيرة. معظم هذه القصائد تعتمد بنية مركبة، متعددة المستويات والطبقات، وخاصة في القصائد الثلاث الاول. والقصيدة الاولى "ستعود الريشة للطائر ومريم لنا" هي اكثر قصائد الديوان تركيبيةً وتنوعاً، ويعود تاريخ كتابتها الى عام 1998.

في هذه القصيدة، ذات الطابع التجريبي، ثمة تناوب بين عدد من المشاهد والتابلوهات والحبكات السردية التي تتعرض للقطع والمونتاج في حركة تفتقد المسار الخطي المتصاعد لبناء الحدث والزمن، حيث يتوقف الشاعر ليقدم لقطة ثانية وثالثة ورابعة، وبعود ثانية وثالثة الى تطوير ومواصلة حركة هذه الحبكات بطريقة مركبة تستدعي وجود قارئ من نوع خاص قادر على ربط وتاويل وبالتالي استنطاق القصيدة بوصفها كلاً مركباً مبنياً من نويّات وتمفصلات متنوعة.

تنهض هذه القصيدة على لعبة شعرية تجريبية وتركيبية معقدة تلعب فيها عناصر المونتاج والقطع والكولاج وزوايا الكاميرا وتجميد حركة الزمن دوراً مهماً في بناء هذا السيناريو الشعري الذي لا يعمد الى النمو الخطي العضوي، بل يلجأ الى لعبة التناوب والتجاور والقفز على الامكنة والازمنة لخلق وتحريك هذه التوليفة الشعرية المركبة.

القصيدة التي تتشكل من اربعة مقاطع شعرية معنونة تكشف عن تمفصلات اكثر تفريعاً وتنويعاً من خلال ملاحقة حركة عدد من الحبكات الفرعية المكونة منها حبكة العجوز الافغاني، وحبكة اختراع القلم، وحبكة مريم، وحبكة الكاتب المولع بالكتابة، وحبكة الصياد, وحبكة جلد الغزال واخيراً حبكة الشاعر.

تبدأ القصيدة في مقطعها الاول الموسوم "خارج الحدود، داخل المتن" عن مشهد العجوز الافغاني الذي ترك زوجته متقدمة في المسير، مما اثار تكهنات عديدة لرجال الصحافة الغربية الذين يعلمون انه لا يجوز للمراة المسلمة ان تتقدم الرجل في السير.

والقصيدة بكاملها تنتمي بشكل واضح الى قصيدة النثر، مع ميل لتوظيف لغة سردية وحكائية قريبة من روح النثر والتقرير الصحفي :

" رصد عابرون يوميون مشهد العجوز الافغاني
الذي كان يخرج من حقله الى سوق القرية، تاركاً
زوجته تتقدمه في المسير.. "[49]

ونكتشف وجود سخرية خفية في تقديم هذه

الحبكة، يمكن للقاري ان يدركها بسهولة. والشاعر لا يلاحق هذه الحبكة خطياً، بل يقطعها مونتاجياً الى مجموعة من المشاهد واللقطات القصيرة المتلاحقة التي ينطوى عليها المقطع الثاني من القصيدة والمعنون "رؤوس اقلام حول نظرية اختراع الفلم الاول وتزييف الحقائق به": طير يمتحن الريح، جلد غزال يجف تحت الشمس، رجل مغرم بالكتابة، صياد يشحذ سهماً، شاعر لم يتلق الكتابة عن معلمه، وصحفي يعلّب الحرب في الكاميرا. ويختتم المقطع بمشد اطول للطفلة العراقية مريم ذات الاربع سنين المصابة بسرطان الدم. وفي المقطع الثالث الموسوم "رؤوس ليست لاحد من الاقلام" - ويعني "رؤوس اقلام" يحشد الشاعر من خلال المونتاج والتنضيد مجموعة من المشاهد التي تطور حركة الفعل الشعري والدرامي في المشاهد الاولى حيث السهم على وشك الانطلاق، والطير الذي يغرف الهواء بمجذافيه، واصابع الرجل المغرم بالكتابة، وصحفي ال cnn وصورة مقربة لمريم. ومن الطريف ان يشير الشاعر في اللقطة الاخيرة الى ان "العجوز الافغاني.... لا يعنيننا الان" مرحلاً بذلك حركة هذا المشهد الى المستقبل. ويعمد الشاعر الى اقامة تناص قراني من خلال توظيف عبارة "نون والقلم" في مستهل المقطع الثاني ويعيد ادارجه في المقطع الثالث.

ومثل حركة بطيئة، يتحرك المشهد ثانية، حيث اطلق الصياد سهمه، وحيث صحفي الـ cnn يحاور مريم على قص شعرها.

وفجأة يتصاعد المشهد الشعري بلقطة دموية عندما اصاب سهم الصياد الطائر ففلتت من الطائر ريشة :

" ترنحت من السماء ريشة كبيرة
من الطائر القتيل. "[50]

ثم تتابع القصيدة عملية " اختراع " هذا الفلم الدموي من قبل الكاتب المغرم بالكتابة من الريشة المدماة بدم الطائر القتيل، والذي راح يمررها على جلد الغزال القتيل ايضاً، معلناً مبتدأ الكتابة وآدمها , ويظل الشاعر وحده يراقب ويتأمل ويحبس انفاسه ويتساءل بلوعة :

" ناح الشاعر قصيدته الثانية :
هل الطيور رسائلنا إلى السماء؟
ام رسائل السماء الينا"[51]

ويعود مشهد العجوز الافغاني من خلال صحفي ال cnn الذي يعتقد ان العجوز ليس مسلماً بكل تأكيد، كما تطل صورة مريم وهي في الطائرة "تتأمل متشككة خجلى"، ثم يمسك الكاتب المغرم بالكتابة بريشة الطائر المدماة وكأنه يتباهى باختراع هذا القلم الدموي، ثم يستعير صحفي الـ cnn ريشة الطائر المدماة ليكتب بها تقريره الصحفي وليكون هو وصحافته شريكاً في جريمة اختراع هذا القلم الدموي.

وفي المقطع الرابع والاخير "فلاش باك" يقوم الشاعر بعملية تجميع وتحريك لجميع المشاهد المجمدة، نحو نقطة النهاية، ويعود بنا أولاً، لاستحضار صورة كاظم حجاج آخر عام 1975، ربما استحضرته لقطة الطائرة التي تقل مريم، وليكون هنا هو الشاعر والشاهد الذي يختتم القصيدة بمقطع شعري مؤثر، يعيد فيه الحياة التي كل الاشياء القتيلة المدماة، الطائر القتيل، وجلد الغزال، وشعر مريم، كما يعيد الى الحياة الى كل الاطفال الشهداء، كما يعيد الحياة الى الشهداء الكبار كي يهزوا اراجيح

ابنائهم:
" سأضع بالشعر ماسحة للمصائر
امسح السرطان عن دم مريم..
واعيد لها شعرها.
واصف الاراجيح للشهداء الصغار."[52]
بمثل هذه المهارة بنى الشاعر قصيدته التجريبية المتميزة هذه، ممهدا الطريق امام قصيدة "تعال الى حانتي" التي يستلهم فيها ملحمة جلجامش ويقدم فيها خطاباً افتراضياً موجهاً من ننسون سيدة الحانة الى جلجامش والى كل حاكم تعلمه كيف يحكم ابناء شعبه بالعدل والاحسان. ولكي يوحي الشاعر بالمباعدة، ولكسر للايهام فهو يضع هامشاً تحت العنوان يقول "مالم يترجمه طه باقر من اللوح العاشر" :
"تعال الى حانتي يا ولدي!
ومنها تتعلم حكمة الملوك مع الرعايا!"[53]
وتنطوي القصيدة على مجموعة من الرسائل الانسانية التي تدعو الى العدالة الاجتماعية، وترفض الظلم الذي يسلطه الملوك والحكام ورجال الدين آنذاك حيث تدعو سيدة الحانة جلجامش الى ان يقيم جنته وخلوده في مدينته : اوروك
" لا تبرح اوروك!
فلن تحتاج الى اوتو – نبشتم القصّي
فعشبة خلودك التي اليها تسعى،
نابتة هنا، في بستاتين اوروك.
وتحت اسوارها تنطرح جثث الاجداد،
خالدة في الدود"[54]
وحاول الشاعر ان يحاكي اللغة الشعرية التي كتبت بها ملحمة جلجامش، لكنه أقحم بين ثناياها inserts مجموعة النصوص حديثة لا علاقة لها بالجو الميثولوجي الافتراضي، وهي اربعة نصوص شاء ان يضعها في طبعة الديوان الاولى "ما لا يشبه الاشياء"، عام 2005 داخل اطارات طباعية، استبدلها في مجموعته الشعرية الكاملة عام 2017 بعلامات تنصيص طباعي، وهي يكمن ان تمثل عتبات نصية تضئ النص وتغنيه.
ويخلق لنا الشاعر في ديوانه هذا قصيدة مرايا متميزة وغنية بالرموز والدلالات والاحالات السيميائية هي قصيدة "سفر المرايا ".
ومن الجدير بالذكر ان الشاعر سبق وان نشر في ديوانه السابق "غزالة الصبا" قصيدة مرايا قصيرة هي قصيدة "اجزاء المرآة" ربما كانت تمهد للقصيدة المطولة وهي في الحقيقة قصيدة ومضة قصيرة لكنها مكتنزة، تتمحور حول ثيمة تشظي المرآة التي تناولها العديد من الشعراء ايضاً لكنها اكتسبت هنا قيمة جديدة:
" فرحي قليل في المرايا
ولانني احببته
كسرت مرآتي
ليكثر في الشظايا "[55]
وقصيدة "سفر المرايا" المطولة حافلة بمواقف فلسفية وفكرية لا تخلو من السخرية والمفارقة :
" في المرايا :
ارى أي شئ.... سواي! فانا – مذ ولدت – أفتش عن جسد
قد يليق بروحي."[56]
ولذا فان الشاعر يسترجع سيرة حياته بحثاً عن الهوية والتطابق بين الاصل وصورته في المرآة ، لكنه يكتشف الزيف، حتى في المرايا :
" وأنا لا ابالغ والله
حتى المرايا هناك

تزيف وجهك انت
ففي الصباح تحلق لحية غيرك
وتمشط شعر سواك"[57]

وتذكرنا قصيدة كاظم الحجاج هذه بعشرات من قصائد المرايا في الشعر العالمي والعربي، ربما اشهرها في الشعر الانكليزي قصيدة "المرآة" Mirror للشاعرة البريطانية سليفيا بلاث، التي نالت الكثير من القريظ والتقييم. وهناك في الشعر العربي قصائد المرايا عند ادونيس التي خصها بديوان كامل هو "المسرح والمرايا"[58] الصادر عام 1968 عن دار الآداب في بيروت والتي تنبه اليها الناقد احسان عباس في كتابه "اتجاهات الشعر العربي المعاصر" عام 1978 (61)، لكن مرايا كاظم الحجاج مخاتلة وكاذبة وتسرق الوجوه او تزيفها، ربما لتخلق واقعا افتراضياً بديلاً عن التماثل والمطابقة والاستنساخ،ولذا فهي تحفل بشعرية مغيبة، ربما هي شعرية المحو والغياب، وما هو مقموع ومصادر ومهمش - وقد تشجعنا قصيدة كاظم الحجاج هذه الى عودة لاحقة للحديث عن شعرية قصيدة المرايا في الشعر الحديث بصورة عامة، والشعر العربي الحديث بصورة خاصة.

وربما يمثل ديوان الشاعر الاخير "جدارية النهرين" قمة النضج الشعري للشاعر، لانه انطوى على كل التنويعات والاساليب التي سبق له وان جربها طيلة ما يقرب من النصف قرن. اذ نجد عناية خاصة باستنطاق المكان ومكوناته وتضاريسه، وبشكل خاص المكان البصري الذي ينبثق عفوياً في جل كتاباته الشعرية، وفي كتابات جميع شعراء البصرة، ولكن الشاعر يكشف عن اعلاء للمكان العراقي أيضاً، وخاصة في قصيدة "جدارية النهرين" التي يحمل الديوان اسمها، كما نجد عودة الى كتابة قصيدة الومضة الشعرية التي جربها في ديوانه "غزالة الصبا ". وتميز الديوان بهيمنة قصيدة النثر وتبلور لون من الخطاب الحجاجي الشعري الذي يحاول فيه تأطير القضية الشعرية منطقياً واحياناً تاريخياً، في خطاب موجه من "انا" الشاعر الى "آخر" واقعي او افتراضي من خلال تشكل بنيات حوارية مدونة او مضمرة، وبما يكسب قصائد الشاعر حيوية وتأثيراً وقرباً من المتلقي ومقدرة على الاقناع.

كما عاد الشاعر الى لعبة شعرية تتمثل في تغريب المكان، وترحيله، ربما لاسباب سياسية وجمالية، من اصوله المحلية (العراقية) الى فضاءات تاريخية متخيلة من خلال خلق دراما شعرية، كما نجد ذلك في قصيدة: "قصة فقدان ابرة خياطة"[59] والمكتوبة عام 1992، أي في زمن الدكتاتورية. ويعترف الشاعر بان الاسماء مستعارة من ماركيز.

الشاعر كاظم الحجاج من الشعراء القلائل الذين يأنس إليهم القارئ والمتلقي، فهو شاعر ماكر وخفيف الظل ويخفي دائماً اسراره ما وراء الكلمات، لانه يبطن اكثر مما يظهر، وهو يوظف خصيصة المكر الهادئ التي تلقاها من معلمه الاول الجاحظ، لكنه اتكأ اساساً كما أرى، على لعبة الكلمات المتقاطعة والتلميحات الخفية التي يضمرها شاعر "الحسجة" الشعبي في توظيفه للمسكوت عنه اجتماعياً وعرفياً ودينياً تحت قاع المظهر السطحي والخارجي لنسيج اللغة الشعرية المرئي.

الهوامش:

1 - الحجاج، كاظم (20179 " الاعمال الشعرية " ، دار سطور للنشر ، بغداد .
2 - الزبيدي، احمد مهدي (2016) حوار مع الشاعر كاظم الحجاج، مجلة "الاديب العراقي" بغداد ، العدد (13) ، ص 108.
3 - ثامر ، فاضل /، (2017) موفق محمد شاعر الكوميديا السوداء "مجلة الثقافة الجديدة" ، بغداد ، 2017.
4- ايكو ، امبرتو (1998) "اسم الوردة" ترجمة احمد الصمعي ، دار أويا ، طرابلس ، ليبيا ، ص 510 – 511.
5- ضو ، سليم (2017) المحاكاة الساخرة في شعر امل دنقل، موقع انفاس، على الشبكة بتاريخ 26 /6 /2017.
6- دنقل ، امل (2012) " الاعمال الكاملة، دار الشرق، القاهرة (ط 2) ص 116.
7- الحجاج ، كاظم (2017) "الاعمال الشعرية "، ص 69.
8- المصدر السابق ، ص 162.
9- المصدر السابق ، ص 283.
10- المصدر السابق , ص 293.
11- المصدر السابق ، ص 150.
12- المصدر السابق ، ص 209.
13- المصدر السابق ، ص 210.
14- لمصدر السابق ، ص 42.
15- المصدر السابق ، ص 15.
16- الحجاج ، كاظم (1999) "غزالة الصبا" دار الينابيع للنشر" ص 177.
17- الحجاج ، كاظم " (2017) "الاعمال الشعرية" ص 177.
18- المصدر السابق ، ص 51.
19- المصدر السابق ، ص 16.
20- المصدر السابق ، ص 18.
21- المصدر السابق ، ص 29.
22- المصدر السابق ، ص 123.
23- المصدر السابق ، ص 30.
24- المصدر السابق ، ص 45.
25- ثامر، فاضل (2012) "شعر الحداثة من بنية التماسك الى فضاء التشظي" دار المدى، بغداد، دمشق، ص 30.
26- المصدر السابق ، ص 217
27- الحجاج، كاظم (2017) ، "الاعمال الشعرية"، ص 30.
28- المصدر السابق ، ص 36.
29- المصدر السابق ، ص 45.
30- المصدر السابق ، 46.
31- المصدر السابق ، ص 45.
32- المصدر السابق ، 59.
33- المصدر السابق ، ص 61.
34- المصدر السابق ، ص 66.
35- المصدر السابق ، ص 12.
36- المصدر السابق ، ص 35.
37- المصدر السابق ، ص 67.
38- المصدر السابق ، ص 70.
39- المصدر السابق ، ص 71.

40- المصدر السابق ، ص 81.
41- المصدر السابق ، ص 83.
42- المصدر السابق ، ص 87.
43- المصدر السابق ، ص 90.
44- المصدر السابق ، ص 193
45- الالمصدر السابق ، ص 72.
46- المصدر السابق ، ص 75.
47- المصدر السابق ، ص 76.
48- المصدر السابق ، ص 79.
49- الحجاج ، كاظم (2005) "ما لا يشبه الاشياء" دار الشؤون الثقافية ، بغداد .
50- الحجاج ، كاظم (2017)، "الاعمال الشعرية" ص 91.
51- المصدر السابق ، ص 97.
52- المصدر السابق ، ص 98.
53- المصدر السابق ، 105.
54- المصدر السابق ، ص 119.
55- المصدر السابق ، ص 110.
56- المصدر السابق ، ص 61.
57- المصدر السابق ، ص 123.
58- المصدر السابق ، ص 129..
59- ادونيس (1968) "المسرح والمرايا " ، دار الاداب " بيروت
60- عباس، احسان، (1978) "اتجاهات الشعر العربي المعاصر"، عالم المعرفة، الكويت ، ص 160.
61- الحجاج ، كاظم ، "الاعمال الشعرية " ص 211.

إعتراف بضمير أنا المتكلم

صباح الأنباري

قالوا في لسان العرب: "إذا اعترف لنا عرفناه أي إذا وصف نفسه بصفة نُحَقِّقُه بها عرفناه" والاعتراف غالباً يفترض وجودَ معترفٍ ارتكبَ ما يوجب عليه الاعتراف به سرّاً أو جهراً بغية التخفيف عن نفسه من وطأة ما ارتكب ولهذا قيل: " من اعترف بذنبه فلا ذنب عليه" وكأنَّ الاعتراف فعل تطهيري يمحو ما علق بالمعترف من ذنوب. وقد مضوا إلى أكثر من هذا حين عدّوا "الاعتراف بالخطأ فضيلة" أو وسيلة لتطهير النفس مما علق بها من أخطاء وآثام وذنوب. وقديماً اعتبر أفلاطون التطهير علاجاً يؤدّي فعله حين يبلغ الإثم مبلغ المأساة الكبرى مثيراً كماً هائلاً من الخوف الذي يفرض على المرء التخلّص من آثاره الجسيمة عن طريق الاعتراف. ومن وجهة النظر القضائية اعتبر "الاعتراف سيد الأدلة" ينطق به المرء فيدين نفسه بنفسه وفي هذا تخفيف من وطأة الحكم عليه أحياناً. وفي الديانة المسيحية يحتاج المرءُ الاعترافَ بما اقترف من الذنوب في حضرة رجل الدين المخول بالإصغاء لذنوب العامة والخاصة تخلّصاً من ذنوبهم القديمة كلّها فتزول عنهم وطأة الشعور بالذنب، لكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحدّ الطوعي من الاعتراف بل تعداه إلى حد الإجبار والقسر فتأسست من أجله الدوائر الرسمية وشبه الرسمية، السياسية وغير السياسية، الدينية وغير الدينية لإجبار الناس على الاعتراف بما لديهم من معلومات أو أسرار تخدم هذه الدائرة أو تلك من دوائر التعذيب الوحشي الرهيب.

ولنا في هذا من التاريخ شواهد وأدلة لا يجهلها القارئ المطّلع والمتأمّل في أحداث الماضي، وكيف أجبرت المحاكمُ أفراداً وجماعات على الاعتراف حتى من لم يقترف - منهم - ذنباً لتحكم عليه بتعطيل ما جاء به من الحقائق المضادة التي دحضت السائد والمعروف من الحقائق المربكة، ولنا في غاليلو غاليليه 1564 - 1642 خير مثال على هذا إذ أجبرته محكمة من محاكم التفتيش الرومانية عام 1616 على الاعتراف - أن الأرض هي مركز الكون وانها لا تدور حول الشمس- لتثبت باعترافه أن التعاليم الكنسية السائدة إن هي إلا حقائق ثابتة فضلاً عن اتهامه بالهرطقة وقد صادرت كتبه بعد أن ألقت به في دياجير سجنها المظلم. ومن أجل الاعتراف أيضا ضرب الحلاج بالسياط نحوا من ألف سوط ثم قطعت ذراعاه ورجلاه ودقت عنقه وأحرقت جثتُه أيام الخليفة العباسي المقتدر بالله. والحال نفسه مع كوكبة من مناضلي اليسار العراقي في خمسينات القرن الماضي وعلى رأسهم المناضل

الشيوعي سلام عادل الذين أدينوا دون أي اعتراف يدينهم.

وفي سجن نقرة السلمان الصحراوي الرهيب عندما نجح الجلادون في انتزاع اعترافات السياسيين، وفرضوا عليهم توقيع وثيقة البراءة من انتماءاتهم، كتب الشاعر العراقي الكبير مظفر النواب قصيدته الشعبية الشهيرة (براءة الأخت) التي على إثرها مزق أغلب السجناء هذه الوثيقة سيئة الصيت، وثمة مئات الأمثلة إن لم أقل آلاف الأمثلة على طرق الوصول إلى الاعتراف لكنني هنا لا أبغي الاستمرار في بيان هذه الأنواع المربكة من الاعترافات بل أروم تناول نوعاً آخر من الاعترافات التي تنحو منحى أدبياً خالصاً ولا تمت بصلة لما ذكر إلا من حيث كونها اعترافاً حسب. ومن الممكن الجزم هنا أن المعترِفَ مخيرٌ فيما يريد الاعتراف به لجمهرة القراء أو النظارة في حالة العرض مهما اختلفت وسائط إيصاله التقليدية. فهو عمل طوعي، وبوح إرادي بمكنون النفس البشرية.

لقد قدم لنا الأدب العربي اعترافات مختلفة على درجة عالية من الخلق والإبداع في الجنسين الشعري والسردي. ولعل القدر الأكبر من تلك الاعترافات قد جعلت من الأنا أداتها المباشرة في بيان هوية المعترِفِ، والكشف عن أفعالهِ الخارق منها والعجيب والغريب الذي تفاخرَ أو تفردَ بها دون الأفعال البشرية كلّها، وانطلقتْ من السؤال المركزي (من أنت؟) فها هو ذا المتنبي يجيب بأناه في قصيدة يندر وجود مثيل لها في قصائد الشعر العربي القديم إذ يقول:

أنا الذي نظرَ الأعمى إلى أدبي
وأسمعتْ كلماتي من بهِ صَمَمُ
أنامُ ملءَ جفوني عن شواردها
ويسهرُ الخلقُ جَرّاها ويختصِمُ

المتنبي هنا يعترف علانية وبلا تردد بما في ذاته من شعور بالمجد والرفعة والسمو والرقي والأدب الخارق. إنه يبني المعجزات على التضاد العكسي والمستحيل فما من أعمى يستطيع النظر وهو فاقده، لكن سحر كلمات المتنبي بما لها من جزالة وقدرة وملكة شعرية خارقة وترياق سحري أعاد للعين إبصارها فرأت ما لم تره من قبل، وكذلك الصمم الذي زال عن أذنيّ الأصم فسمع كلمات المتنبي حتى ظن بعضهم بنبوته مقاربين بين معجزاته في الشعر وبين معجزات الأنبياء فاذا جاز لنا أن نسميه نبياً فهو نبي الشعر والقصائد والأدب الرفيع. وهو الواثق الكبير المميز عن الخلق جميعاً إلى الحد الذي ينام عن الشوارد بينما يختصم الخلق عليها ومن أجلها.

أما آخر أعمدة الشعر العربي الكلاسيكي الملقب بشاعر العرب الأكبر محمد مهدي الجواهري فقد جاء اعترافه بعظمة نفسه من باب الفخر أيضا في قصيدة أنوية جاء فيها:

أنا حتفهم ألج البيوت عليهم
أغري الوليد بشتمهم والحاجبا
أنا ذا أمامك ماثلاً متجبراً
أطأ الطغاة بشسع نعلي عازبا

فهو كالمتنبي يأتي بمعجزة تقلب الحال وتغير المآل، فمن حيث لا سبيل لإغراء الوليد فان الجواهري يستطيع ذلك بقدرته التي دونها قدرات الشعراء جميعاً. لقد نطق وليد مريم العذراء وأجاب الحضور بدلا عن أمه قائلا: "قال إني عبدُ اللهَ آتانيَ الكتابَ وجعلني نبيّا وجعلني مباركًا أينَ ما كنتُ وأوصاني بالصلاةِ والزكاةِ ما دمتُ حيّا وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيّا والسلام عليَ يومَ

ولدتُ ويومَ أموتُ ويومَ أبعث حيّا"
وها هو ذا وليد الجواهري يدرك ما يريد الجواهري فيشتم الطغاة كما لو انه بعمر الحاجب الذي تم إغراءه بشتمهم أيضا.
ومن عصر الرومانسية العربية يطل علينا الشاعر نزار قباني بقصيدته الاعترافية (إفادة في محكمة الشعر) حيث يقول فيها:

أنـا جرحٌ يمشي على قدميـه
وخيولي قد هدَّها الإعياءُ
فجراح الحسين بعض جراحي
وبصدري من الأسى كربلاءُ

وفيها يعترف نزار بقدرته الهائلة على تصوير جرحه ككائن له ما للكائن من قدمين، ويدين، وجسد يترجل عن صهوة خيله بعد أن أصابها الإعياء من ثقل الجرح وعمقه الغائر. وإمعانا في تضخيم الصورة فانه يجعل من جراح الحسين الجسدية والمعنوية الكثيرة كلّها بعضاً من جراحه الهائلة، ويجعل من حجم الأسى في صدره حجم مدينة استباحها الظلم والمآسي والفواجع كمدينة كربلاء.
وفي السرد كما في الشعر برزت الأنا لتعبر عن نفسِ المعترِفِ وما تضمره من الخفايا والنوايا التي حان وقت بثّها وإيصال شفرتها إلى جمهرة القراء والمتلقين بشكل عام، ولنا في قصة (الموت سداسيا) للمبدع الراحل محيي الدين زنكنة خير مثال على هذا حيث يقول مجاهراً باعترافه:
"أنا محيي الدين زنكنة مؤلف هذه القصة وخالق أحداثها وشخوصها فقد استطعت بعد إجراء بحث دقيق مصنف طويل أن أتوصل إلى جملة حقائق أضعها في خدمة التاريخ والحقيقة وكل من يهمه أمرهما، تاجر الجملة هذا لم يكن أكثر من أحد الأشقياء ولكنه هنا حيث تتزمكن القصة أصبح فجأة صاحب بستان تفيض بالخير والعطاء دون أن تخرق قدمه شوكة أو يسكب جبينه قطرة عرق سوى أن حريته اخترقت العديد من الأجساد، وسكينه سكبت سواق من الدم"[1]
وقد جرى الاعتراف هنا بوساطة الـ (أنا) فضلاً عن الاسم الصريح للمعترف (محيي الدين زنكنة) وهو اعتراف واضح، وإفادة قائمة على أساس المعرفة الدقيقة لسلوك تاجر الجملة (الجلاد) الذي استحوذ على كلّ شيء ولم يترك للناس أي شيء سوى استعبادهم.
لقد كان هذا الاعتراف أجرأ اعتراف في مرحلة اتسمت بالقهر والقسر والعنف والطغيان. وفي مجال السرد أيضا برز صوت يوسف الصائغ في كتابه (الاعتراف الأخير لمالك بين الريب) بجزئين فيهما أدلى باعترافه المطول عن تجربته منذ وقت مبكر من طفولته مرورا بأبرز ما رأى وما شهد من الأحداث الجسام[2]. ومن زمن السرد المحدث ذلك الذي أدلى به الشاعر الفلسطيني محمود درويش حين قال مؤكداً:
أنا من الشعراء الذين لا يحتاجون إلى نقاد لكي يدمروهم، أنا كفيل بتدمير نفسي والتمرد عليها[3].
وهو اعتراف بقدرة الذات (الدرويشية) على تجاوز ذاتها وتجديدها والإتيان بكل مبتكر في عالم الشعر والقصيدة وهذه هي معجزة الشاعر التي تفرَّد بها على جيل من الشعراء.
قلنا إن الاعترافات اتكأت على الـ (أنا) ضمير المتكلم أداة بينة لها، وضربنا الأمثلة على ذلك لكننا نود أن نضيف هنا أن الشطر الأكبر من الاعترافات قد ارتأت تغييب الـ (أنا) لصالح البوح الذاتي المباشر ليدلي المعترِف باعترافه بشكل صريح أو مرموز، فالبوح الذاتي هو

شكل من أشكال الاعتراف بما يَعْتَورِ النفس البشرية من أحاسيس ومشاعر ومدارك و. و. إلخ، ومع هذا مارس الضمير (أنا) حضوره من خلال صوت المعترِفِ وبوحه المستمر بما خفي وكتم وتمترس وراء السطور. ومن أمثلتنا على هذا قصيدة الشاعر علي فرحان (موت للعالم) والتي ضمتها مجموعته الأخيرة (ليل سمين). لقد سطّر علي فرحان اعترافاته بمواضع مختلفة من هذه المجموعة التي مارس فيها الضمير (أنا) حضوره الفاعل والصريح ومن ذلك ما يأتي:

"أنا الملوّحُ بالفواجع"

"أنا معتمٌ وقميصي حالَ لونُه"

"أنا أيضاً تذوقتُ قرابينه عند حافة البوصلة وتلمظَ

الشرق أمام أصابع الحلوى وتمخطَ وهو يتبرزُها"

وبعيداً عن هذه الأنا سنبيّن أعمق اعترافاته في قصيدة (موت للعالم)[4] والتي يفتتحها بحاجة العالم لسماع بكائه ثم ليعترف أنْ لا شأن له: "بالقصائد الحديثة أو بأنهار الدم التي أتلفت الحقول" أعود لعتبة هذه القصيدة بعد أن جرّتني إليها تركيبة العنونة التي استفزتني (موت للعالم) وقد جاء إيقاعها مخالفاً لما ألفنا مثل: موت العالم، والموت للعالم، فالأولى تشير إلى ملكية العالم للموت وحتميته، وتشير الثانية إلى التهديد والوعيد بالموت، وقد جاء التعريف بالأولى مقرونا بـ(العالم) بينما جاء في الثانية مقرونا بـ(الموت) مثل قول الشاعر العباسي ابن النبيه:

الناس للموت كخيل الطراد فالسابق السابق منها الجواد

أما في عنونة الشاعر علي فرحان فقد أزيح التعريف من العبارة وحلّت محلّه النكرة (موت) وكأنه هبة أو هدية أو باقة ورد تقدم لعالمنا بهذه السهولة والبساطة العجيبة مثل قولك ورد للحبيبة.

الموت مفردة لا تؤَّل بشيءٍ غيره فهو كما هو وإن اختلفت كيفيّاته لكن السؤال الجوهري هنا لماذا اختاره الشاعر للعالم حصراً؟ واي عالم هذا الذي سيحوز جائزة الموت الشعرية؟ فضلاً عن أسئلة أخرى وردت ضمناً من خلال البوح بما سكت عنه الشاعر طوال تجربته التي سبقت زمن القصيدة. وحيث نقف على عتبة القصيدة لطرقِ بابها فإننا ندرك أن القصيدة بنيت أساساً على دعامتين متناقضتين هما الموت، والعالم، وان أي اعتراف للشاعر سيصبُّ لا محالة في قالبي هاتين الدعامتين. والسؤال الذي نفتتح به كتابتنا مبني على إقرار من الشاعر بما يحتاجه العالم حيث يقول:

ما أحوج العالم لسماع بكائي

فلماذا يحتاج العالم لبكائه تحديداً؟ هل لأنه خبر الحياة وإرهاصاتها وجنونها؟ أم أن لبكائه قدرة سحرية تندمل بها جراحات الحياة؟ أم أن نغمة البكاء بذبذباتها الميتاموسيقية تشفي أرواح العالم المضطربة؟ وهل يمتلك تلك الطاقة فعلا؟ لنتأمل ونرى.

كغيمة نيكوتين يصنعها مراهق تلاشت قافيتي

وهذا اعترافُ أوليٌّ بالعجزِ لا المعجزةِ على خلاف من سبقوه من الشعراء فهو لا يضفي على نفسه الخوارق والمعجزات. ولا يتفاخر بقوة تأثير القصيدة قدر ما يعترف بضعف قوافيها وتلاشي بريقها كغيمة نيكوتين، وفقط يظلُّ له القلب الحنون، والصدر الواسع، ومهجة تذرف البكاءَ بدموع لها ما للقصيدة من سحر التأثير وحكمة الأثر وطاقة الشفاء.

لم تعد للكلمة فعل الخنجر في عالم متخم بالموت الرخيص. لم تعد قادرة على تقويض الظلم والظلمات. لقد رحل ذلك الزمن أعني زمن المتنبي ثم الجواهري ونزار القباني وأمسى مجرَّد ذكرى نجترُّها كلّما زاد شعورنا بالعجز المفرط. وهذه سمة عصرنا المترهل الذي أمعن في التدهور العظيم الذي أفقدنا الرغبة حتى بالكتابة:

وبدون رغبةٍ بالكتابةِ أصعدُ سلَّمَ الوحدةِ
واقطف امرأة.

يضيف الشاعر هنا سمة أخرى من السمات التي جاد بها العصر علينا إذ لم يعدْ الصعود والارتقاء حالة مجتمعية تضع الجميع على قمة المجد العتيد قدر ما هو حالة فردية نادرة حدَّد الشاعرُ، في هذه القصيدة، هدفَها الجميل بقطف امرأة بعد ارتقاء سلَّم الوحدة.

حالة الفردية إذن مقترنة بالوحدة الموشومة بالعزلة أيضاً في عالم أشدّ ما يكون حاجة للإصغاء التطهيري من الموت الذي لحق بمفاصل الحياة لا ليفنى الوجود بل ليصبح أكثر قدرة على الحياة. هذه الوحدة المرضية التي أشار إليها علي فرحان هي جوهر ما اعترف به محمد علي سلامة وهو يدلي به في قصيدته (لحظة في السعادة) إذ يقول:

لم يكن لديك أحد
غير الوحدة[5]

ويذهب إلى أكثر من هذا عندما يعترف بصريح العبارة إنه فقد الوحدة بالوحدة بعد أن فقد طريق الوصول بنفسه لنفسه في عالم يرسل الأشياء لنفسه فقط. انه عالم من الخرافة والضلال والظلام والبشاعة. عالم تُركَ الأمر فيه لمن احتل بقباحة ووقاحة دور الإله بين أناس لا حول لهم أمام جبروت وطغيان الفاسدين والقتلة اللصوص. ولقد وجدت من الأهمية بمكان أن اقتطع هنا جزءًا من القصيدة:

ما من شيء
لا قلب طيب ولا رحمة.
كل شيء يرسلك لنفسه
يحدثك
يجازيك على الوقت والعلاقات الفاشلة
على القانون الذي انتهى.. فلم يعد عدل
على النشأة وعدم الفهم
على المصير الضال
والسجن والكرباج

هذا هو العالم إذن. العالم الذي بحاجة ماسة لبكاء علي فرحان ودموعه الكلّية النقاء، ومجاهرة محمد علي سلامة الكلي الصراحة بما صار عليه بعد أن فقدت القلوب طيبتها، وثقلت موازين العدل بنهاياتها الخائبة وما عادت الأشياء ترسلك إلا لنفسها وتجود عليك فقط بالهلاك، والدمار، والشؤم والاضطراب.

إن مقررات محمد علي سلامة الواقعية جداً والتي فرضتها الظروف الجديدة على عالمنا المستباح بالنظم غير العادلة شكَّلت صرخة مدوية بوجه النائمين على فراش الزيف والديماغوغيا المعاصرة. ومن الجدير القول هنا إن محمد علي سلامة طرح أناه بشكل لاذع متخلياً عنها لصالح اعترافه القاطع الصريح ليكون سيّد الأدلة على تهاوي القيم إلى الدرك الأسفل، وإنه تنبأ بضياع هذه الأنا مثلما تنبأ بضياعها الشاعر العراقي مروان ياسين الدليمي الذي جعل منها عتبة لواحدة من قصائد مجموعته الموسومة (سماء الخوف السابعة) والتي فرضت حالة الغياب على نفسها في قصيدة (أنا.. غائب عني).

في هذه القصيدة يعترف الشاعر بمدى التغيير

الذي أصابنا بفعل ما اقترفنا على مر السنين.
يقول في أحد مقاطعها:
نحن لم نعد نشبه ما نحن
نحن من اقترف حماقات تحت نجوم نامت في ثيابنا.
وهذا اعتراف دقيق في محكمة الشعر، وإفادة وبيّنة على ما وصلنا إليه، وسوف لن نجد من هو أكثر صراحة وبوحاً واعترافاً، بما اقترفنا، من الشعراء. نحن من صنع الظلام لنعيش النهار بظلمة أنفسنا، واخترعنا التأليه لنغذي به الجانب المظلم من أنفسنا حتى صرنا لا نشبهها فهل ثمة من يمنحنا بعضاً مما كنّا عليه؟
لا أظن، فما هو خارج الذات سيظلُّ خارجها على الدوام. نحن فقط من يغيّر الأشياءَ ويضعها في مواضعها فان شئنا قدناها إلى الخراب، وان شئنا أخذنا بيدها إلى فراديس السحر والجمال والحكمة ولكن ألا يحتاج هذا كلّه لاعتراف مفصل بما نحن عليه كما يفعل الشعراء الحكماء؟
الشاعر أمير الحلاج يضيف اعترافاً آخر في إشارة منه لسمة أخرى اتسم بها واقعنا المعيش وأعني الخوف الذي أعمى البصر والبصيرة وراح ينمو بشكل هستيري في دواخلنا، داخل المطارِد والطريدة وقد صوره الحلاج في مقطعٍ شعري قصير اعترافاً بوجوده فينا وطموحاً منه لانتزاعه منها حيث يقول:
يجمع بينهما الخوفُ
في بيئة الغابة النائيةِ،
فمن الغزال الهاربِ
تتعالى قهقهات الصيادِ
ومن سماعه الزئيرَ
يبحث عن مخرج من فراغ البندقيةِ
فهو خوف مشترك مصدره إطلاقة الصياد التي تردد صدى فرحِ الاقتناص فيها داخل الطريدة الهاربة خوفاً، ومن داخله في بحثه عن مهرب له بعد دنو الزئير تحت مؤثر الخوف نفسه. ولا غرابة إن نحن زعمنا أن ما قدمه الحلاج هو اعتراف افتراضي لأنا الشاعر لأن الأنا لدى أمير الحلاج لا تختفي ليحلَّ محلّها البوح الذاتي المباشر وإنما ليحلّ محلّها الضمير المنفصل الغائب (هو) أو (هي) وهما يشيران إلى الشخص الثالث الغائب فقصائد الحلاج في أغلبها إن لم أقل كلّها تشتغل على هذه الضمائر حسب، وهذه واحدة من ميزاته الشعرية الحلاجية.
عموماً الاعترافات كلُّها تصبُّ في مصبّ حياتنا المستهدفة دوماً من قوى مختلفة بعضها يغذي بعضه الآخر لتكتمل الصورة المجسدة لكل أنواع الاضطراب والارتباك.
ولم يقتصر الاعتراف في دورته الساحقة على فحول الشعر حسب بل تعدى ذلك إلى إناث الشعر أيضاً. إلى المرأة الشاعرة. الشاعرة التي تعني، بحسب (لسان العرب)، القصيدة.
فاذا كان فعل الدمار برجوليته يصب جام معاناته على الواقع فان المرأة هي الحاملة دوما لوجع تلك المعاناة فها هي ذي الشاعرة فرات إسبر تدلي باعترافها في محكمة الشعر كانسان مكمل للحياة البشرية، وشريك له ما للآخر من خفايا وأسرار ينبغي البوح بها والاعتراف بتفاصيلها لنفهم فهماً كلياً حقيقة حياتنا وما تم السكوت عنه طويلاً وسنجد أنفسنا مضطرين ثانية الاستعانة بالسؤال المركزي من أنت؟ لتجيبنا فرات إسبر قائلة:
أنا عابرة الأكوان مع الوجع
وهذا يعطينا لمحة خاطفة عن سرّها الكبير الذي تخطى أكوان عديدة عاشتها كلَّها مع وجع مزمن كان ولا يزال لصيقاً بمشاعرها.

الوجع في هذا الإعتراف ليس كلمة عابرة، ولا تعبيراً سطحياً، ولا فذلكة تبغي من ورائها التفلسف الشعري الأعمى. إنه حالة المرأة الأم والأخت والحبيبة في عالم اختطف منهن الزوج والابن والحبيب وترك لهن الآلام، والدموع، وأسوأ حالات القهر والاضطراب حتى بدت الحياة مضطربة هي الأخرى وممعنة في الهبوط إلى الهاوية:

كأني على عجل!
الجميع يسير ببطء وأنا على عجل أسير
وكأن العمر رمانة تفرط حباتها حبة إثر حبة
ها أنا أذوي كحديقة غادرها الأحباء[7]

في هذه القصيدة أو بالأحرى في هذه القطعة الشعرية بمساحتها الصغيرة، ودلالتها الكبيرة صوَّرت فرات إسبر حياتنا مشبهة إياها برمانة غاية في دقةِ ترتيب حبّاتها وجمالها وحكمتها ولكنّها تذوي مع كلّ حبة تفقدها، وكل حبة فيها هي روح تواقة للارتقاء وهي في الوقت نفسه إسراء إلى العدم. ولعلها في اعترافها (الأنوي) الأخير تجترح يباباً بلا روح وبلا حكمة بعد أن نضت عنها ورود الأحبة. أما الشاعرة الكردية (كژال إبراهيم خدر) فإنها تثبت اعترافها في قصيدتها المترجمة إلى اللغة العربية (شابة أنفلوا خطيبها) إذ تقول:

ها أنا الآن في منتصف الليل
فروحي تحترق كجمرات مدفأة عائلة قروية[8]

قد يبدو قولها هذا سطحياً بعض الشيء إنْ لم نقف على عتبة قصيدتها (شابة أنفلوا خطيبها) لنتعرف على أوجه العلاقة بين مكونات القصيدة التي تُرِكَت السيادة فيها لضمير المتكلم (أنا) الخطيبة العاشقة الهائمة بحب الحبيب الذي وقع عليه فعل الأنفلة المرتبط بالقتل الجماعي (الجنوسايد) الموجه ضد الكرد أيام النظام المقبور.

الفعل الناري المشتق من مفردة الأنفال (أنفلوا) إذن أعاد لنا ذكرى أقسى اللحظات التي مرت بها الحبيبة إبّان وبعد عمليات الأنفال التي لم يتوقف أثرها عند حدود القتل حسب، بل تعدى ذلك إلى ما بعدها وهذا هو جلّ ما اعترفت به الشاعرة في هذه القصيدة.

لقد وجدت وأنا أبحث في المجاميع الشعرية كماً هائلاً من الأنا في قصائد الشعراء الكبار فهل يوضع هذا في باب النرجسية المفرطة أم يوضع في باب الثقة المفرطة؟ سؤال قد يتسنى لنا إجابته في قادم الكتابة.

الهوامش

1 - مجلة (الأقلام) العراقية العدد 11 لسنة 1970.
2 - الاعتراف الأخير لمالك بن الريب ج1 و ج2 منشورات شركة مطبعة الأديب البغدادية المحدودة/ العراق بغداد
3 - صحيفة اليوم العدد 10965 التاريخ 27/ تموز/ 2003.
4- ليل سمين/ علي فرحان/ دار ميزوبوتاميا/ العراق بغداد/ الطبعة الأولى 2016.
5- تداعيات في المطلق/ علي سعيد سلامة/مؤسسة النرد للثقافة والفنون/القاهرة 2012.
6- سماء الخوف السابعة/ مروان ياسين الدليمي/ دار الينابيع/ دمشق 2011.
7- مثل الماء لا يمكن كسرها/ فرات إسبر/ التكوين للنشر والتوزيع/ دمشق 2004.
8- عين للعشق حضن للمحبة/ كژال إبراهيم خدر/ مطبعة) روناكبيري)/ إقليم كردستان 2000.

جسر على نهر «كواي»

كاظم اللايذ

في حافلةٍ ..

من «بانكوك» الى نهر «كواي» .

عبر طريق الغاباتْ ..

تسألني سائحةٌ:

من أيّ بلادٍ أنتَ ؟

وحين أُجيبُ

تحرّك سبّابتَها

وتشيرُ الى وضعٍ يشبه إطلاقَ النار..

.....

يجلس قربي زوجان من اليابانيين:

الزوجةُ

طولَ الرحلة غافيةٌ

والزوجُ بعينيهِ العمشاوينِ

يحدّق من نافذة السيارةِ

في غاباتِ المانجو

وأشجار الأناناس

ويرفع حيناً عينيهِ

الى غيمٍ يتناثرُ فوق حقول الرز ..

....

خلفَ السائقِ

تجلسُ امرأةٌمن جامايكا

فارعةُ الطول

تُدلقُ صدراً مُنهتِكاً وحشياً

يزأرُ مثلَ نمور الأدغالْ

وحين يمازحُها السائقُ

تُطلق قهقهةً

مثل صفيحٍ

يسقط من أعلى السطح

***

الرحلةُ

تقصد جسراً تاريخياً

من آثار الحرب العظمى

على نهر كواي ..

بالسخرةِ , شيّده الأسرى البريطانيون

لصالح أعدائهم اليابانيين

لكن البريطانيينَ دهاقنةَ الجاسوسيةِ

في تلك الأزمان

نسفوا ذاك الجسر

فخرّ قطارُ اليابانيين بما يحمل في النهر ..

.....

المنشغلونَ

بتأريخ النكباتِ

يُجيدون صنيعَ الأسماء

أسموه: «قطار الموت»

***

بقطار الموت ..

عبرنا جسر كواي ..

نمرّ بغاباتٍ

ومروجٍ وقرىً هي أجملُ ما في الكون

والناس هنا مبتهجون

يحيّون القادمَ مبتسمينَ بوضع الكفين على الفمْ

***

رحلَ المحتلّون ..

– وتلك مقابر من هلكوا – ..

مثل الندبةِ في جسد الأرض .

أما نهرُ كواي

فقد ظلّ يسير

ويُنشد باللغةِ التايلنديةِ للغابات

يعبر من تحت الجسر

ويرفع كفّيهِ لآلاف السيّاح

ويصيخُ السمعَ

لقهقهة امرأةٍ من جامايكا .

كاكا . . . عبد الحليم حافظ

علي السباعي

أراقب بشغف طفولي لهو الأرانب البيض والسود، الرمادية والبنية، الكبيرة والصغيرة، السمينة والضعيفة، النشيطة والكسولة، الذكور والإناث فوق عشب السهل الممتد بلون الحبر الأسود المخفف بالماء من على جانب الرصيف الأيمن لشارع سالم، أحث خطاي ماشياً، ترتفع الجادة بتقاطعاتها سابحة داخل بحيرات ضوئية تتدفق متلألئة فوق زجاج واجهات المباني الحديثة العالية، تابعت صعودي فرحاً نقياً فوق رصيف شارع سالم في مدينة السليمانية، مدينة السليمانية الحديثة التي تأسست يوم 14 تشرين الثاني / نوفمبر 1784 م، على يد الأمير الكردي (إبراهيم باشا بابان)، والذي سمّى المدينة بالسليمانية نسبة إلى اسم والده (سليمان باشا) أحد أمراء سلالة بابان.

كان الوقت ليلاً، الجو بارد برودة منعشة لأننا كنا في كانون الأول، مناخ المدينة حار ومعتدل صيفاً وبارد جداً شتاءً، لحظات جميلة مرت، لحظات ناصعة عشتها أثناء سيري أتابع الأرانب الجبلية في بحثها عن شيء تأكله، كنت وحيداً في زحامي النفسي، أواصل بحثي عن حياة تتسع لأحلامي مزدحماً بوحدتي، لحظات فضية باردة من ليل كانون الأول، نجوم ليل كانون انكدرت، انتشرت الظلمة في السماء، والوحشة تغطي الجبال السود المحيطة بالمدينة، لولا مرور الغيوم المبحرة في الفضاء الأزرق الأدكن لتضيف ترقباً عجيباً، أسمع موسيقى حزينة أشد حزناً من حزني، الليل خال من النجوم ، هذه الليلة كانت السماء ترقد بسحر غامض في بحرها الأزرق الداكن السيال، موسيقى أيقظت قلبي من فرحه، أضواء إنارة أعمدة شارع سالم العريض ذهاباً وإياباً صعوداً ونزولاً تضيف هي الأخرى عمقاً مضيئاً، أضواء مصابيح السيارات السريعة تضيء بشدة أثناء مرورها مسرعة في غدوها ورواحها بقوة تضيء الطريق والسفح والبنايات والأشجار والمارة والعلامات المرورية ولوحات الإعلانات المعدنية ولوحات إعلانات كبيرة تضم صور المطرب التركي إبراهيم طاطلس مستثمراً، تضيئها، وبشدة تخفت، وتغيب هذه الأضواء مثلما تتوارى الأرانب في جحورها، كانت عيون الأرانب تضيء لامعة نتيجة انعكاس أضواء مصابيح

السيارات على عيونها وهي تلهو في أعلى الوادي أمامي، تكشف نيونات الشارع كنوز أجساد الأرانب البيض الناعمة كالحليب، والأرانب السود الطرية كالليل، والرمادية وافرة كحزن حياتي، والأرانب البنية المكتنزة كهباءات أيامنا.

ثمة نجم يضيء في المدى القريب، أظنه قمراً صناعياً، كان ضوؤه مكملاً لهرمونيا اللون أمامي، داخل عيني، رمادياً، وأزرق أدكن، وأزرق بتدريجات مختلفة تراقص تارة بين غامق وفاتح حسب مرور حركة أضواء مصابيح السيارات الآتية التي تسلط ضوءها على وجهي ، تشيع البهجة في النفوس مع تساقط قطرات المطر التي تتراشق متلامعة أمام عيني الجنوبيتين بفعل انعكاس ضوء مصابيح السيارات أثناء نزولها السريع، تتراص الأبنية الحكومية من على جانبيه، وتملؤني الموسيقى الحديثة الصافية كتميمة آسرة تشبه السحر، من بعيد التقطت أذناي الموسيقى الساحرة العذبة والخفيفة لأغنية العندليب الأسمر: (زي الهوى)، أنها السحر الذي استولى على روحي وقلبي وعقلي، سحرتني الموسيقى، وسحرني حزن الأسمرعبدالحليم حافظ رغم حبوري الكبير حتى امتلأت بالحزن إلى أقصاي، وفضت بالحزن حزناً.

كان صوت عبد الحليم حافظ يملأ شارع سالم كله ، ويضيء أرواح المارة المتبضعين بحزن ابيض منسي ، كأن صوته يتدفق من ينابيع أرواحهم المعذبة عشقاً، رحت أردد ما كتبه صديقي النبيل الشاعر العراقي المبدع (أديب كمال الدين) بحق العبقري عبد الحليم حافظ:

عبد الحليم

1.

حين انكسرَ فنجانُ القهوةِ المرّة
ما بين أصابع العندليبِ المرتبكة،
سالتْ روحُه العاشقة
وسطَ حنين الناي وأنين الكمان.

2.

كانَ مطربُ قارئة الفنجان
عبقريّاً بما يكفي
ليركبَ درّاجةَ النجومِ الهوائيّة
ويغنّي عن القمر،
قريباً جدّاً من القمر،
ويفتنَ ألفَ سندريلا وسندريلا
بألفِ أغنيةٍ وأغنية.
كانَ عبقرياً، إذن، ليكونَ نجم النجوم.

3.

لكنَّ قارئ الفنجان الذكيّ
ومطرب قارئة الفنجان العبقريّ
الذي روّضَ الفقرَ والجوعَ والحرمان
وروّضَ الحظَّ المُمَزَّق
مثل ثياب المُهرّج
وروّضَ ألفَ سندريلا وسندريلا،
روّضتْه جرثومةُ البلهارسيا التي لا تَرى
ولا تُرى!
كانتْ أذكى من عبقريّته اللامعة
وأعظم حظّاً من نجوميّته الساطعة.
فانكسرَ فنجانُ القهوةِ المرّة
ما بين أصابعه العاشقة
حتّى سالتْ روحُه العذبة،
وهي في قمّةِ الحبِّ والشوق،

وسطَ دموع الناي وأنين الكمان.
صرت أقترب ، وشدو العندليب يهزني بألم. كنت ألتاع، ولوعة صوت العندليب صارت تبكيني، تمطرني بكاءً كلما جهدت في صعودي شارع سالم صوب مركز مدينة السليمانية، كانت مدينة السليمانية عاصمة لإمارة بابان الكردية، وظلت مدينة السليمانية عاصمة الإمارة البابانية حتى عام 1851م، منها أعلن محمود البرزنجي التمرد ضد الاحتلال البريطاني في 22 مايو 1919م، قام بإلقاء القبض على المسؤولين البريطانيين فيها، وأعلن دولة مستقلة للأكراد، والسليمانية عاصمتها، أعلن الاحتلال البريطاني اعترافه بهذه الدولة وإعلان محمود البرزنجي ملكاً عليها لإسكات سكانها.
خلفت الأرانب ورائي ، نثيث مطر شهر كانون الأول منعش وجميل يضرب وجهي ، يغسل جبهتي، يطهر روحي، ناعم وسريع يزداد كلما حثثت خطاي صعوداً، راحت الذكريات تنهال مثل نهر عذب ، ذكريات الحب الأول، دنوت أكثر وأكثر من صوت حليم، كانت دموعي تنهمر بغزارة، كان الجو بارد برودة منعشة حلوة، برودته الحلوة وقطرات المطر ودموعي المنسابة بغزارة جعلتني ما عدت قادراً على الرؤية أمامي، ما عدت أرى لأن غناء حافظ سلب لبي وصعد إلى قلبي، أحتل نسغ روحي حتى صرت أمام مصدر الصوت، رجل في عقده الخامس، ممدداً جسده الهزيل على أسفلت الرصيف الأسود الناعم، يتكيء على جانبه الأيسر، يرتدي بذلة سوداء تشبه بذلة عبد الحليم حافظ عندما غنى: (رسالة من تحت الماء)، معطلاً، معطوباً، يفترش الرصيف الإسفلتي العريض من شارع سالم الأيسر باتجاه قلب المدينة صعوداً، قلب مدينة السليمانية النابض بالناس، يعطي ظهره لطريق السيارات، موليا قدميه الطويلتين باتجاه مركز المدينة، والسابلة يمرون أمامه أزواجاً وفرادى وجماعات، سابلة سماناً وضعافاً، طوالاً وقصاراً، ذكوراً وإناثاً، ذكوراً صلْعاً وبشعر، حليقي اللحى وبلحى طليقة، لحى مشذبة ولحى شعثاء، حليقي الشوارب وبشوارب، شوارب كثة وبشوارب قصيرة، بالزي الكردي وبالزي الرسمي، نساء شابات وكواهل، نساء بالزي الكردي التقليدي وبالزي الغربي، تقع خلفه بناية المكتبة المركزية في مدينة السليمانية، وقفت أمامه، أمامي بناية المكتبة العامة في مدينة السليمانية، الليل جميل والهواء عليل، ونث المطر أخذ يتراجع، وقفت أنظر له بعينين مخضوضبتين بالدموع، يؤدي حركات حليم بشكل ساحر مع إيقاع موسيقى ”زي الهوى“ الصادحة في الفضاء الأسود ذي النجوم الفضية البيضاء، انتظرت، انتظرته حتى يفرغ من وصلته في الغناء وقيادة الفرقة الموسيقية التي لا وجود لها، يلوح في الهواء بذات الحركات التي أداها سابقاً الراحل عبد الحليم حافظ ، انتظرته باكياً، صرت أجهش بالبكاء بصوت عالٍ، أبكي بشدة وبحرقة لأن الرجل المعاق يقلد حركات العندليب الأسمر وهو يغني (زي الهوى)، يقلده في كل مقطع، يقلد

حركاته في كل (كوبليه) مثلما يفعل عبد الحليم حافظ، يقلد حركاته نفسها، حركات يده اليمنى رغم عوقه. كل إيماءة كانت احتراقاً.

انتهت ''زي الهوى''، دموعي ملء قلبي، تصعد حتى عيني، فتمطران حزناً على وجنتي اللتين تستقبلان مطر كانون بلسعاته الحلوة، قرفصت قبالته، بيننا قطعة المقوى التي تزينها صورة عبد الحليم حافظ وهو يغني (الهوى هوايا)، كان يضع فوق الصورة جميع أشرطة الراحل عبد الحليم حافظ ، كانت عن يمينه مسجلة سوداء نوع (سوني سوبر ستريو) بسماعتين كبيرتين عاليتي الصوت وفائقتي الجودة، وبجانبها بطارية سيارة كبيرة تديم عمل المسجلة الضخمة، وأمامه كل أشرطة ''كاسيتات'' العندليب الأسمر، همّ أن يستبدل شريط أغنية (زي الهوى) بواحدة أخرى، قرفصت قبالته، سألته بمودة وبصوت متحشرج تخنقه العبرات مع ابتسامة خفيفة سافرة:

ـ كنت أتصور أنني الوحيد في العراق كله يحب سماع العندليب الأسمر؟!!!

إنتبه لقرفصتي أمامه، رمقني بطرف عينيه، قسمات وجهه مندهشة، يشع من عينيه تحد غريب، بدا وجهه النحيف مشعاً بالتحدي، رأسه الطويلة تغطيها تسريحة الساحر الأسمر عبد الحليم حافظ، خدان شاحبان تتموج فوقهما أنوار السيارات، ترك شريط ''كاسيت'' المسجلة فوق الورق المقوى عن يمينه، أبتسم بوجهي الجنوبي الأسمر ابتسامة المتبجح، أشعل سيجارة لنفسه، أحسست برغبة لتدخين سيجارة لكنني أحجمت عن ذلك، سحب نفساً عميقاً من سيجارته التي إتقدت، إشتد توهج جمرها، وصار جمراً، تركها أمامه على أسفلت الرصيف، وضع شريط الكاسيت في المسجلة، صدحت الأنغام، إنها ''قارئة الفنجان''، خفض الصوت قليلاً، أمسكني من ياقتي، ياقة قميصي الأبيض بيده اليمنى السليمة المتسخة مستفزاً، يبدو أن سؤالي إستفزه، سألني بغرور محبب قائلاً بحدة ومزاج عكر:

ـ أتعرف متى ولد ؟

إلتزمت الصمت، لم أجبه، أجاب بصوت مبحوح:

ـ ولد في 21 يونيو 1929م، في قرية الحلوات التابعة لمركز الإبراهيمية محافظة الشرقية.

ساد بيننا صمت طويل، حافظت على صمتي، نظر إليّ نظرة عميقة وسألني كاسراً للصمت الذي نشب بيننا:

ـ أتعرف أسماء أخوته ؟ وكيف نشأ ؟!!

حركت رأسي ذات اليمين وذات الشمال دلالات على النفي وعدم معرفتي، اصطنعت الجهل، وعدم المعرفة، اتخذت الصمت سبيلاً لإخراج ما بداخله، لأنني أعشق العندليب الأسمر حد الوله، وأعتبره إنساناً استثنائياً بحسه الإنساني العالي وصوته الجميل، زفر بوجهي بحنق، وكأنه زفر كل ذكرياته التي غارت في التجاعيد التي تملأ وجهه الطويل النحيف الأصفر، تابع إجاباته على الأسئلة التي يسألني بها:

ـ حليم الابن الأصغر بين أربعة إخوة هم إسماعيل ومحمد وعلية. توفيت والدته

بعد ولادته بأيام وقبل أن يتم عبد الحليم عامه الأول توفي والده ليعيش اليتم، عاش بعدها في بيت خاله الحاج متولي عماشة. كان يلعب مع أولاد عمه في ترعة القرية، ومنها إنتقل إليه مرض البلهارسيا الذي دمر حياته.

أطرقت حزناً، كانت العتمة تسود كل شيء، والضجيج سيد المكان، سألني بنبرة ليّنة:

ـ أتعرف أسمه الحقيقي.

سكت ، نظر إليّ نظرة عميقة وأجابني كمقاتل يخوض حربه الأولى:

ـ عبد الحليم شبانه .. كان يوم الثلاثاء 15 / 12 / 2015 م..

لذت بصمتي، والعتمة تغطي المدينة، الليل هادئ، وساكن، قال متسائلاً:

ـ أتعرف من إكتشف العندليب الأسمر؟

التقت عينانا، أردت أن أنطق إلا أنه لم يمهلني، كأنه عرف بماذا أفكر، أجاب ناقماً علي لجهلي:

ـ إكتشفه الإذاعي الكبير حافظ عبد الوهاب، الذي سمح له باستخدام إسمه ''حافظ'' بدلاً من شبانه.

مسحت دموعي بظاهر كفي اليمنى، نظرت إليه، كان باستطاعتي أن أرى عينيه تومضان بمكر، كأنهما عينا فأر ماكر تتحركان وتطرفان بشدة في محجريهما على أنغام موسيقى: ''قارئة الفنجان''، تساءل ببسالة:

ـ أتعرف كم عملية جراحية أجريت له؟

حقيقة لا أعرف، أجاب بنبرة تأملية نادرة باردة:

ـ أجرى خلال حياته إحدى وستين عملية جراحية.

تعجبت، شاهد استغرابي ودهشتي، رأيت في عينيه نظرة عنيدة باردة، توقف زخ المطر، بدت الأشجار الطويلة الداكنة تلمع تحت أضواء مصابيح الشارع، أعمدة الكهرباء طويلة ناحلة تُشِعُّ ضوءها الأصفر فوق جلستنا، يغمرنا نور مصباح الشارع حتى غرقنا في ضوئه، أكمل أسئلته وأجوبته:

ـ أتعرف كم أغنية غنى؟

زحفت الظلمة بسرعة، حاصرتنا، ظلمتها تنزلق بنشاط فوق المدينة، تحيل وجهينا إلى، أخشى أن أكون فقدت زهوي، كنت أعرف ولا أرد عليه لأنه وسخ ياقة قميصي الأبيض، أجاب بتبجح:

ـ قدم عبد الحليم أكثر من مائتين وإحدى وثلاثين أغنية.

قرأت بوضوح ما دار في ذهنه، تساءل بلهجة هادئة انبثقت من روحه:

ـ أتعرف في أية سنة أجيز عبد الحليم حافظ في الإذاعة؟ وبأية أغنية؟

رحت أنظر بعينيه المزهوتين، وصار ينظر إليّ مندهشاً، راح يكمل إجابته على سؤاله:

ـ أجيز عبد الحليم في الإذاعة عام 1952م، بعد أن قدم قصيدة ''لقاء'' من كلمات صلاح عبد الصبور، وألحان كمال الطويل.

عارضته بسخرية لأستفزه وأنا أنظر بفتور وغرابة:

ـ إن إجازته كانت في عام 1952م، بعد أن قدم أغنية ''أسمر يا اسمراني'' من كلمات سمير محجوب، وألحان محمد ألموجي، وعموماً هناك اتفاق أنه غنى (صافيني مرة)، من كلمات

سمير محجوب، وألحان محمد ألموجي في أغسطس عام 1952م، ورفضتها الجماهير من أول وهلة حيث لم يكن الناس على استعداد لتلقي هذا النوع من الغناء الجديد.

السماء شاحبة والسحب بلون رماد سيجارته التي شارفت على الانطفاء أمامه، عقب على جوابي نافذ الصبر وبنبرة تعجب عالية بعد أن سحب نفساً من سيجارته المطروحة أرضاً:

ـ لكنه أعاد غناء ''صافيني مرة'' في يونيو عام 1953م، يوم ذكرى إعلان الجمهورية، وحققت نجاحاً كبيراً، ثم قدم أغنية ''على قد الشوق'' من كلمات محمد علي أحمد، وألحان كمال الطويل في يوليو عام 1954م، وحققت نجاحاً ساحقاً، ثم أعاد تقديمها في فلم ''لحن الوفاء'' عام 1955م، ومع تعاظم نجاحه لُقب بالعندليب الأسمر.

كنت محاصراً ومعزولاً في عالم بارد ومليء بالمطر والغناء والأسئلة والغربة، ثمة أغنية ناعمة تنبعث من مسجلة الرجل تلامس بحنو روحي وتداعب سكون الليل وأنوار شارع سالم وتطير هذه الأنغام العذبة للمقدمة الموسيقية لأغنية (قارئة الفنجان) التي أبدع في تلحينها الملحن العبقري محمد الموجي تطوف بين أغصان الأشجار في الحدائق المحيطة بنا، في هذه اللحظة كان الليل في بدايته، والموسيقى ناعمة تنبعث من المسجل، ودفعات الريح تلاطف الوجوه بحنو، أخذ يبتسم متسائلاً:

ـ أتعرف مَن من الملحنين تعاون معه؟

الغيوم البيض والرمادية والزرقاء الدكناء بدأت تتلاشى وتتلبد بسرعة في السماء المكفهرة فوقنا، أظلم الشارع شيئاً فشيئاً، الريح تعصف بالأشجار فتحني أغصانها وتتناثر أوراقها، كنت ساكناً وحزيناً، سكت عن قصد، لكنه ظل ينتظر حتى بدأ الجو يتغير بسرعة مذهلة، أجاب بنظرة خبيثة من عينيه:

ـ تعاون مع الملحن العبقري محمد الموجي، حيث غنى له الكثير وأبرزهن (قارئة الفنجان، رسالة من تحت الماء) لنزار قباني، والملحن الفذ كمال الطويل، والملحن العبقري بليغ حمدي، حيث قدّم (حليم ـ بليغ) مع الشاعر المصري المعروف محمد حمزة أفضل الأغاني العربية من أبرزها (زي الهوى، سواح، حاول تفتكرني، أي دمعة حزن لا، موعود)، كما ان له أغان شهيرة من ألحان موسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب مثل (أهواك، نبتدي منين الحكاية، فاتت جنبنا).

تبسمت بحزن، وتشجيعا ليكمل أسئلته:

ـ أتعرف مَن جمع تراثه الغنائي؟

كعادتي أومأت بعدم المعرفة، فأستطرد يجيب بدلاً عني:

قام صديق عبد الحليم حافظ (مجدي العمروسي) بجمع أغانيه في كتاب أطلق عليه ''كراسة الحب والوطنية... السجل الكامل لكل ما غناه العندليب الأسمر عبد الحليم حافظ''.

ـ أتعرف مَن كان صديقاً له؟

رفعت حاجبي ومنكبي في آن إلى أعلى متعجباً أن لا أعرف، فبادر قائلاً:

ـ كان صديقاً له الحبيب بورقيبة والحسن الثاني والملك حسين.

واصل مطر أسئلته علي حتى أنني ضجرت وندمت لأنني سألته، أتلف لي هندامي، ووسّخ لي ياقة قميصي الأبيض، وتبللت بماء المطر، رأيت ضوءاً فريداً ينطق لامعاً لاصفاً مشعاً في عينيه يشبه سرب طيور عند الغروب، أكمل:

ـ أتعرف كم أغنية مصورة له؟

كان المطر يغسل وجهينا، سكتّ، دموعي تغسل نفسي مثلما يغسل المطر وجهي، أجاب بنبرة لا تخلو من حنان:

ـ عدد الأغاني المصورة في التلفزيون يصل إلى مائة واثنتي عشرة أغنية.

تابع يسألني وهو ممسك بخناقي، وكأني كفرت وسألته:

ـ أتعرف كم فلماً سينمائياً مثّل فيه؟

أجبته لأناكفه:

ـ ستة عشر فلماً سينمائياً.

مازال الخيط والعصفور بيدي، وقبل أن يسألني رحت أعددهن له لأضيره بصوت جاهدت أن يكون رقيقاً:

ـ لحن الوفاء عام 1955م وشاركه البطولة شادية وحسين رياض، أيامنا الحلوة عام 1955م مع فاتن حمامة وعمر الشريف وأحمد رمزي، ليالي الحب 1955م وشاركه البطولة آمال فريد وعبد السلام النابلسي، أيام وليالي عام 1955م وشاركه البطولة إيمان وأحمد رمزي ومحمود المليجي، موعد غرام عام 1956م مع فاتن حمامة وعماد حمدي وزهرة العلا ورشدي أباظة، دليلة عام 1956م مع شادية وفردوس محمد وكان أول فيلم مصري ملون بطريقة (السكوب)، بنات اليوم عام 1957م مع ماجدة وآمال فريد وأحمد رمزي، الوسادة الخالية مع أحمد رمزي وزهرة العلا ولبنى عبد العزيز وعمر الحريري عن رواية الأديب المصري إحسان عبد القدوس، فتى أحلامي 1957م مع منى بدر وعبد السلام النابلسي، شارع الحب 1958م مع صباح وعبد السلام النابلسي وحسين رياض، حكاية حب 1959م مع مريم فخر الدين وعبد السلام النابلسي ومحمود المليجي، البنات والصيف مع زيزي البدراوي وسعاد حسني، يوم من عمري 1961م مع زبيدة ثروت وعبد السلام النابلسي ومحمود المليجي وسهير البابلي، الخطايا 1962م مع عماد حمدي وحسن يوسف ونادية لطفي ومديحه يسري، معبودة الجماهير 1967م مع شادية وفؤاد المهندس ويوسف شعبان، أبي فوق الشجرة 1969م وشاركه البطولة عماد حمدي وميرفت أمين ونادية لطفي وهو آخر أفلامه.

فتح عينيه الجمرتين يتطلع بوجهي، كان وجهه خالياً من أي تعبير سوى إتقاد عينيه الحانقتين، وجهه أبيض مصفر جامد، انفرجت شفتاه المزرقتان، ولكي أوغل في أغاظته أضفت:

ـ كما قام ببطولة المسلسل الإذاعي ”أرجوك لا تفهمني بسرعة “ سنة 1955م، وأدهم الشرقاوي 1946م، كما ظهر في فيلمين هما إسماعيل ياسين في البوليس الحربي، وقاضي الغرام.

راح ينظر إليّ بحقد وغضب حتى أن عينيه إتقدتا، توهجتا، اشتعلتا، سأل قاصداً إحراجي وقبضته أطبقت على خناقي، وكان سؤاله مثل ضوء بزغ في العتمة:

ـ أتعرف متى زار بغداد؟ وماذا غنى فيها؟ وأين غنى؟ وأين أقام ببغداد؟
استمرأت لعبة إغاظته، أجبته مؤكداً:
ـ نعم.. أواسط الستينيات، وأحيا عدة حفلات غنائية على خشبة مسرح (سينما النصر) في شارع السعدون، وصاحبته الفرقة الماسية بقيادة الموسيقار أحمد فؤاد حسن.
إغتاظ، احمرت أوداجه وانتفخت من فرط الغيظ، نظر إلي بعينين مفتوحتين بإتساع نظرة متوحشة تعارضت مع ابتسامة رضى، تساءل بوحشية:
ـ أتعرف أسماء الأطباء الذين عالجوه في رحلة مرضه؟
غرقت حزيناً داخل لجة نفسي، كان ثمة خيط دقيق يشدني إلى الغرق في مناكفته، أجبته رغم غرقي في بحر حزني الواسع وابتسامتي لا تفارق عينيي وشفتي:
ـ الدكتور مصطفى قناوي، الدكتور ياسين عبد الغفار، الدكتور زكي سويدان، الدكتور هشام عيسى، الدكتور شاكر سرور، ومن إنجلترا الدكتور تانر، الدكتورة شيلا شارلوك، الدكتور دوجر ويليامز، الدكتور رونالد ما كبث، ومن فرنسا الدكتور سارازان.
أطرق برأسه قليلاً نحو الأرض بعد أن عصفت به أجوبتي، رفع رأسه محدقاً بعيني بعينين إتقدتا حقداً وغضباً، إبتسم بمكر، وصار الخبث يتطاير من عينيه المتقدتين الخبيثتين، وسألني بمكر:
ـ أتعرف ما أسم سكرتيرته الخاصة؟
أجبته والابتسامة لا تفارق عيني وشفتي:
ـ سهير محمد علي.
نظر إلي مندهشاً، أراد مقاطعتي، أومأت له بيد أن إسكت، وأكملت:
ـ عملت سكرتيرة خاصة معه منذ عام 1972م، وكانت ترافقه في المستشفيات التي رقد فيها حتى وفاته في يوم الأربعاء 30 مارس/ آذار من عام 1977م في لندن عن عمر يناهز السابعة والأربعين عاماً.
أسمع موسيقى قارئة الفنجان، تهزني، تهز عظامي، كان ثمة خيط دقيق يشدني إليها، كان قلبي يخفق بقارئة الفنجان، كأنها بقلبي، تصاعدت دقات قلبي مع تصاعد موسيقاها، دقات قلبي ليس لها أوّل، ليس لها آخر، شعرت بالحياة، جاءت الفرصة لأقتص منه لأنه لوث ياقة قميصي، ولخنقه لي بشدة، سألته:
ـ أتعرف أسماء المستشفيات التي رقد فيها خارج مصر؟
أطرق متألماً، وأجاب منكسراً:
ـ لا.. والله.
فرحت لانكساره، ابتسمت منتصراً، وأنا أجيبه:
ـ مستشفى إبن سينا بالرباط في المغرب، وفي إنجلترا: مستشفى سان جيمس هيرست، ولندن كلينك، فيرسنج هوم، ومستشفى كنجز كولدج (المستشفى الذي شهد وفاته)، وسالبتريد بباريس.
كنت أجيبه بابتسامة حلوة طيبة دافئة جنوبية عذبة محرجة مني بالنفي، النفي القاطع، رغم أنني أعرف أجوبة كل أسئلته، عشت معه دقائق مثل قصة قصيرة منسية، كنت فيها أصغي إلى نبضي باتجاه فنان صنعه الألم، هناك أنباء أحتفظ بها لنفسي، أمس ودع الحمام

الأبيض عبد الحليم حافظ يوم توفي في الأربعاء 30 آذار 1977م، بسبب المرض في لندن، اليوم وضعت شركة محرك البحث عبر الإنترنت ”جوجل“ صورة العندليب على صفحتها الرئيسة وهي تحتفل بعيد ميلاده، عيون المارة تعكس صورتينا، تعكس صورتي وأنا أمد يدي اليمنى النظيفة مصافحاً أسأله بأسى وأنا أبكي روعته بصمت:

ـ ما أسمك؟

ترك ياقة قميصي الأبيض، راح يستبدل كاسيت شريط ”قارئة الفنجان“، بواحدة أخرى، راحت مسجلته تصدح بمقدمة أغنية: ”حاول تفتكرني“، مدّ يده اليمنى المتسخة لي مصافحاً ناهياً حديثنا الطويل، بعد أن وضع سيجارته بفمه، المطر توقف نهائياً، حدق بعيني بعينين يسودهما الجمر، أجابني بفخر قل نظيره:

ـ كاكا . . . عبد الحليم حافظ .

السليمانية

صباح الثلاثاء 15/ 12/ 2015

نقرأ في أعدادنا المقبلة للأساتذة:

1. آشور ملحم
2. آمنة محمود
3. ابراهيم البهرزي
4. أحمد خالص الشعلان
5. د.أحمد مهدي الزبيدي
6. باسم العودة
7. د.باقر الكرباسي
8. جواد وادي
9. سلام القريني
10. صباح هرمز
11. د.عبد الجبار بجاي
12. فاهم وارد العفريت
13. قاسم شاتي
14. مصطفى محمد غريب
15. د.نادية هناوي
16. نصير الشيخ

في الصحافة الثقافية العالمية

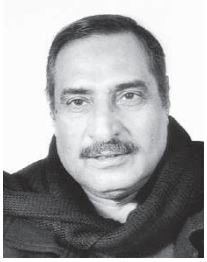

ترجمة: جودت جالي

مسرح:

العقل المدرع... مسرحية سياسية باللغة الإسبانية تتحدث الى الجميع

إن الظهور الدراماتيكي لحركات إستبدادية جديدة في أنحاء العالم من جانب، والقوة المتصاعدة للمقاومة العالمية من جانب آخر يقدمان حافزا غنيا لجواب فني. من الصعب في هذه الأيام خوض نقاش في أي شيء تقريبا دون أن يكون هناك تأثير لما يجري على تفكيرنا. يعيد مسرح (الشارع الرابع والعشرون) في لوس أنجيليس واحدا من أفضل أعماله التي قدمها في العام 2010، المسرحية ذات الممثلَيْن الحائزة على جائزة وهي (العقل المدرع) في إطار الموسم العشرين للفرقة تحت شعار (تحدثوا! إنهضوا!). في آذار ونيسان المقبلين ستقدم الفرقة مسرحية (آيس) عن الهجرة وعن معنى أن تكون أميركيا.

تصور مسرحية (العقل المدرع) سجينَيْن سياسيين سُمح لهما بالتواجد في زنزانة واحدة معا وتبادل الحديث لمدة ساعة أسبوعيا، ولكن يتوجب عليهما البقاء جالسين الى منضدة على كرسييهما ولا يقفان أبدا، وفي الحقيقة أن ألفاظا مثل كرسي ومنضدة لا تصور حقيقة الموجود. المسرحية تمجيد للعقل البشري وهو تحت الإكراه وأبدع في تصوير محنته الكاتب المسرحي الأرجنتيني (أرستيديس فارغاس) وقام بإخراج المسرحية بنفسه، وقد أفاد في صياغة أحداثها من شهادات شقيقه والسجناء السياسيين الآخرين الذين أودعوا سجن (راوسن) خلال الحرب التي عرفت بالحرب القذرة في الأرجنتين في السبعينيات تحت حكم الرئيس خورخه فيديلا الذي أدين فيما بعد بارتكاب جرائم ضد الإنسانية.

إن السجن خلفية مألوفة في الدراما، حتى في المسرحيات الغنائية. في مسرحية (الجزيرة) 1973 للكاتب المسرحي الأفريقي الجنوبي (أتول فوغارد) يقوم سجينان في زنزانة واحدة بقراءة مسرحية سوفوكليس (أنتيجون) الإغريقية التي تتحدث عن معنى العدالة، في إشارة واضحة لنيلسون مانديلا ورفاقه. توجد أيضا مسرحية الشاعر والكاتب المسرحي

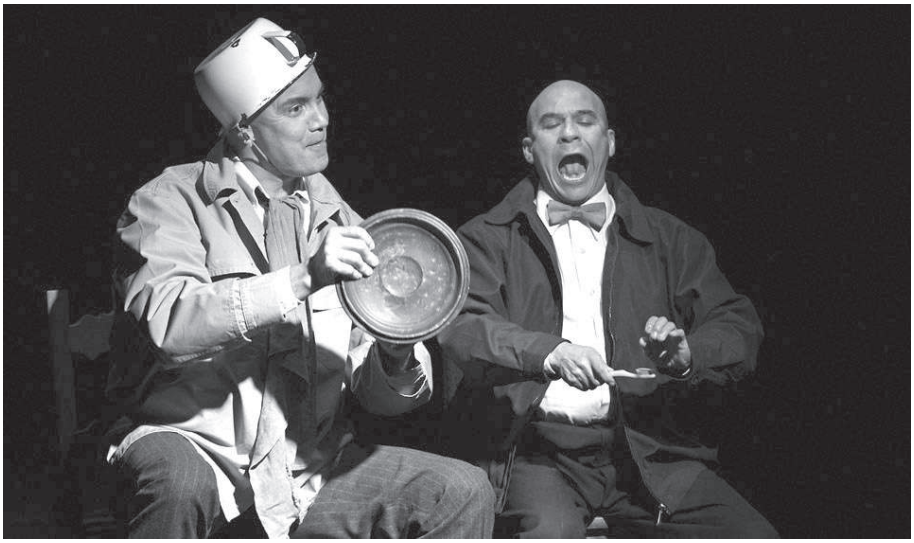

ميغويل بينيرو (عيون قصيرة) 1972 حول قبور نيويورك الشهيرة، ومن المسرحيات الأخرى (قبلة المرأة العنكبوت) 1990 الإقتباس الموسيقي لرواية مانويل بويغ التي نشرت في العام 1976. في كل هذه الأعمال يمنح السجناء مساحة للإستيهام والتخيل وسرد القصص ليخرجوا أنفسهم وزملاءهم من حالة اليأس. هنا يقضي السجينان ساعتهما المقررة خلال أربعة أسابيع بتمثيل شخصيتي دون كيخوته (الممثل جيسوس كاستانوس-شيما) وتابعه بانثا (الممثل توني دوران)، ويبين العرض أن ما يجري في سجن بعيد عن أية مدينة أرجنتينية ولا يصله أي زائر. المرجع الثالث لهذه المسرحية الى جانب شهادات السياسيين ورواية دون كيخوته هو قصة فرانتز كافكا القصيرة (حقيقة سانشو بانثا) التي نشرت بعد وفاته، تقول القصة أن السارد الحقيقي والمؤلف ومبتكر شخصية دون كيخوته هو الخادم بانثا. إن شخصية بانثا في المسرحية تكون بالتأكيد مناظرة ومكافئة لشخصية زميله السجين ويمكن عدها الأكثر مرحا ودنيوية وإدراكا.

يهدف عملهما التقمصي الى "إبتكار مجنون لينقذنا من هذا الرعب" ما دام كل شيء بالنسبة لهما "واقعي ما عدا الواقع"، وفي عبارة يقصد منها توجيه هزة الى وعي المتفرجين دون شك يقول فارغاس "في الداخل أنت سجين الظلم، وفي الخارج أنت سجين الجهل".

إريك غوردن/ جريدة بيبلز وولد الأميركية

شعر:

(أليخاندرا بيزارنِك) تبحث في الشعر عن حجر الجنون

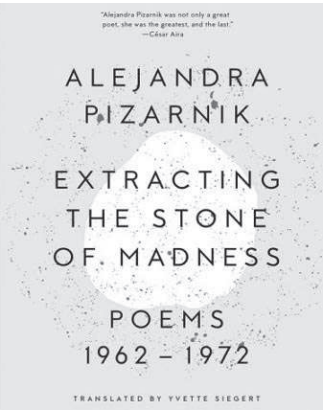

الشاعرة الأرجنتينية أليخاندرا بيزارنك ليست معروفة جيدا خارج أميركا اللاتينية. إرتبطت خلال حياتها القصيرة بحركة كتاب أميركا اللاتينية الطليعيين المسماة (بوم) في الستينيات، وحصلت على شهرة متواضعة، وقد إمتدحها أوكتافيو باث وخوليو كورتاثار، ولكنها لم تصل الى العالم المتحدث باللغة الإنكليزية، والآن تصدر دار (نيو دايركشنز) مختارات من أشعارها (إستخلاص حجر الجنون: قصائد 1962-1972) ترجمتها عن الإسبانية إيفيت زيغرت.

عاشت بيزارنك، المولودة في بوينس آيريس لأبوين مهاجرين روسيين، حياة قصيرة وإنتحرت وهي في السادسة والثلاثين تاركة خلفها مجموعة ضخمة من القصائد توثق حياتها الداخلية. تهتم الشاعرة بالموت والطفولة وفوق كل شيء تهتم بهويتها كشاعرة. تسأل نفسها لماذا أكتب؟ مرارا وتكرارا وما نفع الشعر؟ ومرة بعد أخرى تأتي الى الجواب نفسه كما صاغته في قصيدة (برد في يدين زرقاوين):

"سأختبئ وراء اللغة
ولماذا أفعل هذا؟،
لأني خائفة"

بالنسبة الى بيزارنك غاية اللغة هي عدم التواصل وخلق عالم خاص، ملجأ من العالم الخارجي. تغوص بيزارنك في أفضل قصائدها في ذلك العالم الخاص وتشرع برحلة جَسور الى الأعماق. نقرأ من (عيون بدائية):

"أنا معتادة على المدى المطلق للخوف. أعرف معنى أن أبدأ بالغناء وأشرع بالتحرك ببطء خلال الممر الجبلي الضيق الذي يعيدني الى الغريبة التي بداخلي. الى مهاجرتي الخاصة"، تشير كلمات مثل الممر الجبلي والمهاجرة الى المكتشفين الأوربيين الأوائل الذين زاروا الأرجنتين. هنا بيزارنك مسافرة بطولية تذبح الشياطين وتستعيد

اللغات المفقودة، وفي أضعف اللحظات، مع أنها تغوص في لغتها الخاصة، فإنها تميل الى رمزية معقدة ممثلة بشغفها بالراهبات والقلاع ونبات الليلك وكذلك حطام السفن والسيدات بملابس حمر. غالبا ما تعبر رمزية بيزارنك عن تمزق ما، إنشطار ما، كما في (مغني الليل):

"في داخل أغنيتها ثوب أزرق. هنالك حصان أبيض، هنالك قلب أخضر موشوم بأصداء قلبها الميت. تغني، وهي مكشوفة لكل ما فُقد، مع الفتاة الهائمة التي هي نفسها، تعويذتها".

من قصار قصائدها:

صهريج في الذاكرة
أنهار في الذاكرة
بُرَك في الذاكرة
دائما ماء في الذاكرة
ريح في الذاكرة
همس في الذاكرة
***
أجبرت نفسي
أن أرفس وأصرخ
في اللغة
***
رجاءً أليخاندرا
إفتحي عينيك
إشعلي ضوء
الولادة.
***
هذه الدمية الزرقاء الصغيرة مبعوثي الى العالم
يتيمة في حديقة المطر
حيث الطائر بلون الليلك يلتهم الليلك
والطائر بلون الورد يلتهم الورد.
أنا متخوفة من الذئب الرمادي الكامن في المطر.
مهما كان ما ترينه،
مهما كان الذي يمكن أن يؤخذ بعيدا،
هو غير قابل للكلام.
الكلمات تقفل جميع الأبواب.
أتذكر أني أتجول بين أشجار الجميز....
لكني لا أستطيع إيقاف الدراما -
الغاز يملأ حجرات قلب دميتي الصغيرة.
عشت المستحيل فحطمني المستحيل.
أوه، يا لإبتذال أهوائي الآثمة،
التي إستعبدَتْها الرقةُ القديمة.

كيت برنجل/ مجلة وولدز وذآوت بوردرز

سرد:

تواريخ (غوادَلوبي نيتيل) الطبيعية

"كل الحيوانات تعرف ما تحتاج إلا الإنسان". لسنا ميالين الى الإعتراف بصحة هذا القول، ولكن من الصعب المجادلة فيه بعد أن نقرأ (تواريخ طبيعية) للقاصة المكسيكية غوادلوبي نيتيل (من مواليد 1973). إن عنواني الكتاب والإقتباس كليهما يعود الى بليني الأكبر عالم الطبيعة والمؤرخ الروماني الذي يقول بأن الكائنات البشرية شيء شاذ في مملكة الحيوان، وأن الحيوانات كبيرها وصغيرها لديها غريزة حفظ الذات أما نحن الحيوانات ذات الساقين فإننا نبتكر شتى الوسائل لندمر حياتنا. تستكشف نيتيل هذه الأطروحة المظلمة فتضع شخصيات تحت مجهرها وتتفحصهم وهم في أضعف حالاتهم وأكثرها يأسا حيث ينهارون الى أخس غرائزهم. هذه المجموعة القصصية هي أول عمل للقاصة يترجم الى اللغة الإنكليزية، فازت سنة 2013 بجائزة (ريبيرا ديل دويرو) للقصة القصيرة، وقد صدرت لها قبلها مجموعة قصصية ورواية.

تعرض لنا نيتيل النسخة الحيوانية لشخصياتها، فإحدى شخصياتها، بعد خسارة حبها، تبقى متوارية عن الأعين في شقتها، وتستغل حياة عشيق عابر في حاجتها الدائمة "للمزيد". برغم ملامح شخصيات نيتيل الغريبة الصادمة فإنها يمكن أن تبدو عادية. لا يعني هذا أن (تواريخ طبيعية) لم تنجح في بلبلة القارئ بل الأرجح أن هذا التقبل للحيوان الغريب في كل منها هو ما يجعل الكتاب مثيرا لأننا كطرف ثالث مراقب يمكن أن نفهم السهولة التي تنحط بها هذه الشخصيات الى أحط غرائزها، حتى ولو بدرجات دقيقة. فما يمكن أن يعنيه هذا بالنسبة لنا؟ إحدى الشخصيات التي يستولي عليها هوس زراعة

الفطر السام تقول: "طفيليات! أنا أفهم هذا الآن، نحن بطبيعتنا كائنات غير مكتفية. لن يكون كافيا لنا الغذاء ولا حتى الإهتمام الذي نحظى به، والسرية التي تضمن بقاءنا غالبا ما تحبطنا".

في قصة (زواج السمكة الحمراء) ترى شابة إنهيار زواجها من خلال عيون زوج من الأسماك السيامية المتقاتلة واللتين يعكس تعايشهما المأزوم حالة زوجة وزوجها. تتوصل شخصية قصة (فيلينا) الرئيسة الى التكيف مع ظروفها بملاحظة علاقة قطة مع صغارها، وقصة (الأفعى من بايجنغ) تبين أنه ليس كل الأفاعي سامة كما تبدو من خلال مراقبة إبن لأبيه الذي تحظى عنده أفعاه المدللة بأولوية على عائلته، وتكشف القصة لنا أن الخطر الحقيقي لا يأتي من زاحف على بطنه بل من سائر على قدميه، فإفتتان الأب بإمرأة على بعد أميال هو الباعث الحقيقي على القلق.

إن نثر نيتيل دقيق، وربما بسبب تأثير موسوعة بليني (التاريخ الطبيعي) فإن شخصياتها تسرد ما يشبه التجارب العلمية ما يجعل القصص أكثر إيلاما وأكثر صعوبة في القراءة، وهذه ميزة تحسب للكاتبة وللمترجمة التي أبرزت الخاصية المظلمة والكالحة لعمل نيتيل دون أن تُفقد الشخصيات خواصها الجديرة بالتعاطف في توقها الى التفهم وملامستها لأوتار القارئ العاطفية الحساسة.

كريستين فازالارو/ مجلة وولدز وذآوت بوردرز

سينما:

(بلا حب) رحلةٌ روسيةٌ الى بلاد الطفولة الضائعة

لقد كان لفيلم أندري زفياجينتسيف (بلا حب) أثر عظيم على الجمهور الروسي، فحتى الذين لم يشاهدوه أدلوا برأيهم في موضوعه، وكل منهم تناوله وهو يتحدث عن معاناته. غياب الحب، مصاعب الحياة الروسية، والحقراء الذين يملكون ما لا يستحقون. هذا هو ملخص الإنطباعات بعد العرض الأول للفيلم في مهرجان كان السينمائي. لأن زفياجنتسيف يصور كما يتحدث ويرى فقد نجح في الحصول على جماهيرية واسعة. في سينماه المعقدة ليست الصورة بسيطة ولا مباشرة، وغالبا ما يكون المشاهد بحاجة الى إعادة المشاهدة ليدرك ما فاته إدراكه أول مرة... القول المضاد.

عنوان فيلمه (بلا حب)، ولكن الحب يحوم في الجو، والأنانية التي يبدو أنه لا يوجد غيرها في الفيلم ما هي إلاّ وعاء لإحتواء هذا الشعور الحميم المنفلت. زفياجنتسيف (من مواليد 1964) مخرج عاطفي ولكنه لا يعرض العاطفة بل يبقيها في الأعماق. يتأمل المشاهد، وهو ينظر الى عمق هذا البئر، إنعكاسه هو وليس إنعكاس المخرج. يوجد مثلا مشاهدون يرون السياسي في كل شيء بغض النظر عن موقفهم من النظام، والمعسكر الذي ينتمون اليه، ففيلم (بلا حب) هو بلا جدال، بالنسبة اليهم، دراما إجتماعية تتحدث عن المجتمع

الروسي كما تتحدث عن أرض مجدبة، أرض "لا تحب أبناءها"، وكما قال ناقد إنكليزي "مكان ينقرض فيه الكيان العائلي"، حيث السلطة تغذي الحقد عبر وسائل الإعلام.

فلنلاحظ أن ردود أفعال هؤلاء المشاهدين تكون على الإشارات الظاهرة، دون أن ينتبهوا مثلا الى أن الشرطي هو إنسان متعب بقدر ما هو أداة قمع. يشرح للوالدين أن الشرطة ليست لديها الوسائل ولا الوقت للإهتمام بقضية صبي فار من أهله، ولكنه يساعدهما بعد ذلك في بحثهما بالسماح للمتطوعين باستخدام قاعدة بيانات الشرطة، لأنه يوجد الكثير من الأطفال الفارين من عوائلهم. لحسن الحظ أن الكثير منهم يعودون ولكنهم يعودون الى الظروف نفسها التي دفعتهم الى الفرار، وهذا يفتح للمشاهد بُعدا آخر للتأمل، وهو العوائل المحرومة وإنعدام الغذاء، والحرمان من أجواء الطفولة، عوائل تجعلها المعاناة (بلا حب).

القراءة الأخرى تتمثل بإدانة الوالدين، وهنا تثير الشخصيتان غضب المشاهدين، زوج وزوجة، بوريس وجينيا، في سبيلهما الى الطلاق. الحكم يأتي على سلوكهما، على أنانيتهما، على تعطشهما للسعادة الفردية، وبالنسبة الى المشاهدين لا توجد معاناة شخصية عند الوالدين، أو لا قيمة لها إزاء واجب الأبوة. يقرران محو كل شيء من حياتهما المشتركة ومغادرتها ولكن إبنهما إليوشا هو أول من يغادر... ويختفي.

البعض يتهم زفياجنتسيف نفسه بتهمة "الحقد والإحتقار لبلده وناسه". الحقيقة أن أفلام زفياجنتسيف وحدها الآن من بين الأفلام الروسية تتطرق الى مسائل حساسة. الناس بمعظمهم يخافون الحقيقة، ليس الروس وحدهم. الواقع أن كل الناس يجرح بعضهم بعضا ويحتاجون الى بذل الجهد للتفهم والعفو والمحبة.

عمل زفياجنتسيف في البداية ممثلا ثم توجه الى الإخراج فأخرج فيلمه الأول الطويل (العودة) 2003 وحاز على جائزة الأسد الذهبي في مهرجان البندقية. أما هذا الفيلم (بلا حب) فقد حصل على جائزة لجنة التحكيم في مهرجان كان 2017.

أليونا سولينتسيفا/ جريدة (غازيتا. رو) الروسية

الأم وولدها أليوشا في فيلم (بلا حب)

بإختصار:

رواية (قصة زواج قصير) تفوز بجائزة DSC لآداب جنوب آسيا

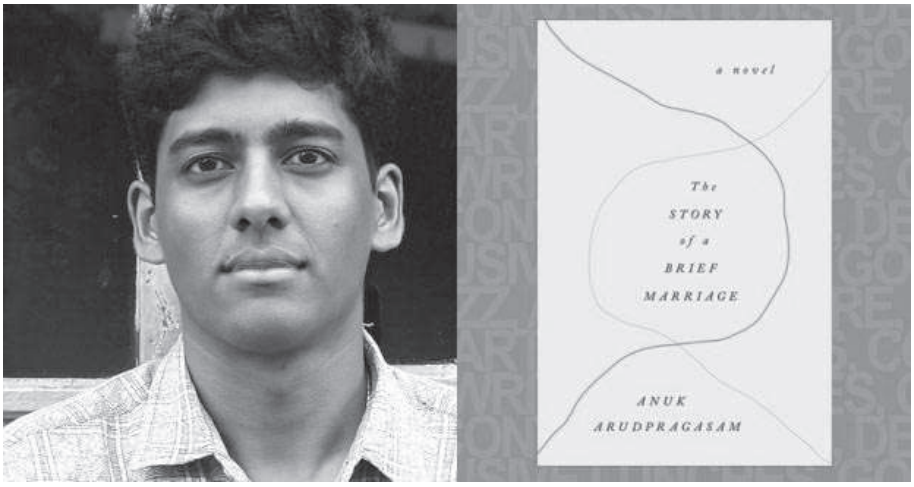

قدمنا في العدد 388-387 في المتابعات عرضا لرواية (قصة زواج قصير) تنويها بأهميتها وهي الرواية الأولى للكاتب السريلانكي الشاب (آنوك آرودبراغاسام)، وقد فازت أخيرا بالجائزة الأميركية المرموقة DSC المختصة بآداب جنوب آسيا، والتي تقبل أيضا مشاركات كتّاب من مجتمعات أخرى شرط تعلق موضوع العمل بمجتمعات جنوب آسيا. تبلغ قيمة الجائزة 25 ألف دولار وقد سلمت للفائز في قاعة احتفالات الأكاديمية البنغالية في دكا حيث صفق الحاضرون بحماس له. كانت روايات القائمة القصيرة كما يلي:

1- الحي لأنجالي جوزيف.

2- قصة زواج قصير لآنوك آرودبراغاسام.

3- يوم الإختيار لآرفاند آديغا.

4- جمعية القنابل الصغيرة. كاران ماهاجان.

5- في غاب الليل لستيفن آلتر.

جاء في كلمة لجنة الخبراء أن إختيار رواية (قصة زواج قصير) جاء لكثافتها وغنى تفاصيلها واستقصاء الكاتب لملامح مأساة الحرب ببلاغة هادئة. والرواية كذلك برهنة على القوة الخلاصية للحب ولقدرة الروح البشرية على التمسك بالأمل.

المعلومات عن جريدة ديلي ستار البنغالية

مجموعة فيسبوك هندية تحفظ الطبعات السوفيتية القديمة

مضت 26 عاما على إنهيار الإتحاد السوفييتي ولكن كتبه الموجهة الى الأطفال لا زالت ذكراها غضة في أذهان أولئك الذين كبروا وهم يقرأونها سواء باللغة الإنكليزية أو بالطبعة الخاصة باللغة الكيرالية (مالايام) والتي كانت تصل ولاية كيرالا التي حكمها الشيوعيون منذ إستقلال الهند.

تلك الكتب الصقيلة بقصصها المؤثرة ورسومها الرائعة خلقت صلة بين بلدين يشتركان بفكر واحد. وصل آخر هذه الكتب الى كيرالا في العام 1991 وأخذت تختفي تدريجيا من رفوف المكتبات خلال ربع القرن الأخير ولا يتوقع أحد وجودها سوى في مكتبة لا زالت متمسكة بهذه الكتب أو عند الهواة. لم ينسها (ساجد لطيف) أبدا وفي العام 2013 شكل مجموعة لجمع الكتب الروسية القديمة التي طبعت في موسكو بلغة كيرالا المحلية. الهدف في البداية كان مشاركة أغلفة هذه الكتب ولكن المجموعة التي بلغ عددها الآن ستة آلاف عضو بدأت مشروع تحويل الكتب الى طبعة ديجتال لحفظ هذا الأدب من الضياع.

طه أمير الدين/ موقع سكرول الهندي

(في سبيل الوطن! في سبيل ستالين!)
مذكرات ضابط في الجيش الأحمر عن الجبهة الشرقية

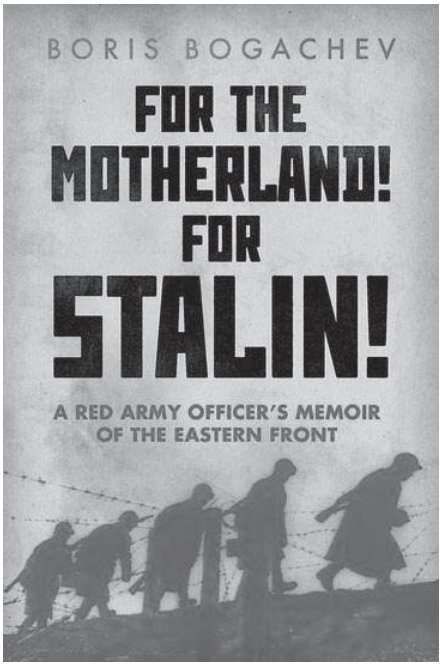

عندما تقاعد العميد بوريس بوغاشيف في العام 1985 شرع بكتابة هذه المذكرات عن خدمته لبلده كضابط في الجيش الأحمر أثناء الحرب العالمية الثانية. خدم لمدة 43 سنة وكان عضوا في الحزب الشيوعي منذ أن كان في السابعة عشرة من عمره، وقد أفاد من علاقات والده الضابط المخضرم فتطوع في سنة 1941 وهو في السادسة عشرة وقاتل في ثلاث معارك حاسمة كآمر فصيل وجرح في المعارك الثلاث.

عاد بعد شفائه من جروحه ليشارك كآمر فصيل هاونات تحت إمرة المشير الركن كونيف لعرقلة تقدم الألمان نحو موسكو وستالينغراد وكان أمر ستالين في غاية الوضوح "لا تراجع الى الوراء، ولا حتى خطوة واحدة"! ومع أن المدافعين نجحوا في عرقلة تقدم الألمان إلا أن أكثرهم قتلوا.

لم يضع بوغاشيف رتوشا للأحداث التي صورها بل ذكر فظائع الحرب، وطرائفها أيضا، وأثنى على بطولة العاملين في المجال الصحي من أطباء وممرضات حيث عملوا لإغاثة الجرحى وعلاجهم تحت ظروف القتال. إن بوغاشيف الذي توفي منذ عامين لم يبيّض صفحة الجيش الأحمر بل أتى على ذكر المظالم العسكرية ومحاكم الجبهة التعسفية، كما ذكر فقدانه للعديد من الأوسمة والترقيات التي منحت له في القتال بسبب التعامل البيروقراطي.

بعد الحرب تدرب ليكون محاميا عسكريا وأسهم فيما بعد في إعادة الإعتبار لضحايا ستالين.

جان تيرنر/جريدة مورننغ ستار البريطانية

نجوم السينما في وقفة لإستذكار الزمن المظلم في تاريخ الولايات المتحدة

تظاهرة للعاملين في السينما عام 1947 تضامنا مع زملائهم (عشرة هوليوود) المعتقلين لأسباب سياسية

قام عدد من نجوم السينما ومشاهير الفن يوم الجمعة 27 تشرين الأول 2017 باحتفال بمناسبة الذكرى السبعين للحملة التي شنتها السلطة ضد الفنانين والكتاب الماركسيين في هوليوود، وقد أعيد تمثيل وقائع من تحقيقات "لجنة مكافحة معاداة أميركا" من قبل الضحايا أو من قبل أقربائهم. برغم أن "عشرة هوليوود" (سنة 1947) هم أبرز الضحايا ولكن الإتهامات واللائحة السوداء تضمنت 300 إسم لكتاب ومخرجين وممثلين ومغنين.

عرضت في الحفل أيضا أشرطة فيديو تخص تلك الفترة وأحداثها. من بين الذين لا زالوا أحياء الممثلة مارشا هنت (100 سنة) والكاتبة نورما بارزان (97 سنة) بالإضافة الى الأقارب الذين حضروا.. حفيدة كيرك دوغلاس وحفيدة روبيرت ليس، وقرأت خمس من حفيدات الممثل (ليونيل ستاندر) بالتناوب شهادته المتحدية البطولية أمام اللجنة التحقيقية. في ذلك الوقت أدرج في اللائحة السوداء كل من رفض التعاون مع اللجنة وإستمر منعهم من العمل حتى الستينيات عندما كسر الحظر (دالتون ترمبو) بكتابته السيناريو لفيلم سبارتاكوس وفيلم إكسيدوس.

أدت فرقة دينيس كي أغان من الأفلام التي مُنعت آنذاك مثل فيلم (الطريقة التي كنا عليها)، وإستذكر الحاضرون إنتهاك واشنطن للتعديل الأول للدستور.

خاص بجريدة بيبلز وولد الأميركية

فوتوغراف:

معرض (غراند بالاس) الباريسي يرفع الستارة عن إرث (إرفنغ بن)

خلال المدة التي قضاها (إرفنغ بن) في مهنته، صوّر الجميع مع قطعة القماش الرمادية تلك دون تمييز، من مشاهير الى باعة متجولين الى صغار من بيرو، كلهم وقفوا أمامها، وهي معروضة الآن في الغراند بالاس بوصفها قطعة رئيسية من قطع المعرض الإستذكاري المكرس لمناسبة الذكرى المئوية لولادة المصور الأميركي إرفنغ بن (1917 - 2009).

كان بن في العام 1947 قد امضى عدة سنوات يعمل لصالح مجلة "فوغ" كخطاط وقد شجعه المدير الفني لينفذ صوره الفوتوغرافية الخاصة فأنتج للمجلة سلسلة من البورتريهات بالأسود والأبيض لشخصيات عامة وفنية من مارسيل دوشان الى سترافنسكي الى ترومان كابوت الى الفريد هيتشكوك وغيرهم. في العام 1950، بعد نجاح الصور التي نفذها لمشاهير هوليوود، غادر الى باريس ليصور أمام الستارة الرمادية عارضات الأزياء التي تزوج إحداهن وهي ليزا فونساغريفز، منطلقا هذه المرة في مشروعه الشخصي الذي إستكمله في لندن ونيويورك.

إن إنطلاقه الخاص سمح له بتطوير أدواته الفنية وإستقصاء مواضيع جديدة، وأسهم من خلال زوايا النظر والتصور الفني في تطوير فن التصميم.

الرجل الذي حلم يوما أن يكون رساما، أصبح إعتبارا من الستينيات أحد عمالقة فن التصوير الفوتوغرافي في العالم.

كارولين ستيفان/ مجلة لو تون السويسرية

صورة من ريبورتاج لمجلة فوغ 1948

ليزا فونساغريفز ترتدي قبعة الديكة 1948

سو موراي في صورة لحساب مجلة فوغ 1966

صورة تبين إسهام بن في تطوير أسلوب المصممة فريلاند

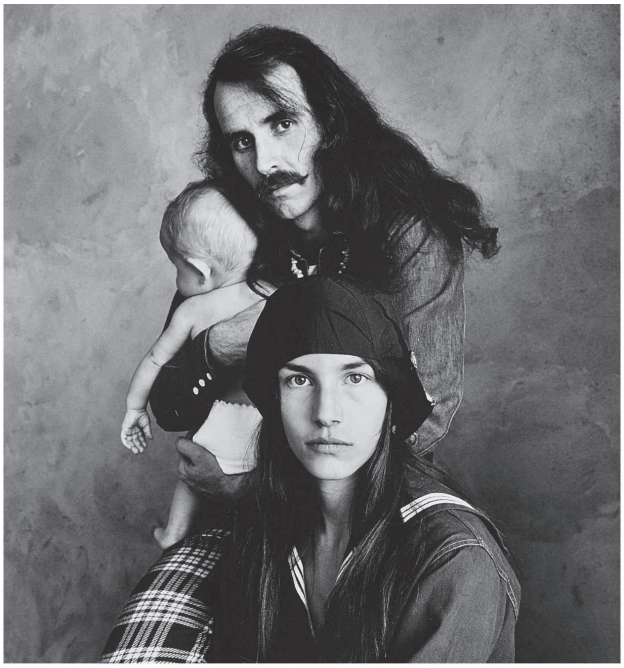

عائلة هيبية، سان فرانسسكو 1967

المغرب 1971

كتب د.جواد بشارة

عن دار المناهج للنشر والتوزيع في عمان ـ الأردن، صدرت الطبعة الورقية للمجلدات الثلاثة الأولى من الموسوعة الكونية الميسرة تحت العناوين التالية: ''الكون أصله ومصيره'' و''الكون الحي بين الفيزياء والميتافيزياء'' و''الكون المطلق بين اللامتناهي في الصغر واللامتناهي في الكبر''، وستليها في بداية عام 2018، المجلدات الثلاثة اللاحقة تحت عناوين: ''الواقع الظاهر والواقع الخفي في الكون المرئي'' و''كون مرئي وأكوان خفية ـ نظرات في نظريات تعدد الأكوان'' و''الكون المتسامي'' . إلى جانب صدور كتاب ''إله الأديان وإله الأكوان'' قبلها عن دار نشر ميزوبوتاميا في العراق شارع المتنبي.

في كتابه الأول: ''الكون اصله ومصيره''، يكاد لم يترك د.جواد بشارة نظرية أو افتراضا علميا أو حتى خرافة إلا وطرقه في هذا الكتاب الغني عن الكون. ولعله واحد من خير ما تم تقديمه باللغة العربية عن موضوع لا يتسم بالتعقيد والسعة فحسب، ولكنه مثير للجدل أيضا في كل مفصل من مفاصله.

والدكتور بشارة كاتب مرموق وذو خبرة طويلة في التأليف، ولكنه اثبت في كتابه هذا انه كاتب علمي من الطراز الرفيع ويستحق عمله أن يحظى بالثناء، حتى ولو اختلفت معه، أو وجدت مبررا لنقده.

فتلك هي طبيعة العلم، على أي حال، في موضوع ما تزال البحوث بشأنه في أولها.
ولقد جعل د.بشارة من عمله هذا مرجعا مبسطا وشاملا، من دون أن يضحي بالقيمة العلمية لمادته. وهو عرضها ليس من اجل أن يقدم "فتوى علمية" محددة، وإنما من اجل أن يضع أمام قارئه معظم النظريات والافتراضات والخرافات التي عالجت موضوع الكون وفهمنا له.
ولن يسع القارئ إلا أن يغرق به، ليس بفضل غناه المعرفي، ولكن بفضل لغته الرشيقة أيضا، والتي كشفت بحد ذاتها عن كاتب عميق الإطلاع.
وهو يفتح بهذا الكتاب أبوابا كثيرة لمعارف يكاد الكثير منا لم يسمع بها. كما انه إذ يثير أسئلة لا حصر لها تقريبا، إلا انه لا يترك قارئه حائرا دون أجوبة، وردود مضادة لها، إلا إذا كان العلم نفسه عاجزا.
يقول المؤلف في توطئته للكتاب:
إن أغلب الناس يعيشون أيامهم، ويقضون أعمارهم دون أن يفهموا العالم الذي يعيشون فيه. فمن النادر أن يفكر أحد بآلية تكون ضوء الشمس وأسبابه، في حين أن هذا الضوء هو العنصر الأساس للحياة على الأرض. ولا يفكر بالجاذبية التي تجعلنا ملتصقين بالأرض ولا نطير في السماء، ولا بالذرات التي تتألف منها المادة والتي نتكون نحن البشر منها أيضاً والتي يغدو استقرارها سبباً في وجودنا. ولا ينتبه أحد عادة إلى الطبيعة ولا يتساءل دائماً لماذا هي على هذا الحال، وهل يمكن للزمن أن يعود القهقري، وهل يمكن للنتيجة أن تسبق السبب والمعلول يتقدم العلة، وهل هناك حدود للوعي البشري والإدراك الإنساني والمعرفة البشرية؟ ناهيك عن التفكير بالثقوب السوداء وجغرافية الكون وطبيعة مكوناته، وما هو أصغر مكون مكتشف للمادة وهل هناك ما هو أصغر منه، ولماذا نتذكر الماضي وليس المستقبل، وكيف نفسر النظام الكوني القائم والعلم يقول أنه نشأ من الفوضى والعدم، وأخيراً وليس آخراً لماذا يوجد الكون؟ وهنا يقتحم المرء نطاق الماورائيات ومجال الميتافيزيقيا.
ويبدأ المؤلف م طرح الأسئلة من أولها: ما المقصود بالكون؟
كما صدر للكاتب والباحث العراقي المقيم في باريس منذ عقود طويلة الدكتور جواد بشارة كتاب علمي آخر عن دار المناهج للنشر والتوزيع في عمان ـ الأردن تحت عنوان "الكون الحي بين الفيزياء والميتافيزياء" الذي يأتي تتويجاً لبحث طويل ومضن استخدم أسلوب التبسيط العلمي، كرسه المؤلف لموضوع الكون ودراسته من كافة جوانبه وقد تكلل هذا الجهد في صدور الكتاب الأول للكاتب تحت عنوان "الكون أصله ومصيره" الذي صدر سنة 2011 وأعقبه بكتابه الثاني الذي نحن بصدد عرضه اليوم ليكمل مشواره المعرفي وتقديمه بلغة سهلة وسلسة ومفهومة من قبل كافة مستويات القراء حتى ممن لم يمتلك خلفية علمية أو دراسات جامعية عليا أو متخصصة.
تناول الباحث في كتابه الموسوعي هذا كافة المسائل الجوهرية المتعلقة بهذا الموضوع وكان تركيزه على الكون المرئي المرصود والموجود مادياً والذي نعيش فيه، والذي قام بدراسته بالتفصيل في كتابه الأول، ومن ثم حاول تجاوزه في هذا الكتاب لينطلق إلى

آفاق أوسع وأبعد تتعدى اللا نهايات . فبعد أن محص موضوعة الكون المرئي تساءل بجرأة هل هو حقيقة أم وهم وقد كرس الفصل الأول لهذا السؤال ومن ثم عرج على الموضوع الأهم الذي يؤرق البشر ألا وهو الزمان الذي عده المؤلف اللغز الأهم في الكون المرئي، أي أنه ناقش موضوعة الزمان كما هي وكما نعرفها في إطار وحدود الكون المرئي المرصود في فصل كامل . ثم عاد ليبحث في أعماق هذا الكون المرئي واسراره في مقاربة جديدة حملت عنوان الكون المرئي بين البداية المفترضة والنهاية المجهولة.

ولم ينس المؤلف التطرق إلى تطور الفيزياء وعلم الكون من نيوتن إلى آينشتين ويعالج موضوعات جديدة على القارئ العربي تمس المادة السوداء والطاقة المعتمة التي قد تكون سبباً في نهاية الكون بينما هي اليوم تقف وراء تفسير توسع وامتداد الكون كما يعتقد الكثير من العلماء الذين تناولهم المؤلف وناقشهم وعرض نظرياتهم. وفي خضم هذا الهم العلمي تقصى الكاتب مشكلة الوجود الانساني ونشأة الحياة وهل هي مقتصرة على الأرض أم يمكن أن تتواجد في أماكن أخرى في الكون المرئي وركز على علاقة البشر بالحضارات الكونية الأخرى المتقدمة علينا من خلال فصلين عن سر الاتصالات بين البشر والكائنات الفضائية الأخرى ومعادلة نحن البشر والآخرين في الفضاء الخارجي.

وسيجد القارئ ان هذا الكتاب الملفت بحجمه، ملفت أكثر بسعة الإطار المعرفي الذي ينطلق منه.

ويقول المؤلف: "حينما نتحدث عن الكون فإننا إنما نتحدث عن أنفسنا وعن وجودنا ومصيرنا ومعتقداتنا، وكلما أوغلنا في البحث عن أسراره، تنتصب أمامنا مزيد من الألغاز والتحديات والتساؤلات، خاصة وأن بعض العلماء يعتقد جازماً أن ما نعرفه عن الكون ليس سوى جزء لا يذكر من الحقيقة الخفية التي تغلفه، وأن الجانب المرئي والمادي من هذا الكون، ليس سوى خلية من مليارات المليارات المليارات من الخلايا الأكوان، الدائمة الخلق والتجديد، كمثل الخلية البشرية في جسم الإنسان".

وعن دار ميزوبوتاميا في المتنبي في بغداد ـ العراق ، صدر كذلك كتاب "إله الأديان وإله الأكوان: بحث في نشأة الإلوهية والأديان" للدكتور جواد بشارة، وتناول موضوع جدلية العلم والدين وتحدث عن الأصل العلمي للكون ونظرية الأوتار الفائقة وأطروحة تعدد الأكوان والفرق بين الزمان النسبي والزمان المطلق ونظرية الكموم أو الكوانتوم التي هي في الحقيقة أغرب من الخيال والاستفاضة في موضوع النماذج الكونية من منظور علمي، وأخيراً عدّ سيناريوهات عن نهاية ومصير الكون المرئي ومحاولة لاستعراض الأسئلة الجوهرية.

مطبوعات وصلتنا :

* د. علي محسن مهدي ،حدود السلطة التنفيذية (دراسة مقارنة) بريطانيا.فرنسا،المانيا،مصر والعراق- الرواد للطباعة والنشر- بغداد 2017.
* عبد الامير شمخي الشلاه، شذرات من مناهل المعرفة (دمشق: دار الينابيع، 2017)
* فؤاد قاسم الامير، النفط الصخري واسعار النفط والموازنة العراقية العامة (بغداد:الغد، كانون الاول 2015).
* فؤاد قاسم الامير، الدولار – دوره وتأثيره في اسعار الذهب والنفط والعملات الاخرى ودور العراق المقبل في تسعير النفط (بغداد: الغد، ايلول 2014)
* القاضي سالم روضان الموسوي ،حجية أحكام المحكمة الاتحادية العليا في العراق وأثرها الملزم .مكتبة صباح ، مطبعة السيماء . بغداد 2017.
* لطفي شفيق سعيد ،1000يوم في سجن نقرة السلمان – بغداد 2017.
* لطفي شفيق سعيد ، طوفان ماء السماء .ذكريات طالب في الكلية العسكرية ايام فيضان بغداد 1954 –بغداد2017.
* رحيم الساعدي ، الغطريف (رحلة في ذاكرتي) ،دار الجواهري ، بغداد 2017.
* هيثم بهنام بردي ، سركون بولص الذي رأى . المديرية العامة للثقافة والفنون السريانية – اربيل 2017.
* عبد الهادي الزعر ، تحت خط النقدوأشياء اخرى . دار الفرات للثقافة والاعلام في الحلة – 2017.
* د. سامي شهاب أحمد ، سرد ما بعد الحداثة .دارالحامد للنشر والتوزيع – الاردن ،عمان 2016.
* أ.د.نادية هناوي ، الجسدنة بين المحو والخط – الرافدين –لبنان ، بيروت 2016.
* د. علي متعب جاسم ،د.فاهم طعمة احمد – الناقد وآفاق القراءة ج1 – دار الرافدين – بيروت 2017.
* د. خيال الجواهري ، اوراق من الذاكرة – دار الرواد المزدهرة . بغداد 2016.
* مجلة الاقلام :الاعداد :الأول لشهر آذار 2017،الثاني حزيران 2017،الثالث أيلول 2017 تصدر عن وزارة الثقافة – بغداد
* مجلة الثقافة الأجنبية : الاعداد :الأول السنة -38 2017،الثاني السنة 38 2017-،العدد الثاني السنة 37 2016- تصدر عن وزارة الثقافة – بغداد.
* مجلة المورد : الاعداد : الأول السنة 43 2017-،الثاني ،السنة 44 لسنة 2017.العدد الثاني السنة 43 لسنة 2016 – تصدر عن وزارة الثقافة – بغداد .